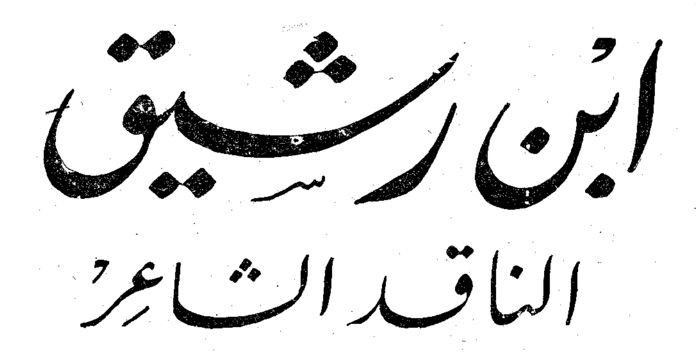
أعلام العرب
٤٥



تأليف

عبد الرءوف مخلوف

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال عضو المجمع اللغوى العربى ووزير معارف تونس الأسبق سعادة حسن حسنى عبد الوهاب باشا : « قضى المشرق فترة من الزمان منعكفا على ابى نواس والبحترى والمتنبى ولاسيما المعرى وابن سيناء ، وهم وان كانوا بلا مراء من مفاخر الآداب العربية وأمجادها ، الا أنه لايجوز أن يقتصر جهد الباحثين عليهم وأن يفتنوا بآثارهم فتونا ربما يحصر آفاق الشباب الناهض ، ويجعله قانعا بذلك النصيب بينما يوجد لديه خضم تلاطمت أمواجه وغمر عبابه الزاخر سواحل المشرق والمغرب على السواء » .

ويذكر سيادته من هؤلاء الذين ظهروا فى الغرب ابن رشيق، وابن حزم ، وابن رشد وابن سعيد الغرناطى وغيرهم .

ونظرت ، فرأيت من هؤلاء ابن رشيق الشاعر الناقد ، أو الناقد الشاعر البليغ ، رأيته فى المغرب يشبه أبا نواس فى المشرق، ورأيته فى بلاط المعز بن باديس كالبحترى فى بلاط المتوكل ، ورأيته فى كتابه العمدة كالجرجانى فى كتابه « الوساطة بين المتنبى

وخصومه » وكالآمدى فى كتابه « الموازنة بين الطائيين أبى تمام والبحترى » .

لذلك اتجهت بالدراسة والكتابة نحـوه ، ووصلت حبـلى بحبله ، لأنه فيما أرى قدم للغة العربية فى نقدها خير ما قدم ناقد لاسيما فى مجال نقد الشعر ، وأدى لها فى شعرها ما يرتفع به الى صفوف المقدمين من المحدثين المجيدين .

ثم هو برغم ذلك كله لم يحظ بدراسة مستنقصية تكشف عن مكانته فى النقد والشعر أو تعرف بآثاره ، وربما كان ذلك حظ أدباء المغرب العربى ونقاده وعلمائه بصفة عامة ، وربما كان سبب ذلك كما يقول السيد الجليل الأستاذ / أحمد الشايب : ان هذا الصقع الغربى من الوطن العربى « قد أصيب بانقطاع الحلقات » بخلاف المشرق فان يقظة شعوبه ، وتوافر مصادره ، واتصـال حياته منذ فجر التاريخ « قد أعان على دراسـة أعلامه ، وتتبع جهوده »

« غير أنه مهما تكن الأسباب فانها لا تبرر ترك قرون ثمانية فى تاريخ الحضارة الأندلسية ، كانت تزهى بأدبها العربى وطابعها الاسلامى ،.. ولا ترك أفريقية تشقى بالجدب والنسـيان طوال هذه القرون والى عصرنا الحديث » .

فاذا كنت اليوم أكتب فى سلسلة « أعلام العرب » عن واحد ممن عاشوا فى هذه المنطقـة وهو ابن رشيق القيروانى ، فانما

لأقطع ذلك الصمت الطويل الذى التزمه كثير من العلماء عن غير قصد حيال هذه المنطقة ولأفتح باب الاتجاه بالدراسة نحو هذا الصقع الكبير من الوطن العربى ، لاسيما ونحن اليوم نعيش نهضة عربية شاملة قد امتدت من أقصى المشرق الى أقصى المغـرب فى مختلف النواحي والجوانب .

واذا كنت قد قمت بدراسة جامعية حول ابن رشيق ، وموقفه من النقد ، ولاسيما نقد الشعر ، فان هذه الترجمة تختلف عن تلك الدراسة من حيث المنهج والخطة والأسلوب والعرض ، فاذا كانت الدراسة الجامعية تتسم بالعمق والدخول فى مناقشات كثـيرة ، والتصدى للآراء المختلفة والمتشابكة حول القضية من القضايا ، فان هذه الترجمة تتسم بالوضوح وبسهولة العبارة وبالبعد عن المناقشات ، وبالقصد من أيسر الطرق الى رسم معالم الشخصية وتوضيح صورتها وسماتها بما يلائم القارىء العربى الذى ينشد الثقافة العامة أو المعرفة بمن انجبتهم أرض الوطن العـربى .. على أن هذا المنهج يضع الحقيقة فى الصف الأول من الاعتبار ويلتزمها ما بدت له .

وقبل عرض الموضوع أشير الى أن قد سبق الى الكتابة عن صاحب الترجمة اثنان من العلماء المعاصرين ، فأما أولهما فحسن حسنى عبد الوهاب باشا فانه كتب كتابا أسماه « بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق » ، وجزء كبير منه يتصـل بحياة المترجم وقد طبع الـكتاب سنة ١٣٣٠ هـ . وأما ثانيهمـا

فالعالم المحقق الشيخ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى الأستاذ بالكلية الشرقية فى لاهور بالهند ، فانه ألقى محاضرة باللغة الأوردية فى الكلية عن ابن رشيق ، ثم عاد فنقل محاضرته هذه الى اللغة العربية ونشرها فى كتاب سماه « ابن رشيق » كما قام سيادته بجمع الكثير من شعر صاحبنا فى كتاب اسماه « النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف » وطبع الكتاب فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣ هـ . بالقاهرة .

ذلك كل ما كتب ـ فيما رأيت عن ابن رشيق ـ وقد أفدت منه فى كتابتى هذه وان خالفتهم فى كثير ، حتى لقد التقيت بصاحب البساط ، وأبديت لسيادته رأيى فى كثير مما جاء فى بساطه ، ولكم كان اعجابى واكبارى له حين قال فى تواضع العلماء : انه يعتزم اعادة النظر فى الكتاب عند اعادة طبعه .

وبعد فأرجو أن أكون بهذه الترجمة قد لفت الأنظار نحو ذلك الجزء الكبير من الوطن العربى ، وأعنى المغرب ، كما أرجو أن أكون قد ألقيت ضوءا على حياة ابن رشيق وجهوده فى النقد والشعر .

وبالله عونى ومنه توفيقى ...

القاهرة فى يناير ١٩٦٥ عبد الرءوف مخلوف

الفصل الأول
عصر ابن رشيق

توطئة :

يقول الأستاذ الشايب : « ان آثار الرجل ثمرة طبيعية لعاملين : هما بيئته وشخصيته وما يكون بينهما من تفاعل » ، ويظهر أن هذا القانون تحكم فى كثرة الدراسات الحديثة التى تتناول الأفراد ، واذ أن هذه الترجمة تتناول « ابن رشيق الناقد الشاعر » فانه صار حتما أن أتعرض لعصره فى نواحيه السياسية والعلمية والاجتماعية لأنه هو وما ترك من بصمات عقله وفكره على الثقافة العربية أثر من آثار هذه النواحى جميعا .

وهو نشأ فى شمال أفريقية ، وفى ذلك الجزء الذى سماه العلماء العرب باسم المغرب ، وهو الجزء الممتد من تلك القارة فى شمالها على البحر الأبيض المتوسط ، وفى شمالها الغربى على المحيط الأطلسى حتى السدس الأقصى ، ويتسع ذلك المغرب موغلا فى داخل القارة تبعا للخصب والمطر وتوافر أسباب قيام الحياة ، ويضيق حيث تقتر الطبيعة عليه فى ذلك .

وكلمة الغرب أو المغرب انما أطلقت على هذا الجزء من الدولة العربية الاسلامية فى مقابل اطلاق الشرق أو المشرق على أجزائها

الواقعة فى قارة آسيا والموغلة فيهـا الى أواسـطها حيث حط الاسلام فى أقاليمها ، واعتبر الجزء الواقع فى آسيا أصل الدولة العربية ومشرقها لأن فيه الجزيرة العربية المهد الأول والأصيل لهذه الأمة العربية أولا والاسلامية ثانيا ، ولأن منه كان انطلاق العرب مع الفتوح الاسلامية نحو الشـمال الأفريقى . ومن ثم استقر فى الأذهان أن الشرق والمشرق أصل العرب والعـروبة ، والغرب والمغرب فرعها،وساعد على استقرار هذا المعنى ما أصاب العرب فى الأندلس من هزائم ردتهم عن هذه البـلاد بعد قرون عديدة . فبقى الأصل وذبلت فروع من فروعه .

وقد جعل الجغرافيون المغرب ثلاثة أقسام : أدنى ، وأوسط، وأقصى؛وأساس التقسيم عندهم القرب والبعد عن عاصمة الدولة العربية ، تلك التى كانت دائما فى المشرق ، فتارة تكون فى الحجاز وأخرى فى العراق وثالثة فى الشام ، أما العواصم العربية بعد ذلك فى افريقية وغيرها فتبع لهذه العواصم فى المشرق الأم . وعلى هذا أطلقت كلمة المغرب الأدنى على أقرب أجزاء الساحل الشـمالى لأفريقيا من عاصمة الدولة العربية ، وذلك هو الجزء الشرقى من المغرب والممتد على ساحل البحر الأبيض فى مواجهة ايطـاليا .. وأطلقت كلمة المغرب الأقصى على أبعد أجزاء هذه المنطقـة من العاصمة العربية ، وهو الجزء المطل على المحيط الأطلسى . وبين هذين المغربين مغرب أوسط ، لأنه يقع من دار الخلافة بين بين(١).

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ففيها تفاصيل تفيد فى تحديد التقسيم ص ٦٥ - ٦٧

وابن رشيق نشأ فى المغرب الأدنى على ما سنذكره ، وتنقل بين مدنه ، وكانت نهاية المطاف به فى جزيرة صقلية تلك التى تقع فى بحر الروم ـ كما كانوا يسمونه ـ جنوب ايطاليا ، وكانت حياته من بداية العشر الأواخر فى القرن الرابع الهجرى والى ما بعد منتصف القرن الخامس بقليل ، ومن ثم لزم أن نعرض لهذه المنطقة فى هذه الفترة بكلمة :

الحالة السياسية :

(أ) فى المغرب :

يرى الناظر فى خريطة هذه المنطقة ـ قديما ـ أسماء طائفة من المدن ، فالقيروان ، والمهدية والمحمدية أو المسيلة ، وصبرة، وتونس .

غير أنه لابد من التنبيه الى أن تونس كانت تطلق على مايمكن أن نسميه المغرب الأدنى ، وقد بقيت تونس بهذا التصور ـ بعد الفتح الاسلامى تابعة فى ادارتها لولاة مصر . الى أن انفصلت فى منتصف حكم الدولة الأموية .

فلما كانت الدولة العباسية ولى الرشيد عليها ابراهيم الأغلب سنة ١٨٤ هـ . وقد أورث ابراهيم هذا ملك هذه الولاية لأبنائه من بعده . وظلوا يتعاقبون عليها الى أن ظهر الفاطميون ، وقويت شوكتهم فانتزعوها منهم سنة ٢٩٦ هـ . وأصبحت من ذلك التاريخ جزءا من دولة الفواطم العبيديين .

ولما استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨ هـ . وبنوا بها مدينة القاهرة ، واتخذوا منها قاعدة لملكهم ، وانتقل مركز الثقل اليها ، صارت تونس ولاية تتبعهم ، ويقوم عليها وِلاة من قبلهم، يديرون الحكم فيها لحساب الفاطميين .

وكان المعز لدين الله الفاطمى قد اختار لحكمها قبل مسيره الى مصر أحد أعوانه ، ذلك هو بلكين بن زيرى . فى سنة ٣٦١ هـ . واتخذ هذا من مدينة القيروان قاعدة لولايتـه تلك ، وظل بلكين وفيا لأولياء نعمته الفاطميين يعتـرف لهم بالتبعيـة حتى مات فى سنة ٣٧٣هـ وخلفه فى حكم تونس من بعده ابنه المنصور الذى ظل يحكم أيضا حتى مات فى سنة ٣٨٦ هـ ، وقام فى مقـامه من بعده ابنه باديس .

وقد تمتع باديس هذا بما لم يتمتع به أسلافه من قبل ، وصار اليه حق تعيين العمال والولاة فى البلاد التى تخضع لحكمه ، ولذا نراه يولى عمه حماد بن بلكين على أشير احدى مدائن المغـرب يومئذ . ولكن حمادا مالبث أن استشـعر القوة ، فبنى القلعـة المعروفة فى التاريخ بقلعة حماد ، فى الغرب ، وأخذ شـيئا فشيئا يتخذ لنفسه من مظاهر الاستقلال عن ابن أخيه باديس ما جعـل حكمه أشبه بدولة فى داخل الدولة وان ظل يعتـرف لبـاديس بالتبعية ، ثم كان على ذلك خلفاؤه من بعده . (١)

(١) وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٧٥ .

وأيا ما كان فان اتجاه الحماديين لسياسة الابتعاد عن باديس وأخذهم بمظاهر الإستقلال هيأ الفرصة لقيام فريقين فى المغـرب أخذت تتسع بينهما الهوة حتى صارا الى عداء ، ذانك الفريقان هما الباديسيون فى مدينة القيروان والمهدية وما تبعهما من مدائن، والحماديون فى قلعتهم الحصينة .

وإذا كان العبيديون قد أعلنوا انفصالهم عن الدولة العباسية فى المشرق ، وخلعوا طاعتهم ، وخطبوا لأنفسهم فى القاهرة ، فانه لما مات باديس سنة ٤٠٦ هـ . وخلفه على المغرب ابنه المعز ، لم يلبث هو الآخر أن أعلن انفصاله عن العبيديين فى القاهرة ، خلع طاعتهم ، وولى وجهه شطر المشرق حيث الخلافة العباسية فى بغداد ، فخطب للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وكان ذلك فى سنة ٤٣٩هـ[١]. وجاءه رسول المستنصر الفاطمى العبيدى فقال له: قل لصاحبك ان لنا ملك أفريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر»[٢]

ومن ذلك التاريخ انطلقت يد المعز بن باديس فى حكم المغرب ولكنه لم يستمتع طويلا بذلك الاستقلال ، فما أن انفصل عن الفاطميين حتى قامت بينه وبين بنى عمومته ، الحماديين ،فتن داخلية مثيرة اذ خلع هؤلاء طاعته ، ووقفوا منه موقف عداء ، وهكذا صار أبناء العمومة وكل منهم يقف لصاحبه ، يتحين به الفرص ، ويتربص به الدوائر ، وغذى هذه الخصومة من بعيد أولئك

(١) صبح الاعشى جـ ٥ ص ١٢٤ وقد جعل ابن الاثير تاريخ ذلك ٤٤٠ هـ ، وفى موضع آخر من كامله ٤٤٣ .

(٢) المعجم للمراكشى ٢٠٤

الموتورون العبيديون ، فكانوا يرسلون من القاهرة بسمومهم ، ويؤججون نار العداوة بين الأخوين بما يوحون الى قبائل بنى هلال أن تغير تارة على المعز وأخرى على بنى حماد ، وكل ضعف يصيب أيا من الأخوين فانه قوة لأعدائهم على أى حال

حتى اذا كثرت غارات المغيرين على المعز فى القيروان ، وأظهروا عليه وعلى بنى عمومته من الجرأة ما عجز معه عن أن يردغاراتهم ، أشار عليه أصحابه بالارتحال عن القيروان الى المهدية ، وكان عليها ابنه تميم من سنة ٤٤٥ هـ . فقصد اليها فى ٤٤٩ هـ .

وقد مكن ارتحال المعز عن القيروان للثائرين منها فأعملوا فيها تخريبا وهدما واحراقا على جارى عادات القبائل الهمجية كما يقول ابن خلدون .

ولحقت القيروان بذلك نكسة ، وأصابتها نكبة عدت من أكبر ما نكبت به مدينة فى التاريخ الاسلامى واندكت بهذا معالم مدينة من أزهى وأزهر مدنيات هذه البلاد فى ذلك الحين ، وقد شهد هذه الفتن شاعرا المعز ، ابن رشيق وابن شرف ، وقالا فى ذلك مرثيتين من أروع ما رثيت به المدن فى الشعر العربى :

وبارتحال المعز الى المهدية صار أمر البلاد الى ابنه تميم الذى ظل يحكم حتى سنة ٥٠١ هـ وقد مكن له فى الحكم عقله وحكمته وأدبه ، أما أبوه فقد مات فى ٤٤٩ ورثاه ابن رشيق .

ب : فى جزيرة صقلية :

وصقلية التى ارتحل اليها ابن رشيق آخر العمر هى تلك الجزيرة القائمة فى البحر الابيض المتوسط — وكان يسمى بحر الروم — فتحها المسلمون سنة ٢١٢ هـ . ايام حكم الأغالبة بافريقية وظلت تحت حكم المسلمين الى أن نزح اليها جماعات من الأفريقيين فى أثر مجاعة كانت سنة ٣٩٥ هـ . وكان يحكمها يومئذ جعفر بن يوسف بن عبد الله الكلبى ، فرحب بالنازحين ، ولقى هؤلاء من أهل الجزيرة كل معونة ومساعدة ، اذ أفسحوا لهم مكان العيش ، ويسروا لهم أسباب الارتزاق وتوثقت الصلاة بين الجزيرة وشمال افريقية . (١)

لكن مطامع المعز بن باديس فى المغرب جعلته تتطلع الى صقلية ليضمها الى ملكه ، ويبسط عليها سلطانه ، فسير اليها فى سنة ٤١٧ هـ . ولديه عبد الله وأيوب فاتحين ، وقد استطاعا أن يقتلا حاكمها ، وأن يبسطا عليها نفوذهما ، وأن يدبرا الأمر فيها بحكمة

ثم اتجه تفكيرهما الى التوسع فى جنوب اوربا ، وغزو النورمان ، وتأهبا لذلك وتجهزا ، وأمدهما أبوهما المعز من شمال افريقية بأسطول ضخم .

وبينما النفوس متطلعة الى معركة ينتصر فيها المسلمون ، هبت على الاسطول عاصفة عاتية فأغرقته ، وأغرق معه الامال .

---

(١) المسلمون فى صقلية

وكانت هذه النكبة سببا لا فى فشل الغزو فحسب ، وانما أيضا فى ضياع صقلية من أيدى المسلمين ، بل تجاوز أثرها الجزيرة الى المغرب ، ذلك أنها أطمعت الهلاليين فى ملك المعز بالمغرب وبدأ النورمان من ذلك التاريخ يجترئون على صقلية ، ويناوشون أهلها الى أن تمكنوا من نزولها ، وحاول أيوب ابن المعز أن يستخلصها منهم ، وتهيأ لذلك ، ودبر له ، ولكن جماعة من المسلمين فيها انضموا الى النورمان ، فأفسدوا على أيوب تدبيره ، واضطر وجوه القوم الى الانسحاب منها ، وقصدوا المهدية على مراكبهم التى بقيت لهم من الاسطول ، حاملين معهم جميع من رأى الانسحاب من خاصة القوم وأعيانهم ، وكان ذلك فى سنة ٤٦١ هـ .

وبهذا ضاعت صقلية من أيدى المسلمين بعدما أقاموا فيها حضارة عربية اسلامية وبعدما « صار أكثر أهلها مسلمين ، وبنوا بها الجوامع والمساجد » (١)، وخلا الجو لرجال النورمان فانقضوا على بقية ما بقى من تلك الحضارة يعفون عليه حتى عادت كما كانت قبل الفتح الاسلامى .

فى هذه الحياة التى تختلف بالسلم والحرب ، والاطمئنان والخوف لا يكون لرجل كابن رشيق بد من أن يتأثر فى حياته ، فالسلام الذى ساد الدولة جعله يتطلع فى شبابه الى لقاء رجالاتها ، والى الحياة فى ظلهم فى مدينة القيروان ، وكان له ما أراد اذ وصل

(١) معجم ياقوت فى صقلية

الى بلاط المعز ، وصار شاعره الأثير عنده ، أو فى الأقل واحدا من شعرائه . حتى اذا صارت السياسة الى فتن فغارات فحروب جعلت المعز يرتحل عن القيروان الى المهدية رأينا ابن رشيق « ينحشر فى زمرته المحروبة » اليها ، ولكن مقامه فيها لا يطول فيولى ناحية صقلية ، تاركا شمال افريقية بأحداثه وفتنه واضطراباته ولكن فى صقلية يصمت فلا نسمع له صوتا الا ما يكون من وصفه لركوب البحر اليها فى الأبيات التى نسبت اليه ، وفيها يقول :

ولقد ذكرتك فى السفينة،والردى   متوقع بتلاطم الأمواج
والجو يهطل والرياح عواصف   والليل مسود الذوائب داج
وعلى السواحل للأعادى غارة   يتوقعون لغارة وهياج
وعلت لأصحاب السفينة ضجة   وأنا وذكرك فى ألذ تناج

الحياة الاجتماعية :

اذا كانت الحالة السياسية فى الأمة من الأمم وجها من وجوه حياتها فان الحياة الاجتماعية هى الوجه الآخر وهى صدى لها ، تتأثر بها ، وتتلون بألوانها ، وتتشكل باتجاهاتها ، ففى فترات الأمن والاستقرار ينصرف الناس الى معايشهم ، ويقبلون على الاستمتاع بأسباب العيش ما تهيأت لهم أسباب ذلك . أما اذا أطلت الفتن برءوسها ، واضطربت سياسة الدولة ، وأصابها مد وجزر ، واجترأ عليها أعداؤها ، فان الناس يتأثرون بذلك كله ، ويشاركون فى مواجهته ، ولا يستطيعون الحياة بمنجى منه ، والأدباء والعلماء من الناس ، يضربون فى ذلك بسهم ، ولو

أن تأثرهم قد يكون أحيانا بسلبية ينكمشون معها فلا ينتجون ، وانما يلتزمون الصمت ، ولكنهم فى الاغلب يعبرون عن وقع الأحداث على مشاعرهم وأحاسيسهم .

وأكثر ما يظهر من أثر الاضطراب كما يقول ابن خلدون ، « يكون فى الأمصار التى تكون كراسى للملك » ذلك ما نلمسه حين نستعرض أمور الدولة الصنهاجية التى عاش تحت رايتها صاحب السيرة .

ففى فترات الاطمئنان رأينا حضارة فى ذلك الجزء من الوطن العربى لا تقل عن مثيلتها فى المشرق ، فدواوين يقوم بالأمر فيها رجالات من أصحاب الثقافات العريضة ، ومجالس تضم من العلماء والشعراء الى بذخ يدل على غنى وترف ، يقول صاحب بساط العقيق : « وكانت الدواوين — فى القيروان — ثلاثة ، ديوان الجيش ، وديوان الرسائل ، وديوان الجباية » .. فاذا علمنا أن ديوان الرسائل كان يضم أكثر من مائة كاتب بليغ كابن رشيق وابن شرف وغيرهم تبينا ما كانت عليه الحياة الاجتماعية من انتعاش يستدعى قيام ذلك الديوان — يقول حسن حسنى عبد الوهاب الصمادحى : « وكان يتلو الجباية ديوان المراسلات أو تحرير المكاتبات والصكوك الصادرة عن الأمير لمخاطبة عمال الجهات ، والولاة ، والقواد وغيرهم ، وكان هذا الديوان فى دولة المعز منتصبا بمدينة صبرة على نصف ميل من القيروان بمقربة من منزل الملك ، وهو يحتوى على أكثر من مائة كاتب

بليغ كابن رشيق وابن شرف ، ويرأسهم أبو الحسن على بن أبى الرجال الشيبانى مربى المعز ابن باديس وكاتب سره (١) » .

وكذلك يقول صاحب كتاب « المسلمون فى صقلية » عن المعز « وكانت له مدينة من أروع ما رأته البلاد الافريقية (٢) » .

وفى فترات الفزع ينتكث حبل الدولة ، ويضطرب الناس فى معايشهم ، وتختل حياتهم الاجتماعية ، فيصيرون الى فوضى تعقد الألسنة عن أن تقول ، وتغل الأفئدة عن أن تفكر الا مايكون فى تصوير ذلك كالذى نراه من شعر تميم بن المعز وقد عاش النكبة نكبة القيروان ، ورأى ملك أبيه يتقلص ويأزر الى المهدية بعد غارات بنى هلال ، فانه يصور ذلك فى أبياته التى منها :

يادهر ما أقساك من متلون   فى حالتيك وما أقلك منصفا
أتروح للنكس الجهول ممهرا   وعلى اللبيب الحر سيفا مرهفا
واذا صفوت كدرت بشيمة باخل   واذا وفيت قطعت أسباب الصفا

ثم ينظر تميم فى اجتراء المغيرين على ملك أبيه ، فلا يسعه الا أن يستنهض همم القوم للذود عن الحياض ، ورد المغيرين ، وذلك اذ يقول فى لوعة وحسرة :

متى كانت دماؤكم تطل   أما فيكم بثأر مستقل

---

(١) بساط العقيق فى ص ٢٨

(٢) المسلمون فى صقلية ١٧٨

وتمتم عن طلاب المجد حتى   كأن العزم فيكم مضمحل

وهذا الشعر أيا تكون قيمته الفنية يحمل الدليل على أن الحياة الاجتماعية دائما صورة وصدى لحياة السياسة التى تحياها الدولة وعلى أن الأدب فى شعره ونثره لايمكن الا أن يكون رجعا لهذه الحيـــاة .

الحياة العلمية والأدبية :

رأينا فيما تقدم كيف كانت حياة السياسة تنتقل بالمغرب من حال الى حال ، فبعد أن كان جزءا من الدولة الاسلامية التى قامت بالمشرق والتى مدت أجنحتها الى ذلك الاقليم ، أخـــذ حـــكامه يستقلون عنها ، ويقيمون لأنفسهم فيه ملكا خالصا لهم ، حتى اذا انتقل الفاطميون الى مصر ، وبنوا القاهرة واتخذوها قاعدة لحكمهم رأينا باديس بن المنصـــور ثم ابنه المعز من بعده ينفصـــلان عن الفاطميين ، ويجعلان من المغرب دولة تتحدى دولة القاهرة .

واذا كان ذلك يترك بصماته على الحالة السياسية والاجتماعية فان أثره لا يقل فى جانب الحيـــاة العلمية والأدبية ، على أن أثر الاستقلال هنا كثيرا مايكون خيرا وبركة على العلم والأدب ومرد ذلك أن الوالى الذى يستقل عن مركز الحكم يجهد فى أن ينافس أصله بما يهيىء للعلـــم والعلماء والشعر والشعراء من أسبـــاب الحياة والنهوض ، والممالك كالأفراد يستهويها الفخر بنهضة الحياة العلمية ، لذلك لم يكن غريبا أن نرى المغرب ينافس المشرق ، ولم

يكن غريبا أن ترى دولة الصنهاجيين على أيام باديس،والمعز وتميم تنافس الفاطميين فى القاهرة ، ذلك أن اعتزاز هؤلاء بالاستقلال وزهوهم بالحكم ، ورغبتهم فى الظهور أمام منافسيهم بمظهر الند فى شتى مناحي الحياة ـ الى جانب ما كانوا هم أنفسهم يتمتعون به من حب العلم وتذوق الأدب ذلك جميعه ـ هيأ تربة خصبة لقيام حياة علمية وأدبية نامية حية فى هذه الفترة بتلك البلاد فى مدائنها المختلفة كالقيروان والمهدية .

فى القيروان :

ويتحدث عنها المراكشى المعجب فى تلخيص أخبار المغرب فيقول : « وكانت القيروان هذه فى قديم الزمان منذ الفتح الى أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب ، اليها ينسب أكابر علمائه ، واليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم ، وقد ألف الناس فى أخبار القيروان ومناقبه ، وذكر علمائه ، ومن كان فيه من الزهاد والصالحين والمتبتلين كتبا مشهورة ككتاب أبى محمد بن عفيف، وكتاب بن زيادة الله الطبنى .

ولقد كان حسب الرجل أن ينتمى الى القيروان حتى يعرف بالعلم والأدب ، وقد ذكرت كتب التراجم منهم من لا يتسع المقام لذكر أسمائهم ، وانما نشير الى نفر ممن ذكرهم ياقوت فى معجمه فهو يذكر من هؤلاء :

ابراهيم بن على الحصرى القيروانى صاحب زهر الآداب ومات

بالمنصورة احدى قرى المغرب سنة ٤١٣ هـ . وقد توجه اليه ابن رشيق ببيتيه :

رفقا أبا اسحق بالعالم — حصلت فى أضيق من خاتم
لو كان فضل السبق مندوحة — فضل ابليس على آدم

وكان الحصرى هم أن يضع كتابا يذكر فيه شعراء القيروان ويرتبهم على حسب أعمارهم فبلغ ذلك ابن رشيق فخاطبه بالبيتين منكرا عليه اتجاهه ، قالوا وكان البيتان سببا فى عدول الحصرى عما كان عزم عليه . ومنهم خلف بن احمد القيروانى الشاعر الذى قال عنه ابن رشيق فى كتابه « انموذج الزمان فى شعراء القيروان » أنه شاعر مطبوع تأدب بافريقية وله شعر معروف جيد ، مات بزويلة المهدية سنة ٤١٤ هـ ومن شعره :

هل الدهر يوما بليلى يجود — وأيامنا باللوى هل تعود
عهود تقضت وعيش مضى — بنفسى والله تلك العهود
ألا قل لسكان وادى الحمى — هنيئا لكم فى جنان الخلود
أفيضوا علينا من الماء فيضا — فنحن عطاش وأنتم ورود (١)

ومنهم ابن عيذون الهذلى اللغوى ابن الحسن التونسى ولد فى تونس سنة ٤٢٨ يوم عيد النحر وتوفى بالاسكندرية ، قالوا ومن جملة شعره قصيدة فى الرد على المرتد البغدادى فيها أحد عشر ألف بيت على قافية واحدة ، وفيها فوائد أدبية .

---

(١) معجم البلدان ج ١١ ص ٦٥

ومنهم احمد بن أبى الأسود القيروانى ، وكان غاية فى النحو واللغة وله تصانيف فى النحو والغريب ومؤلفات حسان وكان شاعرا مجيدا .

ولا نطيل الحديث عن هؤلاء وغيرهم فان الاتيان عليهم مما تكفلت به كتب التراجم والطبقات ، وحسبنا أن نشير الى أن ابن رشيق وجد فى شعراء القيروان من الكثرة ماجعله يختصهم بكتاب يذكرهم فيه ، ويذكر من مختار أشعارهم ، ويسمى الكتاب « انموذج الزمان فى شعراء القيروان » فان فى ذلك الدلالة على مبلغ ماوصلت اليه النهضة الأدبية ، ومن باب أولى النهضة العلمية فى هذه المدينة التى كانت فى المغرب تنافس بغداد الدولة العباسية فى المشرق .

فى المهدية :

وهى المدينة الثانية بعد القيروان فى عصر الصنهاجيين ــ عصر ابن رشيق ــ وتبعد عن القيروان بمسيرة السائر يومين ، وكان قربها هذا من القيروان جديرا بأن ينال من مركزها العلمى حيث يكون فى المدينة الكبرى . وعاصمة الملك ــ القيروان ــ مايصرف الناس عنها ، ولكن النهضة العلمية ، وانتشار الحركة الفكرية والأدبية جعل من المهدية مركزا ثانيا من مراكز الثقافة فى المغرب ، وفى ذلك يقول أحد المؤرخين « وقد ازدان ملك صنهاجة بالمهدية ، كما ازدان بالقيروان ، فكان فيها بلاط فاخر ، التف حوله ثلة صالحة

(1) معجم البلدان جـ ١٤ ص ٨ .

من رجالَ العلم ، وأعلام الأدب ، وكبار الفلاسفة ، والشعراء — يقول المؤرخ — وكانت أيام المهدية على صغر المملكة ، وتعاقب الحروب بينها وبين الهلاليين أياما مشهورة فى تاريخ الفن والعلم والأدب .. وقصدها من كل ناحية أمثال ابن رشد فيلسوف الأندلس ، وكان أمير المهدية تميم من خير الرجال عقلا وأدبا وحسن ادارة ، ومعرفة بأصول الأدب والشعر » . (١)

ولا غرابة فى أن يكون ذلك شأن المهدية فأميرها تميم ابن المعز الذى حكمها أكثر من نصف قرن كان هو نفسه شاعرا يتذوق الأدب ويستشعر الجمال فى الفنون ، ويقدر أثرها فى حياة الأمم « وانتجع حضرته جماعة من شعراء المغرب والأندلس ، منهم ابو اسحق بن أبى خفاجة فى صباه ، وعبد الله بن عبد الجبار الطرطوسى ، وأبو الحسن على بن عبد العزيز الحلبى المعروف بالفكيك وغيره ، وخدمه بالشعر من أهل افريقية أيضا جماعة ومدحه قبل هؤلاء شعراء المعز أبيه » . (٢)

المكتبات :

وأما المكتبات والكتب التى الفت فى المغرب ، ورفعت الى حكامه فى القيروان والمهدية وغيرهما ، أو التى اجتلبت من المشرق ومن الأندلس الى شمال افريقية ، فقد تكونت منها مكتبات كبرى عامة وخاصة فى قصور الولاة وفى بيوت العلماء وبيوت الذين يناصرون الحركات العلمية دائما .

---

(١) المسلمون فى جزيرة صقلية ص ١٨٤.

(٢) المجموعة المغربية ص ٢٠٧.

وحسبنا دليلا على وفرة الكتب ، وعلى ازدحام المكتبات بها ، مع أن العصر لم يكن عصر طباعة ، وانما كان عصر نسخ ، انا نجد المعز بن باديس « يهدى الى أبى بكر عتيق السوسى تسعمائة مجلد من نفائس المصنفات ، أرسلها اليه على رءوس الحمالين عقب مجلس علمى استحسن فيه الأمير آراء هذا الأديب » (1) ومهما يكن حظ الرواية ونصيبها من الصحة أو المبالغة والتزيد فانها دليل على نهضة علمية ، وعلى تشجيع وتقدير من حكام المغرب للآداب والعلوم

بل انا لنرى النساء يشاركن فى نهضة العلوم بهذه الاصقاع « فجدة المعز وهى حاضنة والده باديس تهدى كتبا جميلة الى المكتبة العامة ، تلك التى كانت فى البيت المجاور للمحراب من الجامع الأعظم فى القيروان ، ومن بين هديتها مصحف بخطها على رق مزوق بالذهب » وفى هذا الخبر أيضا الدليل على أن جدة المعز لم تكن مجرد امرأة تتخذ من اقتناء الكتب مظهر أبهة وافتخار من غير ان تعلم قيمة الكتاب . وانما هى امرأة تتخذ من العلم وأسبابه شغلا لها فتكتب بخطها المصحف مزوقا بالذهب لتهديه الى المكتبة العامة .

« وبالجملة فان العلم ازدهر بافريقية فى القرنين الرابع والخامس ازدهارا لم يسبق له مثيل بسبب انتشار التعليم ، ومساعدة

---

(1) بساط العقيق ص ٣٩

ولاة الأمر ، والوجهاء ، الذين كانوا يفرضونه على أولادهم ونسائهم وجواريهم وخدمهم عملا بأوامر الشريعة السمحاء » (١)

في صقلية :

فاذا نحن يممنا شطر صقلية رأيناها لا تقل عن شمال افريقية اهتماما بالعلوم والآداب وقد وعى التاريخ ، وحفلت كتب الطبقات والتراجم بأسماء النابغين منها في التاريخ واللغة والأدب ، والنحو والفقه والحديث أمثال ابن حمديس الصقلي الذي رحل من الجزيرة في ظروف سياسية الى افريقية وعاش في كنف الأمير تميم بن المعز ، واسماعيل بن خلف أبو طاهر الصقلي المقرىء ، وأصله من خوف مصر ، وصنف كتبا كثيرة في القراءات ، أحدها كتاب اعراب القراءات في تسع مجلدات كما يقول صاحب معجم الأدباء (٢) وأمثال أبي عمرو عثمان بن علي بن عمر الخزرجي الصقلي ، هو الذي يقول :

رحلت فعلمت الفؤاد رحيلا ... وبكت فصيرت الاسيل مسيلا
وحدا بها حاد حدا بي للنوى ... لكن منا قاتلا وقتيلا
واذا الحبيب أراد قتل محبه ... جعل الفراق الى الممات سبيلا

وقد اختصر كتاب العمدة لابن رشيق . وأمثال علي بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع وتوفي سنة ٥١٤ هـ الى غير هؤلاء ممن لا يمكن أن نأتي عليهم في هذه السيرة ، وكيف وقد كانوا

(١) بساط العقيق ص ٣٨
(٢) معجم الادباء جـ ٦ ص ١٦٥

من الكثرة بحيث اتخذ منهم العلماء مادة لكتب وقفوها على ذكرهم وذكر مناقبهم وآثارهم ، وهذا هو ابن القطاع يكتب كتابا عن طائفة الشعراء وحدها ويسميه : « الجوهرة الخطيرة فى شعراء أهل الجزيرة » وقد قالوا : انه ضمنه ترجمات لمائة وعشرين شاعرا كما ضمنه عشرين ألف بيت من الشعر . كما كتب كتابا آخر أيضا عن صقلية وأسماه « ذكر تاريخ صقلية » .

شخصية الغرب العربى :

وأمام هذه النهضة العلمية والأدبية فى هذا الجزء من الوطن العربى لابد من أن نقف وقفة ننظر فيها الى ذلك الانتاج الثر الغزير ، والى هذا الحشد الحاشد من العلماء والأدباء لنرى هل اختلفت بهم الحياة العلمية والفكرية والفنية عما كانت عليه فى المشرق ، أم أنهما تشابها وجاءا قريبا من قريب ؟ .

والذى نقرره فى هذا الصدد أن مطلع الثقافة العربية فى مختلف فروعها انما كان فى شرق الدولة العربية ، فالشعر وعلوم اللسان ، وكذا علوم الدين التى تفرعت عن القرآن والسنة كلها نبتت وازدهرت فى الجزيرة العربية ، وفيما جاورها من أقاليم تبعتها تبعية سياسية ، ثم كان أن طارت هذه الثقافات على أجنحة العرب الفاتحين والمهاجرين الى المغرب .

ولسنا ننكر أن قد قامت فى ذلك الغرب مدارس ومذاهب ، ولكنا نستطيع أن نقول غير مجاورين الحقيقة : انه برغم امتداد السنين

بالفاتحين والمهاجرين ، وبرغم استقرارهم فى البلاد المغربية الجديدة وبرغم نشوء طبقات من المغاربة ، كان لهم حظ كبير من العلم والمعرفة ـ برغم ذلك كله ـ فان أثر المشرق فى المغرب ، وأثر المشارقة فى المغاربة ظل قويا وقائما على طول المدى حتى مانكاد نستبين أثر الاقليمية فى تناج هذا الجزء من الدولة الاسلامية اذ « لم تضع حدود الأقاليم حواجز أو فواصل فى سبيل العلماء والأدباء والكتاب والشعراء » (١) ، وانما بقى أولئك يقتفون أثر هؤلاء لأن المغلوب ـ كما يقول ابن خلدون ـ مولع ابدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده والسبب فى ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت له .. وانظر ذلك فى الأبناء مع آبائهم ، كيف تجدهم متشبهين بهم دائما وماذلك الا لاعتقادهم الكمال فيهم (٢) وأهل المشرق على الجملة ارسخ فى صناعة تعليم العلم بل وفى سائر الصنائع حتى انه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب الى المشرق فى طلب العلم ، أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ، وانهم أشد نباهة ،وأعظم كيسا بفطرتهم الأولى ، وان نفوسهم الناطقة اكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب (٣) .

والحقيقة كما يقول ابن خلدون بعد الذى تقدم أن « ليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذى هو تفاوت فى الحقيقة الواحدة (٤) .

---

(١) العربية ليوهان فك ص ١٦٨

(٢) المقدمة ص ٤٦٤.

(٣) المقدمة ٤٨٣

(٤) المقدمة ٤٨٣

وانما تعلق المغرب بالمشرق تعلق الفرع بأصله ، أو تعلق اللاحق بالسابق والمتأخر بالمتقدم ، وهذه حقيقة يؤكدها تناقل المعارف وحملها من الشرق الى الغرب ، وارتحال المتعلمين من المغرب الى المشرق ينهلون من موارده ليعودوا الى بلادهم فيجلسوا مجالس الأساتيذ .

وهذا أبو على القالى صاحب كتاب الأمالى ٢٨٨ — ٣٥٦ هـ يولد فى أرمينية بأقصى الشرق ، وينشأ فيها ، ثم يحصل علوم اللغة والأدب على مشيخة بغداد ، ولكنه ينزح الى أقصى الغرب لينشر علمه فى أسبانيا » (١) .

وحياة المتنبى شاعر العربية كان مجالها بين العراق وسوريا ومصر وفارس ، يمدح ويهجو ، ويلقى الرضا من حكام هذه الأقاليم أحيانا فيطيل المقام فيها ، ويقابل بالعبوس والازورار عنه فيعجل الرحلة بعد أن يهجو العابسين .

بل أن كثيرين ينتهزون فرص المقام بأرض المغرب كالذى كان من أبى الفضل محمد بن عبد الواحد الدارمى البغدادى ، يبعثه الخليفة العباسى القائم بأمر الله الى المعز بن باديس خليفة المغرب، فى وفادة تتصل بشئون الحكم والسياسة ، فيتلقاه المعز بن باديس بالحفاوة ويحوطه بالنعمة والرغد ، فاذا هو يستعذب المقام فى حضرته بالقيروان وينتظم فى سلك رجال بلاطه الأدباء ، ولا يعود الى بغداده أبدا .

(١) العربية — يوهان فك ١٦٨ .

وهؤلاء هم شعراء الأندلس فى جنوب غربى أوربا يتركون أندلسهم قاصدين المغرب ليقيموا فى رحاب أمـرائه ، وهؤلاء يبذلون لهم من الأعطيات ويمنحونهم من الهبات ، وينزلونهم منازل الكرامة حتى مايعود أكثرهم الى اندلسه ، ويكون من وراء ذلك كله فى المغرب علم جم وأدب غزير .

ونلفت النظر هنا الى أن المغـرب بوقوعه بين مشرق الدولة العربية وبين الأندلس طرفها الأقصى من الغرب ، قد تهيأ له بذلك ماجعله محط العلماء من كل فج وصقع ، فهو على الطريق بـين طرفى الدولة ، والراحلون من المشرق الى الأندلس ، والآيبـون من الأندلس الى المشرق يمرون به ، وكثيرون منهم تعجبهم الحياة فيه ، فيحطون رحالهم حط اقامة ، حتى كانت للمغرب بـذلك كله حركة علمية لاتقل عن مثيلتها فى الشرق .

ولكن بالرغم مما كان يحاوله المغرب من منافسة المشرق ، وأن تكون له شخصيته المتميزة ، فان علماءه وأدباءه وشـعراءه ظلوا وهم يرون فى المشرق وعلمائه وأدبائه الأب الروحى لهم ، يتطلعون اليهم تطلع الولد الى أبيه ، والتلميذ الى أستاذه ، ولا عجب فى أن يتعلق الفرع بالأصل ، « ويأخذ الأدنى عن الأعلى » [1] ومن ثم تمنى شعراء المغرب لو أن مطـلعهم كان فى المشرق ، فهـذا أبو محمد على بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ . وقد كان اندلسى المنشأ والمربى والمقام يتمنى لو أنه كان مشرقيـا ، وذلك حيث يقول :

---

(١) تيارات ادبيـة ١٢٧.

أناالشمس فىجو العلوم منيرة ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع لجد على ماضاع من ذكرى النهب
ولى نحو اكناف العراق صبابة ولى نحو اكناف العراق صبابة

وما كلفه الا لأنه كان يرى ذلك الصقع من الدولة أرسخ قدما فى العلوم ، وأعلى شأنا فى الفنون والآداب .

وأدرك هذه الحقيقة المؤرخون لهذه الحقبة ، فقسطاكى الحمصى يقول : « وكان لا يظهر كتاب علم أو ديوان شعر لنابغة من نوابغ العرب فى الشرق الا تهاداه أكابر الأندلس وعلماؤه ، واستنسخوه وتداولوه . » (١)

والمرحوم أحمد ضيف يقول « وجدنا ظاهرة التقليد للشرق واضحة جلية اذ تصاغ الكتب الأدبية على يد الأندلسيين على شكل الكتب الأدبية عند المشارقة ، ويصاغ العقد الفريد ــ وهو أندلسى المؤلف ــ على شكل عيون الأخبار ، ويراه الصاحب ابن عباد فيقول : هذه بضاعتنا ردت الينا »(٢)

ويحس ابن بسام تعلق المغرب بالمشرق ولا يعجبه ذلك حمية أن يقول « وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، وسببه والله أعلم أنه كمالى فى العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد فى العمران ؛ والمشرق أوفر عمرانا من المغرب..»

ويحس ابن بسام تعلق المغرب بالمشرق ولا يعجبه ذلك حمية

(١) منهل الوارد ١٨٣
(٢) مقدمة لدراسة بلاغة العرب

وعصبية ، فينعى على قومه هذا ويقول فيهم : « ان أهل هـذا الأفق أبوا الا متابعة أهل المشرق ، يرجعون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة ؛ حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذه صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ؛ فغاظني منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، غيرة لهذا الأفق القريب أن تعود بدوره أهلة وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة ، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، واختص أهل المشرق بالاحسان ؟ »(١)

ولقد كان قصارى أمل أحد المغاربة أن يشبه فى فنه وعلمه بأحد المشارقة ، والثعالبى يتحدث عن ابن دراج ، ويريد أن يرفعه فى الشعر درجات ، فلا يجد أوفى بغرضه وأبلغ لحاجته من أن يقول فيه : كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام » (٢) .

وكما كانت الكتب فى المغرب تصاغ على غرار الكتب فى المشرق ، فان كتب المشرق بذاتها كانت تفد على المغرب ، ما ان يفرغ المؤلف فى الشرق من املاء كتابه حتى يستنسخه النساخ ليبيعوه فى الغرب كالذى كان فى كتب الجاحظ فقد ذكروا ان البيان والتبيين ، والتربيع والتدوير قد نقلا الى الأندلس فى حياة الجاحظ (٣) .

وقد كان الوارقون أصحاب دور كبير فى تناقل الكتب، ونقل

---

(١) الذخيرة لابن بسام القسم الاول - مجلد - ١ - ص ٢

(٢) اليتيمة جـ ٢ ص ٢٠

(٣) معجم الادباء جـ ٦ ص ٧٦

الثقافة عبر الأقاليم العربية ولفت نظرى الى هذه الظاهرة سعادة حسن حسنى عبد الوهاب وزير تونس حين كتب على هامش مخطوطتى « ابن رشيق ونقد الشعر » : « أنظر ترجمة بائع الكتب الذى حمل من المشرق كمية عظيمة من الدواوين الضخمة يقصد بيعها فى القيروان والأندلس ــ فهرست ابن خير فى المكتبة الأندلسية العربية طبع كوديرا ــ مجريط ».

وخلاصة هذا الترابط بين الشرق والغرب ، مع نظرة الغرب الى الشرق ، أن هذا الجزء من الوطن العربى ظل ينتج ويكتب ويؤلف على غرار ما كانت الكتابة والتأليف فى الشرق ، ولم تختلف شخصية المغاربة عن المشارقة فى أدبهم وعلومهم ، اللهم الا اختلافا يسيرا كأن يضيفوا الى الشعر وزنا كالذى حكاه العماد الاصفهانى فى باب عقده لذكر محاسن فضلاء جزيرة صقلية ، وروى فيه شعرا صقليا بعضه على أوزان جديدة كقول أبى الحسن بن أبى البشر فى وصف راقصة ، وذلك قوله :

وغزال مشنف — قد رثالى بعد بعدى
لما رأى مالقيت

مثل روض مفوف — لا أبالى وهو عندى
فى حبه اذ ضنيت

وجهه البدر طالعا — تاه لما حازودى
فاننى قد سقيت

ونحن نعلم أن الشعر العربى ظل ملتزما الى أبعد حدود

الالتزام ما كان عليه فى الجاهلية وصدر الاسلام فلما نزح العرب الى الأندلس وشمال افريقية وجزيرة صقلية نظموا فى أوزان جديدة حملت اسم الموشحات ، وهى كما يقول ابن سناء الملك فى دار الطراز : « كلام منظوم على وزن مخصوص » وهو فن من الشعر أساسه الأنغام والألحان ، وأوزانه لا حصر لها حتى قالوا : ان من لا يعرف منه مائة وزن فلا علم له بالموشحات ومن نماذجه:

كحل الدجى يجرى من مقلة الفجر
على الصباح
ومعصم النهر فى حلل خضر
من البطاح

ومنها قول ابن زمرك فى التزهيد :

والله ما الكون بما قد حوى الا ظلال توهم الغافلا
وعادة الظل اذا ما استوى تبصره منتقلا زائلا
انا الى الله عبيد الهوى لم نعرف الحق ولا الباطلا

***

فكل من يرجو سوى الله خاب وانما الفوز لعبد منيب
يستقبل الرجعى بقلب منيب ويرقب الله الشهيد الرقيب

وهكذا لم يزد الغرب على الشرق ، ولم يتميز منه بغير ذلك اللون من النظم فى الموشحات . حتى لذهب ابن خلدون الى أن المشارقة لا تقدر على هذا الفن ، وما عانوه منه جاء وهو ظاهر

التكلف ، وأحسن ما وقع لهم فيه موشحة ابن سناء الملك المصرى التى اشتهرت شرقا وغربا ، والتى أولها :

ياحبيبى ارفع حجاب النـور   عن العذار
تنظر المسـك على الـكافور   فى جلنار

***

كللى ياسحب تيجان الـربى   بالحـلى
واجعلى سـوارها منعطف   الجدول (١)

كما استحدث أهل الأمصار فى المغرب فنا آخر من الشعر فى أعاريض مزدوجة كالموشح ، ونظموا فيه بلغتهم الحضرية وسموه عروض البلد . وكان أول من استحدثه فيهم ــ على ما يقول ابن خلدون ــ ، رجل أندلسى نزل بفاس يعرف بابن عمـير ، ومن نظمه قطعة على طريق الموشح ، ولم يخـرج فيهـا عن مذاهب الاعراب ، ومطلعها :

أبكانى بشاطى النهـر نوح الحمـام
على الغصن فى البستان قرب الصباح

الخ الموشحه .

وظاهر ذلك أن المغاربة انما تميزوا بهذا الفن الذى تخـلوا فيه عن خصائص اللغة العربية فى اسـتعمالها من حيث الاعراب واشتقاق الكلم ونظم الجمل تخليا استباحوا معـه اسـتخدام العامية . وفى رأيى أنه هذه ليست ميزة فى المغرب ، فربمـا كان

(١) المقدمة ص ٦٦٦

مثلها لعوام المشرق ، ولكنه لم يصلنا . اذ لم يهتم المشارقة بتدوين ماجاء على غير أصول اللغة العربية .

وهكذا يكون علم المغرب وأدبهم وفنهم الذى صيغ على عمود اللغة العربية جاء وليس فيه جديد يخالف به علم المشرق وأدبه وفنه ، وابن رشيق مثل على صدق قضيتنا تلك ، فقد جاء ولا أثر للموطن الجغرافى فى نقده وشعره الا ما يكون من الأثر فى موضوعات الشعر المتصلة بالأشخاص والأمكنة ـ على أن هذا لا يعتبر أثرا فنيا ؛

ويكون ابن رشيق أيضا دليلا على أن المعارف الانسانية تتشابه الى حد كبير برغم اختلاف البيئات . وعلى أن اللغة الواحدة حينما تنتشر فى بقاع كثيرة وتسود فى مواطن متباعدة متغايرة بالشكل والمناخ والموقع،لا تختلف فى قواعدها وقوانينها، وان اختلفت فى موضوعاتها لاسيما اذا كانت تعتصم بكتاب مقدس يحمل عقيدة الناطقين بها ، ويقع من نفوسهم موقع الاكبار والاجلال وذلك شأن اللغة العربية التى ألف بها ونظم العلماء والشعراء ، فى المشرق والمغرب على حد سواء فانها اعتصمت بالقرآن الكريم .

ان هذا الكتاب المقدس كان الحصن الذى حمى هذه اللغة من أن تتبدل أو تتغير فى القديم أو الحديث ، فى المشرق أو المغرب ، وكان هم العلماء دائما وفى كل مكان أن يحافظوا على نقاوتها بما يؤلفون فى طرق استعمالها ، وتحديد رسومها

وقواعدها ، ومن هؤلاء صاحب السيرة ـ ابن رشيق ـ غير متأثر بالبيئة المغربية وان نأت عن المشرق ، فالنحو العراقي يحمله الى مصر والى المغرب الراحلون من العراق والمتعلمون على أساتذته ، والعائدون بعد ذلك منه ، والشعراء على أبواب الملوك والأمراء يتنقلون من بلاط الى بلاط فيوحدون مناهج النظم ، والوارقون وتجار الكتب يحملون كتاب الأغاني ورسائل اخوان الصفا من العراق الى الأندلس ؛ ومكتبات مصر ، ومكتبات الاندلس والقيروان والمهدية وفاس وخراسان وغزنة ، تضم فى خزائنها أهم ما أنتجه العالم الاسلامى بغض النظر عن اقليمه » (١)

وتسهم هذه العوامل جميعا فى تأكيد وحدة الشخصية العلمية والأدبية والفنية فى أصولها بين المغرب والمشرق ، حتى ما نستطيع أن نرد أثرا الى اقليمه لذاته ، وانما نستطيع ذلك حين تقترن بالأثر العلمى أو الأدبى عوامل أخرى تعين على تحديد موطنه.

وكل ما يمكن أن يكون للاقليم على الظاهرة العلمية أو الأدبية فى الثقافة العربية من بصمات لا يعدو أن يكون شيئا لا يمسها فى الصميم ، وانما يقع منها فى الشكل الخارجى .

وشيء آخر ظهر كأثر للاقاليم على اللغة فى فنونها الأدبية هو ما أشرنا اليه من العامية التى انفرد كل اقليم فيها بمنحى خاص كاللهجة ، واستخدام مفردات بعينها استخداما تبعد به عاميته عما سواها من عاميات الأقاليم الأخرى .

---

(١) ظهور الاسلام ج ١ ص ٢١٧

ومن ثم كانت الدعوة الى استخدام العامية ، أو اتخاذها لغة كتابة ، أو أدب ، دعوة الى تقطيع أوصال هذه الأمة ، وتمزيق ذلك العالم العربى ، ومن ثم كانت محاربة هذه الدعوة دائما وأبدا مسئولية كل مخلص للعرب والعروبة ، ولتوضيح ذلك موضعه فى غير هذه السيرة .

الفصل الثاني

حياة ابن رشيق

ونعني بحياة ابن رشيق أسرته التي نسلته ، ومولده ونشأته، وصلاته بغيره ، وسلوكه في خاصة نفسه ومع مجتمعه .

أسرته :

فأما عن أسرته فلم يحفل بها التاريخ كدأبه في أنه لا يحفل الا بالملوك والقادة وانتصاراتهم وهزائمهم وفتوحاتهم وغاراتهم ، وأما من عدا هؤلاء كالعلماء والشعراء وأضرابهم فانه يكتفي بذكر آبائهم وسني ولادتهم ووفاتهم وشيئا من سيرتهم ان اولاهم عناية . لذلك فانا لا نعرف من أمر أسرة ابن رشيق القيرواني الا أن والده كان روميا وكان مولى من موالي الأزد ، ولم يكن له شأن في ملك أو سلطان ، وانما كان رجلا يحترف صياغة الذهب في بلدة المسيلة . فأما الأزد فقبيلة من قحطان هاجرت الى المغرب فيمن هاجر من العرب الذين طاروا عن جزيرتهم مع الفتوحات الاسلامية ، وحطت في المغرب ، وكان من مواليها ذلك الرومي الصائغ وهكذا يكون ابن رشيق روميا في أصل نسبه ، عربيا بالولاء واللسان والمنشأ والمربى .

ومع ما كان العربى يستشعر فى عروبتـه من العـزة والشمم فان ابن رشـيق لم يكن يرى فى روميتـه ما ينزل به عن أقرانه وانداده من العرب ، بل كان يصرح برضاه عن نسبه فى الأعاجم ، ويفخر بوالده ـ قال وقد عيره منافسه ابن شرف القيروانى بأنه ينتمى الى أب رومى :

أما أبى فرشـيق لست أنكـره
قل لى أبوك وصـوره من الخشب

وهو يعرض فى بيته هذا بابن شرف الذى قالوا ان « شرفا » اسم لأمه ، وليس له أب معروف ولذلك يقول ابن رشيق : « ما أبغى به أبا ، ولا أرضى بمذهبه مذهبا ، وضيت به روميا لا دعيا ولا بدعيا » .

واسم الوالد كما يصرح ابن رشيق نفسه فى بيتـه المتقـدم رشيق ، وعلى ذلك أكثر المصادر التى تذكره وتترجم له ، فتذكر أنه « أبو على حسن بن رشيق » فأبو على كنيته ، وحسن اسمه، ورشيق اسم ابيه ، ولا يشذ عن ذلك أحد فيمـا رأيت الا نسخة خطية من كتاب العمدة فى مكتبة تيمور بدار الكتب العربية تحت رقم ٩٧٩ فانها تجعل اسم الوالد عليا حيث جاء عنـوانها هكذا « أبو على حسن بن على بن رشيق » وانفراد هذه المخطوطة من بين المخطوطات الأخرى ، ومخالفتها لسائر المترجمين له يحمـل دليل خطأ الناسخ لاسيما وصاحبنا نفسه يقول «أما أبى فرشيق». وقد وقع فى هذا الخطأ عينه من المحدثين يوسف الياس سركيس

حين ترجم له فى كتابه «معجم المطبوعات العربية والعبرية» فقال «أبو على الحسن بن على بن رشيق» (1) وفيما عدا هذين ينعقد اجماع المترجمين له على أن والده رشيق وليس عليا .

وكان الوالد يشتغل بصياغة الذهب فى المسيلة احدى مدن المغرب ، وفيها ولد ابن رشيق ، ولاشك فى أنه نشأ بها أيامه الأولى ، واشتغل فى حرفة أبيه ، ولكنه نزع منذ طفولته الى الأدب ، فنزح الى حيث مجالسه والى حيث يمكن أن يجد بغيته فى دراساته التى كانت تنعقد بالجامع الكبير فى القيروان ،وكأنى بصنعة أبيه ظلت تلاحقه حتى بعد أن صار علما من أعلام العربية فى نقدها وشعرها ، فاذا هو يسمى احد كتبه « قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب » .

ولادته :

واختلف الذين ترجموا لابن رشيق حول زمان ولادته ومكانها ، فأما عن المكان فقد قال ابن بسام فى كتابه الذخيرة : « فصل فى ذكر الأديب الكامل أبى على بن رشيق المسيلى » . وهكذا يطالعنا أول ما يطالعنا فى الحديث عن الرجل بنسبته الى المسيلة احدى قرى المغرب ، ثم يذكر ذلك صراحة عندما يقول : « بلغنى انه ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلا ، ثم ارتحل الى القيروان سنة ست وأربعمائة »(2) ولعل هذه أقدم ترجمة لصاحب السيرة

(1) معجم المطبوعات العربية والعبرية جـ ٢ ص ١١٠

(2) الذخيرة القسم الرابع مصور بمكتبة الجامعة ورقة ١٧٢

ومثل ذلك نجده لابن فضل الله العمرى ، ويذكر الرجل أنه نقل ذلك عن ابن بسام .

والقفطى يقول : « الحسن بن رشيق القيروانى الفاضل الأديب الجليل القدر ... وجدت له ما صورته : هو الحسن بن رشيق الأفريقى المعروف بالقيروانى ، من أهل مدينة من مدن افريقية تعرف بالمحمدية ، وابوه رشيق مملوك رومى لرجل من أهل المحمدية من الأزد . » (١) ويؤكد ذلك وأن المحمدية هى مكان ولادته حيث يقول .. ونشأ بها ، وعلمه أبوه صنعته وهى الصياغة وقرأ الأدب بالمحمدية وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم ، واشتاقت نفسه الى التزيد من ذلك ، وملاقاة أهل الأدب ،فرحل الى القيروان وعمره ست عشرة سنة » (٢) وبمثل ذلك قال أكثر الذين ترجموا له ومنهم يافوت فى معجمه .

والمحمدية ، هى المسيلة ، مدينة من أعمال برقة من ناحية الاسكندرية ، وتعلق بها ابن رشيق ، ومدحها فى صباه اذ قال فى واديها :

تحكى غواربه غوارب بزل
جاءت بغير قوادم وهوادى

وبعد فلا قيمة بعد الذى تقدم من تحقيق مكان ولادته — وانها المحمدية — لما يقول ابن خلكان (٣) من أنه ولد فى المهدية

(١) انباه الرواه على انباه النحاه جـ ١ ص ٢٧٧
(٢) انباه الرواة على انباه النحاه جـ ١ ص ٢٧٧
(٣) وفيات الاعيان جـ ٤ ص ١٦٤

وكذا ما يقوله المرحوم عبد الله عفيفى فى كتابه : « زهرات منثورة فى الأدب العربى اذ يقـول عنـه انه ولد فى المهـدية من أعمال تونس »(1) .

والخلاف فى زمان ولادة ابن رشيق ليس بأقل من الخلاف فى مكانها فالميمنى من المحدثين يرى أنه ولد سنة ٣٩٠ هـ . وهو فى ذلك يعتمد على ما قرره ابن رشيق عن نفسه فى كتابه أنمـوذج الزمان .

واما صاحب بساط العقيق فيجعل مولده فى سنة ٣٨٥ هـ . حتى يصح فى رأيه ما تناقله الرواة من أنه مات عن اثنتين وسبعين سنة ، وقد رجح عنده أنه مات سنة ٤٥٦ هـ . فليكن ميلاده سنة ٣٨٦ لتصح الرواية فى عدد سنى حياته ، يقول : « وهذا استنتاج أولى بالأخذ من رواية الرجل نفسه »(2) .

وثمت رواية جاءت للقفطى فى كتابه انباه الرواة ، تجعل ولادة ابن رشيق « فى شهور سنة سبعين وثلثمائة » .

وعندى ان رواية القفطى من تصحيف النسـاخ وصـوابها « فى شهور سنة تسعين وثلثمائة » ويرجح ذلك أنه هو نفسـه يذكر أن الرجل قال الشعر قبل ان يبلغ الحلم .. واشتاقت نفسـه الى التزيد من الأدب فارتحل الى القيروان وعمره ست عشرة سنة ونحن نرجح اعتمادا على مصادر أخرى أنه ارتحل الى القيروان

(1) زاهرات منثورة فى الادب العربى ص ١١

(2) بساط العقيق ص ٦٢

سنة ٤٠٦ هـ وعمره يومئذ وكما يقول القفطى نفســه ست عشرة سنة ، ولا يكون ذلك كذلك الا وهو قد ولد سنة ٣٩٠ هـ .

أما رواية صاحب البساط ، فهى استنتاج جمــله عليــه أنه لا يعقل أن يكون ابن رشيق قد اجتمع ببعض الشعراء سنة ٤٠١ هـ لأنه لا يكون قد جاوز الحادية عشرة « وهى سن — فيما يرى — لا تسمح بهذا اللقاء » ولكنا لا نرى اســتحالة — فى ان يجتمع نابغة كابن رشيق مع شعراء يكبرونه فى العمر ، ويقاربهم فى قرض الشعر ، ذلك أن النبوغ لاسن له ، وقد حدثونا أن عبــد الله الرازى الحافظ المؤرخ الأديب كان يحمل على الكتف للســماع وهو ابن خمس سنوات ، كما حــــدثونا عن مثل ذلك فى جنب الزمخشرى ، فأن يجتمع ابن رشيق بالشعراء وهو فى الحادية عشرة أقرب الى التصديق من ذلك .

ونخلص من كل الذى تقدم الى ان الرجل ولد فى سنة ٣٩٠ هـ . وليس فى سنة ٣٨٦ كما قال صاحب البساط ، ولا سنة ٣٧٠ هـ . كما ذكر القفطى .

نشأته الأولى :

ومن العسير على من ينشد معرفة حياة ابن رشيق فى نشأته وتربيته أن يجد مرجعا يمكن أن يكون مصدرا لهذه المعــرفة ، ذلك أنه انما يعنى بتسجيل مثل ذلك فيما لو كانت الشــخصية قد ولدت فى بيت ملك أو عز أو جاه وصاحبنــا ليس الا ولدا لرجل رومى ، مستعرب ، يعمل فى صياغة الذهب ، احدى الحرف

التى تقوم فى آى مجتمع ، فليست للمؤرخين به ولا بأسرته عناية ولا حفل ، وحتى بعد أن كبر ولمع فى بلاط المعز ، لا نجد لأسرته ذكرا الا ما توحى به أبيات قالها يوجهها للمعز بن باديس ، ويقول فيها :

معز الهدى لازال عزك دانيا
وزينت الدنيا لنا بحياتك
أتتنى أنثى يعلم الله أننى
سررت بها اذ أمها من هباتك
وقد كنت أرجو أنها ذو بلاغة
يقوم مقامى عن بديع صلاتك
وما نحن الا نبت جودك كلنا
وكل نبات الأرض من بركاتك

فان فى هذه الابيات ما يشير الى أن ابن رشيق تزوج وأقام أسرة ، وولدت له بنت ، وسر بها ، ولو أنه كان يرجو لو كانت غلاما يقوم مقام أبيه فى مدح ولى نعمته ، كما تشير الأبيات الى أن زوجه كانت جارية وكانت احدى هدايا المعز بن باديس اليه ، أو أنه فى الأقل دفع له صداقتها ، أو ان صداقها ومهرها كان من عطاءات الأمير المتتابعة عليه وعلى أقرانه ممن هم فى خدمة المعز ، ولم لا وكل نبات الأرض وخيراتها انما هو نفحة من نفحات الأمير أو بركة من بركاته .

وبرغم ما قرأت لابن رشيق وعنه فانى لم أعثر له على حديث

ـ فى غير هذه الأبيات ـ يشير الى اسرته وبنيـه ، أو يتنـاول عاطفة الأبوة ، ورابطة البنوة ، الأمر الذى أرجح معه أن يكون كثير من شعره قد ضاع ، اذ تستبعد النفس ان يعيش رجل كابن رشيق ما عاش ، ويقول الشعر فى كثير من أبوابه وأغراضـه ثم لا يكون له شعر فى هذا المجال يتصدى فيه لحديث أسرته وزوجه وأولاده وما عسى أن يكـون له معـهم من مواقف واحـداث وصلات .

صلاته وعلاقاته :

كادت المراجع تجمع على أن ابن رشيق نشأ فى المحمدية ، فى ظل أبيه وصنعته ، ولاشك فى أنه تردد على المدارس او الكتاتيب فى المحمدية وأخذ عن معلميها شيئا من ثقافة العصر،وكان عمادها حفظ القرآن الكريم ودراسة ما يتصل به من علوم اللغة والدين. وكان ـ ولاشك ـ فى هذه الفترة يساعد والده ويشاركه صنعة الذهب ـوقد يكون ذلك فيما تتصورـ بعد رجوعه من الكتاب

فلما ترعرع وشب عن الطوق تاقت نفسه الى الأدب ومزيد منه ، ورأى أن القيروان هى محط العلم والعلماء والأدب والأدباء، فرحل اليها ونهل من مناهل الأدب واللغة والشعر والنقد فيها

ثم لما أحس من نفسه نبوغا تطلعت نفسه الى وظيفة فى قصر المعز ، ولاشك فى أنه رفع اليه مدائحه فى شعر اعجبه ، فأشـار بضمه الى بلاطه ومن شعره الذى قال فيه :

وذيال له رجل طحـــون	لمـــا نزلت به ويـد زجوج
يطـــير بأربع لا عيب فيهــا	لظهران الصفا منهــا عجيــج
خرجت به عن الأوهام سـبقا	وقل له عن الوهم الخــروج
الى الملك المعـــز أبى تميم	أمر بمن ســواه فلا اعيــج

وهو فى شعره هذا يجرى على سنة العرب فى مدائحهــا من وصف المطية التى تبلغهم آمالهم ثم التخـلص من ذلك الى نعت الممدوح نفسه .

وكان على رأس ديوان المعز للمراسلات والمكاتبات رجل له بصر ثاقب فى النقد والأدب ، والمعرفة بجيد الكلام ، وقد اعجب بابن رشيق لبراعته فى صنعة الشعر ، فوضعه فى وظيفة الـكاتب المختص بأمور الجيش ، ولعله يشير الى ذلك بقوله :

وقد كنت كاتب جيش الأمير ومجرى الأمور على رسمها

غير ان عمله بالديوان ، واتصاله برئيســه وبالمعــز لم يبق متصلا ، وانما قطعه هو بأطماع حدثته بها نفســه ، فترك خدمة الديوان لعمل آخر لا يفصح عنه ، ولا يشير اليه أحد ممن أرخوه أو ترجموا له ، ولـكنه لم يلبث أن عاد الى ديوان المعــز . وقــد اعتذر عن غيبته تلك وانقطاعه هذا بأبيات جاء فيها :

ولولا شــقائى لم أغب عنــك ساعة
ولا رام صرفى عن حيــاتك صــارف
ولـكننى أخطــأت رشــدى فلم أصب
وقد يخطىء الرشد الفتى وهو عارف

ومن ذلك الحين لانعلم الا أن ابن رشيق ظل فى ديوان المعز ، وفى تبعيته لرئيس الديوان أبى على ابن أبى الرجال ، لم يتخل عن خدمتهم ، ولم يغب عن مجالسهم ، ولم ينفصل عنهم ، الا حين قامت فتن القيروان سنة ٤٤٩ هـ ، واضطر المعز الى الارتحال عنها للمهدية فان صاحبنا لم يكن له بد أيضا من ان يرتحل هو الآخر للمهدية ، ويعيش فى كنف أميرها تميم بن المعز ويمدحه بقوله :

أصح وأقوى ما سمعناه فى الندى
من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا
عن البحر عن كف الأمير تميم

ولكن ابن رشيق فى المهدية لا ينس حياة القيروان ، وهو فى ظلال الأمير تميم ، انه لا ينس أيامه فى ظلال أبيه المعز ، ولذلك نسمعه يقول :

أترى الليالى بعد ما صنعت بنا
تقضى لنا بتواصل وتدانى
وتعيد أرض القيروان كعهدها
فيما مضى من سالف الأزمان
أمست وقد لعب الزمان بأهلها
وتقطعت بهم عرا الأقران
فتفرقوا أيدى سبا وتشتتوا
بعد اجتماعهم على الأوطان

ويبدو أن ابن رشيق لم يجد فى كنف الأمير تميم فى المهـدية ما يشجعه على البقاء فيها ، أو أنه وجد ما يضطره الى الرحيـل عنها ، ولذا نراه يتجه نحو جزيرة صقلية ، ويحكى ابن بسام فى سبب ذلك قصة تتلخص فى أن أسطول الروم هجم ليلا على المهدية « فأصبح النهر ثنايا تطلع منايا ، واكاما يحمل موتا زؤاما ، وان ابن رشيق دخل على المعز ـ الذى كان قد التجأ الى المهدية عند ابنه تميم ـ فى فجر ليلة هجوم الأسطول ، فوجده ابن رشيق فى مصلاه ، والرقاع ترد عليه ، وهو ينظرها فى نور شمع بين يديه ، فقام ينشده قصيدته التى يقول فيها :

تثبت لا يخـامرك اضـطراب

فقـد خضعت لعـزتك الرقاب

فلم يعجب المعز ذلك المطلع ، وابتدر ابن رشيق بقوله : مه ، متى عهدتنى لا أتثبت ؟ اذا لم تجئنا الا بمثـل هـذا فما لك لا تسكت عنا ؟ وما تعود ابن رشيق من صاحبه هذه المبـادرة ؛ وزاد المعز أن أمر بالرقعة التى فيها القصيدة فمزقت ، ثم أدنيت من الشمع فأحرقت ، فعز ذلك على ابن رشيق الذى عاش ماعاش فى بلاط الرجل مقربا ، وخرج من يومه على غير طريق الى أن ولى وجهه شطر صقلية ، فبقى فيها الى ان مات .

وفى صقليه تاقت نفس ابن رشيق الى الأندلس ليلقى عبـادا أحد امرائها ، وكان كثيرا ما يسمع به فيرتاح اليه ـ كما تقول

ابن بسام — ارتياح الكبير الى شبابه ، وصادف ان قدم أحدتجار الأندلس الى الجزيرة من قبل عباد ، فبرقت لابن رشيق بارقةأمل فى سنوح الفرصة للقاء عباد ، « وأخذ يتردد على التاجر ويغشاه، ويقترح عليه لقاء عباد ويتمناه ، والتاجر يعده ويمنيه ، ويقرب له ذلك ويدنيه ، حتى اذا أسمحت الرياح ، وأمكن فى ميدان البحر المراح ، ذهب التاجر لطيته ، وخلى ابن رشيق وأمنيته ، ثم انه لما وصل الى الاندلس ، اخبر عبادا بذلك كأنه يتبجح بما هنالك ، فبالغ هذا فى نكاله ، وأمر باستصفاء أكثر ماله » (١)

وأما ابن رشيق فقد رام ركوب البحر بعد ذلك ، « فحشن ملمسه ، ولم تساعده على ركوبه نفسه » فقال :

البحر صعب المذاق مر لا جعلت حاجتى اليه
البحر ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه

وهكذا بقى الرجل فى الجزيرة ، ولم تتهيأ له فرصة الارتحال الى الأندلس .

مع ابن أبى الرجال :

وهو ابو الحسن على بن أبى الرجال الشيبانى ، اتصل به ابن رشيق لما كان هذا رئيسا لديوان الانشاء على عهد المعز ، واشتهر بالكرم وتشجيع الأدب واليه رفع ابن رشيق كتاب العمدة ، وقال يخاطبه بعد أن حمد وصلى : أما بعد فان أحق من

(١) الذخيرة لابن بسام القسم الرابع ص ١٣٦ من المصورة بمكتبة الجامعة المصرية .

جنى ثمـار الألبـاب ، واقتطف زهـر الآداب ، متنـزها فى عقـول الحكماء ، متفكهـا فى أقاويل العلمـاء ، بالغا بهمتـه أعلى المراتب ، خاطبا لنفسه أسنى المطالب .. من عرف للعلم حقه وفضله ، وسلك به طرقه وسبله ، وأكرم فى الله مثـواه ونزله ، وخص بالقرب ذويه وأهله ... كالسيد الأمجد ، والفذ الأوحد ، حسنة الدنيا وعلم العليا ... رجل الخطب وفارس الـكتب ، أبى الحسن على بن أبى الرجال الكاتب .. الذى نال الرياسة ، وحاز السياسة وانفرد بالبسط والقبض ، واتحد فى الابرام والنقض . » الى آخر ما يقول فيه ويبالغ .

وأيا ما كانت كلمة ابن رشيق فى صدر عمدته من المبـالغة ، فالذى لاشك فيه أن ابا على هذا كان يهتم بالأدب والأدباء ويقرب العلماء والشعراء ، وليس صاحبنا بالذى ينفرد فى مدحه،والمغالاة فى اطرائه ، وانما غيره على شاكلته .

شيوخه :

كان طبيعيا أن يتلقى ابن رشيق المعـرفة على أيدى شـيوخ عصره ، وهو عصر حفل بالعلم والعلماء ، واذا كنا قد ذكرنا من شيوخ القيروان عند الحديث عن هذه المدينة التى نافست بغداد، فانا هنا نذكر من رجال العلم نفرا ممن تلقى عليهم ابن رشـيق علمه وأدبه ، وكان أكثره فى اللغة والشعر ونقده .

وقد بحثت فى كتب التراجم عن أولئك ممن ذكر ابن رشيق أنه أخذ عنهم وممن لم يذكر ، على أنى بديا أعترف لابن رشيق

بخصيصة قلما نجدها فى كثيرين ، تلك هى أنه يرد الفضل الى ذويه حين ينقل رأيا أو يحكيه .

على أنى فى هذا الموضوع من هذه الترجمة أقصر الحديث على من تتلمذ عليهم وجالسهم وسمع منهم ، وأخذ عنهم مشافهة ومناقشة ومحادثة ؛ أما أولئك الذين قرأ لهم ، ونقل عنهم ،وتتلمذ عليهم من طريق القراءة فلا نعرض لهم هنا .

فمن هؤلاء الشيوخ على الأساس الذى بينت :

١ ـ أبو عبد الله التميمى محمد بن جعفر القزاز القيروانى ، كان اماما عالما باللغة ، وأخذ عنه ابن رشيق فى أول شبابه حيث مات شيخه فى ٤١٢ هـ . ومعنى هذا أنهما اجتمعا فى القيروان ست سنوات فحسب ، ولكن اعجاب ابن رشيق بالشيخ كان كبيرا ، وكتب عنه فى أنموذجه على أنه أحد شعراء القيروان . وحقا كان القزاز شاعرا مبدعا ، يدل على ذلك شعره الذى يرويه له صاحب معجم الأدباء ؛ فمنه قوله يتغزل :

أما ومحل حبك من فؤادى	وقدر مكانه فيه المكين
لو انبسطت لى الآمال حتى	تصير لى عنانك فى يمينى
لصنتك فى مكان سواد عينى	وخطت عليك من حذر جفونى
فأبلغ منك غايات الأمانى	وآمن فيك آفات الظنون
فلى نفس تجرع كل حين	عليك بهن كاسات المنون
اذا أمنت قلوب الناس خافت	عليك خفى الحاظ الجفون

فكيف وأنت دنياى ، ولولا عقاب الله فيك لقلت دينى

فهذا شعر مطبوع يضع صاحبه فى عداد الشعراء قبل أن يكون فى عداد العلماء .

٢ ــ ابو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى : وأكثر النقل عنه ابن رشيق فقال فى عمدته : حدثنى بعض أصحابنا من أهل المهدية ــ وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكدية ، هو أشرفها ارضا وهواء ، قال : جئت هذا الموضع مرة فاذا عبدالكريم على سطح برج هنالك ، قد كشف الدنيا ، فقلت أبا محمد ، قال نعم ، قلت : ما تصنع هنا ؟ قال : القح خاطرى ، وأجلو ناظرى ، قلت فهل نتج لك شىء ؟ قال ما تقربه عينى وعينك ان شاء الله ، وانشدنى شعرا يدخل مسام القلوب رقة . قلت : هذا اختيار منك قال : بل برأى الاصمعى (١) .

ترجم له فى كتابه الأنموذج كما يقول الميمنى (٢) .

٣ ــ أبو اسحق الحصرى صاحب كتاب زهر الآداب قال عنه ابن رشيق : وكان شاعرا نقادا ، عالما بتنزيل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحب المجانسة والمطابقة ويرغب فى الاستعارة تشبها بأبى تمام فى أشعاره ، وتتبعا لآثاره ، وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى جرى الماء ، ورق رقة الهواء :

٤ ــ ابو عبد الله عبد العزيز بن سهل الخشنى الضرير ، ويقول عنه ابن رشيق : كان مشهورا بالعلم والنحو واللغة جدا ،

(١) العمدة جـ ١ ص ١٨٠ (٢) ابن رشيق ص ٤٠

مفتقرا اليه فيهما ، بصيرا بغيرهما ، ولم ير قط ضريرا أطيب منه نفسا ، ولا أكثر منه حياء مع دين وعفـة (١) ، ونقل عنه فى العمدة رأيه فى القطع والطوال من الشعر فيقول: حدثنا الشيخ ابوعبدالله عبد العزيز بن ابى سهل رحمه الله تعالى ، ولا يذكر صـفته بأنه الضرير وكأنما يأبى التلميذ أن يذكر شيخه بما لا يجب أن يذكر به ، تأدبا واحتراما . وكذلك كان ابن رشيق مع الناس فكيف اذا كان النـاس شـيوخه .

معاصروه :

والى جنب أولئك الشيوخ الذين أخذ عنهم نجـد ثلة من معاصريه لا نشك فى أنه افاد منهم حين ناقشـهم ، واجتمع بهم، ونقدهم وانتقدوه ، وطارحهم وطارحوه ــ وان لم يكونوا منه بمثابة الشيوخ .

فمن هؤلاء خلف بن احمد القـيروانى الشـاعر ، ترجم له صاحبنا فى أنموذجه ، وقال عنه : شاعر مطبوع تأدب بافريقية ، ودخل مصر ، ومات بزويلة المهدية سنة ٤١٤ هـ .

ومنهم أبو عبد الله الصفار الصقلى ، لقيـه وأنشـده شعرا للصنوبرى ، واستمع الى بعض شعره فى غلام ، والقصـة على ما يرويها ابن بسام عن ابى عبـد الله انه قال : « كنت سـاكنا بصقلية ، وأشعار ابن رشيق ترد على ، فكنت أتمنى لقـاءه حتى

(١) معجم الادباء جـ ٢ ص ٩٦

قدم الروم علينا فخرجت فارا بمهجتى ، تاركا لكل ما ملكت يدى ، وقلت آجتمع بابى على ، فبرقة شمائله ، وطيب مشاهدته سيذهب عنى بعض ما أجد من الحزن،على مفارقة الأهل والوطن، فجئت القيروان ، ولم أقدم شيئا على الدخول الى منزله ، فاستأذنت ودخلت فقام الى ، وهو ثانى اثنين ، فأخذ بيدى وجعل يسألنى فاخبرته بأمرى فارتمض ، وبعد أن سكن الى بمجالسته قال لى يوما : يا أبا عبد الله ان ههنا بالقيروان غلاما سلب كبدى،واستولى هواه على خلدى منذ عشرة أعوام فانهض بنا اليه ، فان أنت ساعدتنى عليه ، قدمت عندى يدا لا يعدلها الا رضاه فقلت سمعا وطاعة ، وسرت معه حتى جئنا صاغة الجوهريين ، فاذا غلام وكأنه بدر تمام ، صافى الأديم ، عطر النسيم ، كأنما يبتسم عن در ، ويسفر عن بدر قد ركب كافور عارضيه ، ومسك صدغيه على بياض يجرحه الوهم بخاطره ، ويؤذيه الطرف بناظره ، فلما رآنا الغلام علته خجلة سلبت وجه أبى على ماءه ، فأنشدته قول الصنوبرى :

انه من علامة العشاق اصفرار الوجوه عند التلاقى
وانقطاع يكون من غير وعى وولوع بالصمت والاطراق

فقال له : والله ما واجهته قط قبل يومى هذا الا غشى على ، ولكننى أنست بك ، وشغلت بعذوبة لفظك مع أنى لم أرو طرفى من وجهه المقمر ، ولا متعته بقده المثمر ، لتنكيسه رأسه عند طلوعى اليه ، فقلت ولم ينكس رأسه ؟ فوالله ما رأيت أشبه

بالبدر منه خدا ، وبالغصن قدا ، ولا بالدر ثغرا ، ولا بالمسك شعرا ! فقال يا أبا عبد الله : ما أبصرك بمحاسن الغلمان،لاسيما من فضضت كف الجمال صفحته ، وذهبت وجنته ، وخافت على تفاح خده العيون فوكلت بها الجفون ، يا أبا عبد الله : ينكس رأسه لأنى علقته ، وخده هلالى ، وطرفه غزالى ، وفرعه ظلامى ، ولحظه بابلى ، وقده قضيبى ، وردفه كثيبى ، وخصره ساجى . وصدره عاجى ، فكأن طرفى يشرب كافوره بالعقيق ، فيخرج لذلك صدر العشيق ، حتى بدا عذاره ، فابدى من تميمه نقشا على فضى أديمه ، فتوهم ذلك الطاهر الأعراق . الطيب الأخلاق ان ذلك مما يضعف قوى محبتى ويمحو رسوم مودتى ، فقلت له : بحقى عليك يا أبا على الا قلت فى هذا المعنى شيئا ، فأطرق قليلا ثم أنشد أبياتا ستأتى فى الحديث عن مجونه .

بينه وبين ابن شرف الجذامى :

واذا كنا قد ذكرنا من الشعراء من جرى بينه وبين ابن رشيق لقاء وحديث ، ومطارحة ومناجاة ، فانا نذكر ابن شرف ، وكانت بينهما منافسة اذ جمعهما بلاط المعز بن باديس ، واذا كان مجرد التعاصر مدعاة للتنافس ، فكيف اذا كان التعاصر مقرونا بالاجتماع فى بلاط واحد .

فأما ابن شرف فهو الأديب الشاعر الكاتب أبو عبد الله محمد ابن ابى سعيد محمد والمشهور بابن شرف . قال ياقوت : تقدم

عند الأمير المعز بن باديس...وكان هو وابن رشيق متقدمين عنده على سائر من فى حضرته من الأفاضل والأدباء ، فكان يقرب هذا تارة ، ويدانى ذاك تارة ، فتنافسا وتنافرا ثم تهاجيا ، ولكن لم يتغير أحدهما على الآخر بما جرى بينهما من المناقضات .

ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز الى أن هاجم عرب الصعيد القيروان ، واضطر المعز الى الخروج منها الى المهدية سنة ٤٤٩ هـ . فخرج ابن شرف وسائر الشعراء معه اليهاواستقروا بها .

ثم أن ابن شرف خرج الى صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق ومكثا بها مدة ثم استنهضه على دخول الأندلس فرفض،وتمثل بالبيتين ــ أو قالهما ــ على الاختلاف فى ذلك :

مما يزهدنى فى أرض اندلس
أسماء مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

فأجابه ابن شرف بشعر له يقول فيه :

ان ترمك الغربة فى معشر ... قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم مادمت فى دارهم ... وأرضهم مادمت فى أرضهم

ثم شخص هو الى الأندلس تاركا صاحبه فى صقلية .

---

(١) معجم الادباء حـ ١٩ ص ٣٧ .

واستخلاه وصاحبه ابن رشيق ، المعز بن باديس يوما وقال لهما : أريد أن تصنعا لى شعرا تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف ينبت على سوق بعض النساء فانى أحبه واستحسنه وقد عاب بعض الضرائر بعضا به ، وكلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن هذا وأدعى أنه قديم ، لأحتج به على من عابته ، وأسر به من عيب عليه ، قال ابن شرف : فخلا كل منا وصنع ، فكان الذى صنع ابن رشيق :

يعيبون بلقيسية أن رأوا بها
كما قد رأى من تلك من نصب الصرحا

وقد زادها التزغيب ملحا كمثل ما
يزيد خدود الغيد تزغيبها ملحا

وكان الذى صنعت قولى :

وبلقيسة زينت بشعر
يسير مثل ما يهب الشحيح

رقيق فى خدلجة رداح
خفيف مثل جسم فيه روح

حكى زغب الخدود وكل خد
به زغب فمعشوق مليح

فان يك صرح بلقيس زجاجا
فمن حدق العيون لها صروح

قال ابن شرف : فانتقد المعز على ابن رشيق قوله :«يعيبون»
وقال قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه ، وهذا نقد
ما فطنت له .

وهكذا كان التنافس بين الرجلين ، يذكيه المعز تارة ،وتشعله
الرغبة فى السبق والتقدم أخرى .

والغريب أن يصنع ابن رشيق رسالة ينقد فيها الشعر
والشعراء ويسميها قراضة الذهب فنرى لابن شرف رسالة تشبهها
فى الموضوع ويسميها أعلام الكلام ، فهل اقتدى احدهما بصاحبه،
أم أنه توارد خواطر كالذى رأينا فى الشعر الذى حملهما عليه
المعز فى شعر السوق ؟.

ذلك ما نقف منه وقفة تتبين فيها وجه الصواب بمقدار
ما يتسع المقام . وبديا نرى ابن رشيق ينفى عن نفسه أن يكون
أخذ من بعض معاصريه ، وذلك أنه لما ألف كتاب العمدة نال منه
بعضهم ، ونقدوه فى بعض أبوابه ومسائله ، فقال يعرض بهم :
« وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له ثقوب فى
العلم ، ولا حذق بالصناعة كجماعة ممن وسم فى بلدنا بالمعرفة ،
ونسب اليها مكذوبا عليه فيها ، كاذبا فيما ادعاه منها ، ولتعرفنهم
فى لحن القول [1] » وقال أيضا : « وكم فى بلدنا هذا من الحفاث
قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين ، ولولا أن

(1) العمدة جـ ٢ ص ٨٠ .

يعرفوا بتخليدهم فى الكتاب ، ويدخلوا فى جملة من يعد خطله ، ويحصى زلله لذكرت من لحن كل واحد منهم »

لكن هذا لا يمنع ، ولا يحيل أن يكون ابن رشيق قد أخذ من ابن شرف فى رسالته « أعلام الكلام . » ومع أنا لا نعرف ما اذا كانت هذه الرسالة سابقة على العمدة الذى جاءت فيه العبارات المتقدمة أم لاحقة عليه ، فانا نحاول بقدر ما توافينا أسباب التحقيق تبين الوجه فى القضية .

ويطالعنا ابن شرف فى مستهل رسالته بقوله : « ... وعزوتها الى أبى الريان بن الصلت بن السكن بن سلامان ، وكان شيخاهما فى اللسان ، وبدرا تما فى البيان ، قد بقى أحقابا ، ولقى أعقابا ، ثم ألقته الينا من باديته الأزمات ، وأوردته علينا العزمات فامتحنا من علمه بحرا جاريا ، وقدحنا من فهمه زندا واريا ، وأدرنا من بره طرفا ، واجتنينا من ثمره طرفا . ونحن اذ ذاك والشباب مقتبل ، وغفلة الزمان تهتبل » (١) .

وواضح من هذا النص ان ابن شرف كتب الرسالة فى صدر الشباب ، فاذا أضفنا الى ذلك أنه ولد سنة ٣٩٠ هـ . أمكن القول بأنه ألفها فى الفترة بين سنة ٤١٠ هـ ، سنة ٤٢٠ هـ . على أن صدر الشباب يكون فى العشرة الثالثة من العمر ، وسنرى فيما ستقبل من فصول هذه الترجمة أن العمدة ألف بين ٤١٢ هـ ،

(١) اعلام الكلام ص ١٢ .

٤٢٥ هـ . وعلى هذا يكون ما ادعى على ابن رشيق من أنه أفاد من الرسالة لا استحالة فيه .

فاذا أضفنا الى ذلك أن بين الرسالة ، رسالة اعلام الكلام لابن شرف . وبين كتاب العمدة ، وقراضة الذهب لابن رشيق مشابه فى كثير من الموضوعات زاد ترجيح الأخذ أو فى الأقل لم يصبح مستحيلا .

أما المشابه بين تأليف ابن شرف وابن رشيق فنجدها فى مثل حديثهما عن ابن الرومى . يقول عنه ابن شرف : وأما ابن الرومى فشجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله فى الهجاء ما ليس له فى الاطراء ، فتح فيه أبوابا ، ووصل منه أسبابا، وخلع منه أثوابا، وطوق به رقابا » (١) .

ويقول عنه ابن رشيق « وكان ابن الرومى ضنينا بالمعانى ، حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه فى كل وجه ، والى كل ناحية حتى يميته ويعلم ألا مطمع فيه لأحد » (٢) .

ويستفتح ابن شرف رسالته تلك بالحديث عن امرىء القيس « الضليل » ويجعله « مؤسس الأساس وبنيانه عليه الناس ، كانوا يقولون أسيلة الخد حتى قال هو أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون تامة القامة وطويلة القامة وأشباه هذا ، وجيداء

(١) اعلام الكلام ص ٢٤ .

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٢٧ .

وتامة العنق حتى قال هو : بعيدة مهوى القرط ، وكانوا يقولون في الفرس السابق : يلحق الغزال ويسبق الظلام أو الظليم حتى قال هو : بمنجرد قيد الأوابد يقول ابن شرف . ومثـل هذا له كثير . » (١) أقول يقول ابن شرف ذلك عن الضـليل فى رسالته اعلام الكلام فيقول ابن رشيق فى مستهل قراضة الذهب:«...وأنا أقتصر من جميع الشعراء فى أكثر ما أورده على امرىء القيس لأنه المقدم لا محالة وان وقع فى ذلك بعض الخلاف ، فالمميز الحاذق بطرق البلاغة يجد لكلامه من الفضيلة فى نفسه مالايجـده لغيره من كلام الشعراء ، والبحث والتفتيش يزيدانه جلالة ، ويوجبان له على من ســواه مزية » ثم أن له « قيـد الأوابد » ، وأن له فى الليل :

فقـــلت له لمـــا تمطى بصــــلبه
وأردف اعجـــــازا وناء بكلـــكل

وله فى الغزل والتضرع :

وما ذرفت عينــــــاك الا لتضربى
بســـهمك فى أعشـــار قلب مقتل (٢)

وكما تحدث ابن شرف عن القدماء والمحدثين فى صفحة ٢٨ من الرسالة ، تحدث عنهم ابن رشيق فى فصل قائم بذاته لهم .

(١) اعلام الكلام ص ١٩ .
(٢) قراضة الذهب ١٥ .

فهل بعد هذا يمكن القطع بأن ابن رشيق أخذ عن ابن شرف؟ ذلك أيضا ما نتوقف عن الذهاب اليه لأن ابن شرف يقول فى رسالته تلك : « ولعمرك ما أشكر من نفسى ولا أثنى على شىء من حسى ، الا ظفرى بالأقل مما حاولته على ما أضرمته نيران الغربة من قلبى وثلمته صعقات الفتنة من لبى ، وقطعته أهوال البر والبحر من خواطرى ، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزى وبصائرى » فمثل هذا الحديث من ابن شرف يثير الشك حول زمان كتابة الرسالة ، وأنها انما كتبت بعد أهوال بر وبحر ، وبعد فتن وغربة ، ووحشة ووحدة ـ ولا نعرف الا فتنة القيروان ، ووحشة الاغتراب فى صقلية ثم فى الأندلس ، فهل كتب رسالته بعد هذا كله ، واذا كان الأمر كذلك لا يكون ابن رشيق أخذ عنه لا فى العمدة ولا فى قراضة الذهب .

ولعل ظروفا تسمح بتحقيق هذه القضية بعد ، وفى غير هذه السيرة التى يجب أن ننأى عن الجدل الطويل .

وبعد فأولئك شيوخ ابن رشيق وهؤلاء هم معاصروه الذين كانت له معهم لقاءات ومطارحات ، وقد استفاد منهم علما وأدبا على تفاوت فى ذلك .

الفصل الثالث

أخلاق ابن رشيق

ولابن رشيق جانبان فجانب يتصل بسلوكه الاجتماعى ، وآخر يتصل بسلوكه العلمى ، فأما عن سلوكه الاجتماعى فمصدرنا فى ابراز معالمه انما هو شعره ، وما يروى عنه .

مسالمته :

وأول صفاته أنه كان يؤثر السلام وموادة الناس ، ويتجنب كل ما يجر عليه عداواتهم ، واذا حمل على شىء من ذلك فانه يكتفى فى الانتصاف لنفسه بالتلويح دون التصريح ، ومذهبه هذا نجده له فى حديثه عن منافع الشعر ومضاره اذ يقول : وممن ضره الشعر وأهلكه سديف ، فانه طعن فى دولة بنى العباس بقوله لما خرج محمد بن الحسن بالمدينة على أبى جعفر المنصور :

انا لنأمل أن ترتد ألفتنا
بعد التباعد والشحناء والاحن
وتنقضى دولة أحكام قادتها
فينا كأحكام قوم عابدى وثن
فانهض ببيعتكم ، ننهض بطاعتنا
ان الخلافة فيكم يابنى الحسن

فكتب المنصور الى عبد الصمد بن على بأن يدفنه حيا ، ففعل ، ويقال ان الأبيات لعبد الله بن مصعب ، نسبت الى سديف وحملت عليه فقتل بها وذلك أشد . يقول ابن رشيق معلقا على القصة كاشفا عن مذهبه : وأحمق الشعراء عندى من أدخل نفسه فى هذا الباب أو تعرض له . وما للشاعر والتعرض للحتوف، وانما هو طالب فضل؟ فلم يضيع رأس ماله ؟ وكل شيء يحتمل الا الطعن فى الدول ، فان دعت الى ذلك ضرورة مجحفة فتعصب المرء لمن هو فى ملكه وتحت سلطانه أصوب ، وأعذر له من كل جهة وعلى كل حال ، لا كما فعل سديف . [1]

ولا أرى مذهب ابن رشيق مذهبا ، فليس الشاعر « طالب فضل » وانما الشاعر صاحب مبدأ ورسالة ، وأصحاب المبادىء والرسالات لا يجاملون ، ولا يتعصبون « لمن هم فى ملكهم » حتى ولو كانوا مبطلين ، بل ان الشعراء ينبغى ان يكونوا فوق المراءاة .

وخير الشعر اكرمه رجالا
وشر الشعر ماقال العبيد

قنوعه :

وكانت فى ابن رشيق قناعة تصل به الى حد القنوع والرضا

---

(1) العمدة جـ ١ ص ٥٩ .

بالمنزل السهل ، والبعد عن المغامرة والاقدام ، ولذلك نراه عاش حياته كلها فى طريق واحد لم يجترىء على تبديله أو تغييره ، عاش فى كنف المعز فى رعاية أبى على بن أبى الرجال ، وأخيرا فى كنف تميم ، ولا نعرف أنه غير طريقه هذا الا حين بعد عن خدمة المعز ولكنه سرعان ما عاد اليه معتذرا بقوله :

ولولا شقائى لم أغب عنك ساعة
ولا رام صرفى عن جنابك صارف
ولكننى أخطأت رشـدى فلم أصب
وقد يخطىء الرشد الفتى وهو عارف

ولذلك نراه يحبذ مذهب القعود عن السعى ، ويقرر أن المرء قد ينال فى دعته أكثر مما ينال بسعيه ودأبه، واذا كان الأمر على هذا ففيم التعب واجهاد النفس ، وابن رشيق بذلك من المتواكلين الذين لايحبون أن يبذلوا فى سبيل الرزق، بل يرى أنه رجاء الله ولو بدون عمل — من أعظم أسباب الارتزاق ، وهو مذهب خاطىء — وهذا قوله فى ذلك المعنى :

يعطى الفتى فينـال فى دعـة
مالم ينـل بالـكد والتعب
فاطلب لنفسـك فضـل راحتهـا
اذ ليسـت الأشـياء بالطـلب
ان كان لا رزق بلا سـبب
فـرجاء ربك أعظم السـبب

وإذا كان ذلك مذهبه ، فلا عجب اذا رأيناه يكره المغامرة وركوب البحر فيقول :

خلقت طينا وماء البحر يتلفه
والقلب فيه نفور من مراكبه
فالبحر غير رفيق بالرفيق له
والبر مثل اسمه بر براكبه

ويقول فى نفس المعنى :

البحر صعب المرام مر
لا جعلت حاجتى اليه
أليس ماء ونحن طين
فما عسى صبرنا عليه

وكأنه يشعر بسوء مذهبه وقبح رأيه ، ودلالته على ضعفه وخور عزيمته فيعلل لذلك بقوله :

تنازعنى النفس أعلى الأمور
وليس من العجز لا أنشط
ولكن بمقدار قرب المكان
تكون سلامة من يسقط

ولكن أنى يكون ذلك الاعتذار مقبولا أو مستساغا ، ولعله يكون عدل عن ذلك لما كتب الى بعض اخوانه يدعوه الى الأسنار كما يقول الشريشى والقصة فى كتاب النتف ص ٥٩

قال : « مثل الرجل القاعد أعزك الله كمثل الماء الراكد ، ان ترك تغير ، وان تحرك تكدر ، ومثل المسافر كالسحاب الماطر ، هؤلاء يدعونه رحمة ، وهؤلاء يدعونه نقمة ، فاذا اتصلت أيامه ، ثقل مقامه ، وكثر لوامه ، فاجمع لنفسك فرحة الغيبة وفرحة الأوبة ، والسلام » وفى هذا المعنى يقول :

غب عن بلادك وارج حسن مغبة
ان كنت حقا تشتكى الاقلالا
فالبدر لم يجحف به ادباره
ألا يسافر يطلب الاقبالا

وتقدمت قصة قعوده عن الارتحال من صقلية مع ابن شرف الى الأندلس ، وهكذا كان صاحبنا يؤثر السلامة على الاقدام .

هجاؤه :

ورجل يؤثر السلامة ويتجنب مخاطر الحياة لاشك يؤثر السلام مع الناس أيضا ، ولذلك لا نعرفه هجاء الا فى موضعين أحدهما حين يقول :

يا موجعنى شتما على انه لوفرك البرغوث ما أوجعا
كل له من نفسه آفة وآفة النحلة أن تلسعا

وهو ضعيف فى بابه . والشعر ان لم يكن فيضا تمتلىء به النفس لا يكون الا كذلك فلا غرابة اذا جاء هجاؤه على هذه الشاكلة ،

وثانيهما : وقد أفحش فيه حتى قال الميمنى وهو يرويه له « وقد أثبتناه كما وجدناه والعياذ بالله عن سفساف الهراء » وذلك قوله :

عرسه من غير ضير عرس زيد بن عمير

أبدا ..

ولها رجلان من نا قة كعب بن زهير

هكذا تبنى المعالى ليس الأكل خير

وقد تقدم تعريضه بابن شرف ــ على مارجحت ــ فى كتابه العمدة .

دعابته وملحه :

وكان ابن رشيق يميل الى الدعابة والتظرف فنراه يقول موصيا بالبغال :

أوصيك بالبغل شرا فانه ابن الحمار

لا يصلح البغل الا للكد والاسفار

كالعبد ان لم تهنه جنى على الاحرار

ما اعتاض بغلا بطرف الا أخو ادبار

ويقول فيها أيضا :

فأوصيكم بالبغل شرا فانه من العير فى سوء الطباع قريب

وكيف يجىء البغل يوما بحاجة تسر وفيه للحمار نصيب

وربما كان هو الذى فتح باب القول فى البغال للبهاء زهير فى مثل قوله :

لك ياصديقى بغلة ليست تساوى خردلة
تمشى فتحسبها العيو ن على الطريق مشكلة

واجتمع ابن رشيق يوما ببعض أصحابه ، وكان فيهم محمد ابن شرف وكان أعور ، والطوسى وكان أعمى ، وكان صاحبنا أحول فقال فى صاحبيه وفى نفسه :

لابدفى العور من تيه ومن صلف لأنهم يبصرون الناس أنصافا
وكل أحول يلقى ذا مكارمة لأنهم ينظرون الناس أضعافا
والعمى أولى بحال العور لو عرفوا على القياس، ولكن خاف من خافا

قال الميمنى وهذا المعنى مما قال فيه غير ابن رشيق فقال أحدهم فيه :

شمس الضحى يعشى العيون ضياؤها
الا اذا رمقت بعين واحدة
فلذاك تاه العور واحتقروا الورى
فاعرف فضيلتهم وخذها فائدة
نقصان جارحة أعانت أختها
فكأنما قويت بعين زائدة

مجونه !

ولابن رشيق فى هذا الباب من الشعر مايشهد بأنه كان عابثا ويبدو أن المجتمع لم يكن ينكر عليه وعلى أضرابه من الشعراء أن يجتمعوا على مجالس العبث ، لأنا نجد له فيه الكثير المفحش من القول — حتى لنجدنا مضطرين الى القول بأن قد كانت فيه مشابه من أبى نواس ، والا تكن من الذيوع على ما عرف عن أبى نواس ، ولكنها بعامة تشهد بذلك الشبه . وسأذكر من ذلك طرفا :

فها هو ذا يخاطب محبوبا أحبه ، وكأنما تأبى عليه فاذا هو يستميله بقـــوله :

ان كنت تنـــكر ما منــك ابتليت به

فان برء ســـــقامى عز مطلبـــــه

أشر بعــود من الكبــريت نحــو فمى

وانظـــر الى زفراتى كيف تلهبـــه

ويحكى لنا قصة محبوب أشار اليه بطرف العين أن يأتيه فى منزله آخر الليل فى خفية من الرقباء وقد حقق أمله ، وتحدث عما كان بينهما فقال :

ومهفهف يحميـــه عن نظـــر الورى

غير ان ، ســـكنى الموت تحت قبـــابه

أومى الى أن ائتنى فأتيتـــــــــــه
والفجـــر يرمق من خلال نقـــابه
فلثمت خــــدا منـــه ضرم لوعتى
وجعلتهـــا أطفى حرها برضـــابه
وضممته للصـــــدر حتى استوهبت
منه ثيـــابى بعض طيب ثيـــابه
فكان قلبى من وراء ضـــــــلوعه
طربا يخبـــر قلبـــه عمـــا به
فهذا حديث مايكون بين العاشقين .
ويتعشق غلاما أو جارية لايبين الشعر عن أيهما ــ من صبرة احدى القرى من القيروان فيقول :
بنفسى من ســـكان صـــبرة واحـــد
هو النـــاس والبـــاقون بعـــد فضول
عزيز له نصــــــفان : ذا فى ازاره
ســـمين وهـــذا فى الوشـــاح نحيـــل
مدار كئـــوس اللحظ منـــه مكحل
ومقطف ورد الخـــد منه أســـيل (١)
ونجتزىء فى هذا الباب بما ذكرنا على أن له فيه غيره كثير منشور فى مطاوى الكتب والتراجم ، وقد جمعه او جمع أكثره الميمنى ــ ومنه أفدت .

(١) مقطف اسم مكان . أى مكان قطف الورد يعنى خده .

تدينـــه :

وشـــاعر هذا بعض شعره لاننتظر منه أن يكون حريصا على مظاهر التدين ، كيف وهو الذى يقول فى غلام :

ان زارنى يوما على خلـــوة أو زرته فى موضـــع خالِ
كنت له رفعـــا على الابتدا وكان لى نصـــبا على الحـــالِ

بل انه ليصرح برقة دينه فى قوله :

انى لقيت مشـــــــــقه فابعث الى بشـــــــــقة
كمثـــل وجهـــك حســـنا ومثـــل دينى رقـــة

ذلك هو ابن رشيق فى سلوكه الاجتماعى وهو سلوك ينم فى جملته عن شخصية لاتقيم للخلق ولا الدين كبير وزن أو اعتبار .

سلوكه العلمى :

فاذا نحن جاوزنا ذلك الى خلقه العلمى رأينا فيه أمانة العلماء وتواضعهم ومعرفته بمقدار نفسه ومقادير شيوخه ومن يأخـــذ عنهم .

فأما أمانته فانها تتجلى فى رده الرأى ينقله الى صـــاحبه فتراه يقول وقد تحدث عن التكرار فى الجزء الثانى من العمدة « وقد نقلت هذا الباب نقلا من كتاب عبد الله بن المعتز الا مالااخفاء به على أحد من أهل التمييز،واضطرنى الى ذلك قلة الشواهد» (١)

(١) العمدة جـ ٢ ص ٧٦ .

فأين ذلك من كثيرين ينقلون من غيرهم ويأنفون أن يذكروا ذلك أو يشيروا اليـــه .

ويتحدث عن أغراض الشعر فيقول : « وقد كنت أردت ذكر هذا الفصل فيما تقدم من باب عمل الشعر وشحذ القريحة له ،فلم أثق بحفظى حتى صححته فأثبته بمكانه من هذا الباب » ؟ .

ويحكى ابن رشيق الرأى فى المسألة فيرده الى أصـــله كأن يقول: الا يغال ضرب من المبـــالغة كما قـــدمت الا أنه فى القوافى خاصة لايعدوها ، والحاتمى وأصحابه يسمونه التبليغ وهو تفعيل من بلوغ الغاية .. وحكى الحاتمى عن عبد الله بن جعفر عن محمد ابن يزيد المبرد قال حدثنى التوزى قال : قلت للاصمعى : من أشعر الناس ؟ قال الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيرا .. » (١)

فهذا دأبه فى كل ما ينقله تثبت وأمانة ، وأخذ بيد الــرأى حتى يصل به الى مصدره الأول . وهذه طريقة العلماء الأثبات .

وحين يشك فى قضية فانه يشير الى ذلك ــ يقول فى باب تنقل الشعر فى القبائل « .. ومنهم سعد بن مالك الذى يقــول ..

يا بؤس للحـــــــــرب التى وضعت اراهط فاســتراحوا

ولا أدرى هل هو أبو عمرو بن قميئة الشاعر والمرقش الأكبر أم لا » ؟ (٢) .

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ١٠٩ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ٧٠ .

وكذلك كان فى ابن رشيق تواضع نراه حين يحكى لنفسه شعرا فى باب التقسيم فيقول « وقد صنعت على ضعف متنى وتأخر وقتى :

اذا أقبلت أقعت ، وان أدبرت كبت
وتعرض طولا فى العنان فتستوى
وكلفت حاجاتى شبيهة طائر
اذا انتشرت ظلت لها الأرض تنطوى »(١)
والشعر فى وصف بغلة

ويقول يخاطب ابن ابى الرجال : « وأنا أطال الله بقاء السيد محروس النعمة — كثير الحسان — وان لم أعلق من العلم الا بحاشية ولا أخذت منه الا فى ناحية لسوء المكان وقلة الامكان ، وزمانة الزمان ، وجدت الشعر أكبر علوم العرب ، وأوفر حظوظ الأدب » فتراه وهو يؤلف مثل العمدة لا يتيه ، وانما يذكر أنه « انما علق من العالم بحاشية . وما أخذ منه الا فى ناحية » .

ولكن هذا التواضع لايمنعه أن يبدى الرأى فيما ينقل كأن يقول بعد بيتى .. أبى كبير الهذلى :

فالطعن شغشغة ، والضرب هيقعة
ضرب المعول تحت الديمة العضدا

---

(١) العمدة ج ٢ ص ٢٢

وللقسى آزاميـــل وغمغمـــة

حس الجنـوب تسـوق الماء والبردا

وأنا استحسن هذين البيتين جدا (١) .

ثم يحكى عن الرمانى أنه أنشد بيت ذى الرمة الذى يقـول فيـه :

كأنه كوكب فى اثـر عفـريت

مسـوم فى سواد الليـل منقضب

وانه قال : قد اجتمع الثـور والـكوكب فى السرعة الا أن انقضاض الكوكب أسرع ، واستدل بهذا على جودة التشـبيه، ثم يعقب عليه بقوله : وأنا أرى أن فيه دركا على الشاعر واغفالا من الشيخ المفسر .

ولا يلقى ابن رشيق بذلك الحكم فى البيت وفيمن فسره من غير أن يبين وجهة نظره فيقول :

« وذلك أن الثور مطلوب ، والـكوكب طالب فشبهه به فى السرعة والبياض ، ولو شبهه بالعفريت ، وشـبه الكلب وراءه بالكوكب لكان أحسن وأوضح ، لكنه لم يتمكن له المعنى الذى أراده من فوت الثور الذى شبه به راحلته ، وأما ما أغفله الشيخ فان الشاعر انما رغب فى تشبيه الثور بالكوكب ، واحتمل عكس

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٦٤ .

التشبيه بأن جعل المطلوب طالبا لبياضه فان الثور لهق لامحالة ، وأما السرعة التى زعم ، فان العفريت لو وصفه به ، وشبهه بسرعته لما كان مقصرا ولا متوسطا ، بل فوق ذلك كله » ؟ (١)

ذلك هو ابن رشيق فى اعتزازه برأيه يبديه مع تواضع وخفض جناح ومن هذا القبيل قوله : « وسأذكر قطعة من أشعار الكتاب يظهر فيها مرماهم ، ويستدل بها على مغزاهم ، ويعرف حسن اختيار الجاحظ فيما ذهب اليه من تفضيلهم ، وتشهد لى بجودة الميـز ، وفرط التثبيت والانصاف ان شاء الله تعالى » (٢)

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٠٠ .

الفصل الرابع

آثار ابن رشيق ومؤلفاته

يذكر الرواة أن ابن رشيق ترك ما يزيد على ثلاثين كتاباً ، نجد أسماءها منثورة فى بطون الكتب لاسيما كتب التراجم ، ونحاول فى هذا الفصل أن نحصيها بمقدار ما واتت المراجع ، واسعفت المصادر ، مع ذكر كلمة عما يمكن أن نجده أو نجد له ظلا من هذه الكتب .

فمن ذلك كتابه :

١ ــ العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، وهو الكتاب الذى حمل اسم ابن رشيق وجعله فى عداد الخالدين من أعلام العرب وسنخصه بحديث عند الكلام عن ابن رشيق الناقد .

٢ ــ قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب وهو لطيف الجرم كبير الفائدة .

٣ ــ أنموذج الزمان فى شعراء القيروان .

٤ ــ الشذوذ فى اللغة يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة فى بابها .

٥ ــ الرسائل الفائقة والنظم الجيد .

وقد ذكر له هذه المجموعة ابن خلكان فى الترجمة التى عقدها لها . كما ذكر له مجموعة أخرى من المؤلفات فى ترجمته لابن شرف الجذامى هى :

٦ ــ ساجور الكلب .

٧ ــ نجح الطلب .

٨ ــ رفع الاشكال .

٩ ــ قطع الأنفاس .

١٠ ــ نسخ الملح وفسخ اللمح ، وهذا الكتاب ذكره صاحب معجم الأدباء ، وقال ان من شعره فيه قوله :

المرء فى فسحة كما علموا حتى يرى شعره وتأليفه
فواحد منهما صفحت له عنه وجازت له زخاريفه
وآخر نحن منه فى غرر ان لم يوافق رضاك تثقيفه
وقد بعثنا كيسين ، ملؤهما نقد امرىء حاذق وتزييفه
فانظر ومازلت أهل معرفة يامن لنا علمه ومعروفه (١)

وموضوع الأبيات كما يبدو فى تقديم كتاب يرفعه الى احد ذوى الجاه ، ولا أخاله الا أبا على بن أبى الرجال فهو الذى كان يستأثر باعجاب ابن رشيق ، ويجد ابن رشيق فى رحابه حاجته وبغيته . واذا كان هذا الشعر قيل فى رفع كتاب نسخ الملح

(١) معجم الادباء جـ ٨ ص ١١٢ .

فانه يكون ألف قبل سنة ٢٥ هـ وهى السنة التى توفى فيها ابن أبى الرجال .

١١ ـ سر السرور ، وذكره له ياقوت ، ثم قال وله فيه قوله:

معتقة يعلو الحباب متونها
فتحسبه فيها نثير جمان
رأت من لجين راحة لمديرها
فطافت له من عسجد ببنان

وهو صورة بديعة فى وصف الخمر ومن يدور بها على السقاة والشراب . وله فى هذا الباب باع طويل سنعرض له عند الحديث عن شاعريته .

أما صاحب كشف الظنون فنسب اليه طائفة غير هذه منها :

١٢ ـ شرح موطأ مالك .

١٣ ـ تاريخ قيروان .

ونسب اليه صاحب بساط العقيق :

١٤ ـ الروضة الموشية فى شعراء المهدية .

١٥ ـ المساوىء فى كشف السرقات الشعرية .

١٦ ـ ميزان العمل فى تاريخ الدول .

والميمنى يقرر أن له :

١٧ ــ جزءا من ديوانه ، وان هذا الجــزء لا يزال قائما الى اليوم فى مكتبة اسكوريال .

وفى حاشية كتاب وفيات الأعيان التى كتبها الاستاذ نجاتى نراه يذكر أن له فوق ما تقدم :

١٨ ــ طراز الأدب .

١٩ ــ الممادح والمذام .

٢٠ ــ متفق التصحيف .

٢١ ــ تحرير الموازنة .

٢٢ ــ الاتصال .

٢٣ ــ المن والفدا .

٢٤ ــ غرائب الأوصاف ولطائف التشبيها تمما انفــرد به المحدثون .

٢٥ ــ كتاب الرياحين .

٢٦ ــ صدق المدائح .

٢٧ ــ الأسماء المعربة .

٢٨ ــ اثبات المنازعة .

٢٩ ــ معالم التاريخ .

٣٠ ــ التوسع فى مضايق القول .

٣١ ــ بلغة المشتاق فى ذكر أيام العشــاق ــ ذكــره داود الانطاكى فى كتابه تزيين الأسواق .

٣٢ ــ الحيلة والاحتراس .

رأى :

ويرى الأستاذ نجاتى أن بعض هذه الأسماء انما هى أسماء لفصول وأبواب من كتب ابن رشيق . وكنت هممت أن أخالفه لولا أنه احترس فقال « بعض هذه » ذلك لأن كثيرا منها كتب مستقلة قائمة بذاتها ، نقل عنها الذين كتبوا عنه وترجمــوا له . فهذا سر السرور ، ونسخ الملح ، والانموذج . وقد تقدم بعض ما نقل عنها .

ويضيف اليه الدكتور بدوى طبانه كتابا يسميه «تزييف نقد قدامة » فيقول وقد سمع به ضياء الدين بن الأثير ولكنه لم يره ــ ويقول ــ وكذلك لم نعثر عليه ، وكفــانا صــاحب تحــرير التحبير مئونة الرأى فى هذا الكتاب بقوله : ولو رأى ضياء الدين رحمه الله كتاب ابن رشيق الذى سماه تزييف النقد يرد به على قدامه لرأى كتابا يحلف الحالف صادقا أنه ما تكلم فيــه بحــرف واحد الا وهو مطبق الجنون ليس له وقت افاقة ألبتة » [1] .

---

(١) قدامة بن جعفر والنقد الادبى ص ٣٦٨ .

وهكذا يعتنق الدكتور رأى صاحب التحبير فى الكتاب وفى نسبته الى ابن رشيق ، وأنه كفاه مئونة الرأى فيه ــ الأمر الذى لابد من وقفة عنده ، نقفها لنشكك فى أن يكون لابن رشيق كتاب بهذا الاسم ، بل لنؤكد ان ليس له هذا الكتاب .

وانما نذهب الى ذلك لأنا حين نقرأ ابن رشيق فى كتابيه الباقيين : العمدة وقراضة الذهب نراه وهو يعجب بقدامة بن جعفر ، وينقل عنه ، وحتى الدكتور بدوى نفسه يعلم ذلك ويقرره فى كتابه ذاته فيقول عن ابن رشيق انه « يجعل كلام قدامة فى مقدمة الآراء التى ينقلها فى أكثر مباحث كتابه » (١) فكيف يكون ذلك شأنه ثم يؤلف كتابا يقفه على تزييف آراء قدامه أو تزييف نقده ؟ هذا من الناحية العقلية ، ومن ناحية الرواية فان جميع المصادر التى وقعت لى لم تذكر أن له مثل هذا الكتاب ، فلم يبق الا المصدر الذى اعتمد عليه الدكتور فى نسبه الكتاب الى الرجل وهو كتاب « بديع القرآن » لصاحب التحبير ــ وجاء ذكر الكتاب فى مقدمة البديع التى يقول فيها : «كتاب بديع القرآن جمعته من كتاب وكتابين منها ما هو منفرد بهذا العلم ومنها ما هذا العلم داخل فى اثنائه كنقد قدامة ، وبديع ابن المعتز وحلية المحاضرة للحاتمى ، وكشفت عن الحالى والعاطل

---

(١) قدامة بن جعفر والنقد الادبى ص ٢٦٩ .

له الذى أشرت اليه فى الحلية ، فلم أظفر بمن يعترف بوقوعه عليه الا ابن منقذ فى بديعه والصناعتين للعسكرى والعمدة لابن رشيق، وتزييف نقد ابن قدامة له ، ورسالة الآمـدى فى الرد على قدامة والموازنة بين الطائيين له ، وكشف الظلامة للموفق البغـدادى ودلائل الاعجاز للجرجانى واسرار البلاغة له ، واعجاز ابن الخطيب » (١) وبالنظر فى هذا الجزء نرى شيوع الخطأ وكثرته ، ففى اول يقول : جمعته من كتاب وكتابين وصوابها : جمعته من سنة وستين كتابا ، ثم يقول والوساطة له ، ومرجع الضمير عبد القاهر الجرجانى فى حين أن الوساطة للقاضى عبدالعزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ .

فاذا بلغنا بمناقشة الرجل الى قوله « تزييف نقد ابن قدامه » رأينا فيها خطأ الرواية اذ كلمة « ابن » زائدة لأنا لا نعرف ابنا لقدامه له كتاب فى النقدحتى يزيفه ابن رشيق والأقرب فى تصويب هذه العبارة انها « تبين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر » فذلك علم على كتاب للآمدى ـ وهو كان مولعا بالتتبع على الشعراء والنقاد وقد أشار اليه فى كتابه الموازنة بين الطائيين.

وعلى هذا فليس لابن رشيق مثل هذا الكتاب .

مسـألة أخرى هل كان ابن رشيق مؤرخا ؟

رأى الدكتور حسين مؤنس ـ فيما أقدر ـ ابن رشيق وقد

(١) بديع القرآن مخطوط ٢٠٥ بلاغه الورقة الاولى بدار الكتب العربية .

نسب اليه كتـاب تاريخ قيروان فذهب الى أن الرجل كان « من ثقات أهل البلاد .. ممن تناولوا الكتابة فى تاريخ المغـرب » (١) ولست أرى ابن رشيق من المـؤرخين فضلا عن ان يكـون من ثقاتهم . على أن صاحب بساط العقيق يقول هو الآخر : « أما الفن الذى أصاب فيه ابن رشيق عرفانه واطلق فيه للقلم عنـانه فهو التاريخ وفروعه فانه وضع فيه ميزان العمل فى تاريخ الدول .. أتى فى ضمنه على الدول العربية قبل الاسلام وبعـده والى زمانه » (٢) .

وهذا أيضا يتعرض لمثل ما تعرض له كلام الدكتـور حسـين مؤنس من حيث الشك فيه ونبنى ردنا هــذا ، أو شــكنا فى الأقل على أنهما لم يذكرا مصدرا يمكن أن يفيد أن الرجل كان مؤرخا وآما أن له كتاب ميزان العمل فى تاريخ الدول أو له تاريخ قيروان فقد انفرد بذكر ذلك صاحب كشف الظنون ــ ولكن حتى صاحب كشف الظنون لم يذكر أنه اتى فيه على الدول العربية قبل الاسلام وبعده والى زمانه ، ولم يذكر أنه فى التاريخ وفروعه ، وانما كل الذى قاله عن هذا الكتاب « انه اقتصر فيه على عدد الأيام من دول الملوك » (٣) وفرق بين ان يكون اقتصر على الأيام .. وان يكون

---

(١) فتح العرب للمغرب ص ٣٠٩ .

(٢) بساط العقيق ص ٨٩ .

(٣) كشف الظنون جـ ٢ ص ٣٧٥ .

اتى فى الكتاب على تاريخ الدول العربية قبل الاسلام وبعده والى زمانه ..

وحين نرجع الى كتاب العمدة ـ وهو الكتاب الثانى من مؤلفات ابن رشيق ـ نجد له فيه حديثا عن أيام العرب ووقعائهم فى باب من أبواب الجزء الثانى ، ويقول فيه : « قد أثبت فى هذا الباب ماتأتى الى من أيام العرب ووقائعهم ، ولم أشرط استقصاءها اذ كان فى أقل ممـا جئت به مقنع ، ولأن أبا عبيدة ونظراءه قد فرغوا مما ذكر » (١) .

ثم يعقد بابا لملوك العرب ويقول فيه « وأنا أذكر فى هـذا الباب من ملوك النواحى من أخذه حفظى وبلغته روايتى على شريطة الاقتصار والتلخيص » (٢) .

وهكذا لم يدع الرجل لنفسه أنه مؤرخ فضلا عن أن يـكون « من ثقات المؤرخين الذين أصابوا فيه عرفانهم ، أو اطلقوا للقلم فيـه العنـان » .

وكل الذى لابن رشيق فى هذا الباب ـ على ما نرجح الى أن يظهر خلافه ـ انما هو « معلومات أخذها حفظه ، وبلغتها روايته وتأدت اليه من أيام العرب » كما يقول هو . فاذا أضفنا الى ذلك أن العمدة كتبه ابن رشيق فى أربعة مجلدات ، وان أيام العرب

---

(١) العمدة ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) العمدة ج ٢ ص ٢١٤ .

ووقائعهم هى موضوع أحدها فان ذلك يرجح ان يكون هـذا الجزء هو مقصود من قال انه ألف فى التاريخ .

وعلى هذا لا يكون الرجل مؤرخا ولا يجوز عده فى المؤرخين فكل الذى له مما يمكن أن يدخل فى التاريخ تجوزا هو ما كتبه فى العمدة تحت عنوان أيام العرب، وهو الصفحات من ١٨١ـــ٢١٩ فى الجزء الثانى ، والكتاب معقود أصلا لدراسة الشعر ونقده ، فاذا جاء فيه شىء يشبه التاريخ أو يتعلق بأنساب العرب، وملوكهم ووقائعهم فانما ذلك لاستكمال الحديث فى الشعر لما لهذه الثقافة من العون الذى تمد به دارس أشعار العرب فهى أشعار تتصل بالأنساب ، وبالأيام وبالوقائع ، فالالمام بهذه الأبواب يسعف فى فهم الشعر ـــ ومن هنا ـــ فيما أذهب اليه ـــ تحدث ابن رشيق عن هذه المعلومات . ولم يتناولها أبدا بنية المؤرخ ، ولم يطلق فيها لقلمه العنان .

وموقفه من الحديث وأنه شرح موطأ مالك كموقفه من التاريخ وانه كتب فيه ما جعله فى نظر بعضهم مؤرخا ثقة ـــ على أن صاحب كشف الظنون قد انفرد أيضا بذكر الحديث وبأن ابن رشيق له شرح الموطأ ، وليست ثقافة الرجل على ما عرفنا بالتى ترشحه لشرح الموطآ . ولا هو بالذى اتجه اليها ، وانماتنزع ثقافته منزع اللغة وشعرها ونقدها ـــ وما يتصل بذلك ، دون الحديث وشرح الموطآ .

الفصل الخامس
ابن رشيق النّاقد

- أ -
مصادر المادة النقديّة

- كتاب العمدة :

لما كان كتاب العمدة هو الذى خلد اسم ابن رشيق ، ولما كان هو الذى ضم آراءه فى النقد والبلاغة فلابد لنا من وقفة نقفها عنده نكشف فيها عن تاريخه وقصته وتأليفه .

وأول ما يطالعنا فى الكتاب ان الرجل يرفعه الى « السيد الأمجد والفذ الأوحد،حسنة الدنيا،وعلم العليا ، وبانى المكارم ، وآبى المظالم ، رجل الخطب ، وفارس الكتب : أبى الحسن على ابن أبى الرجال ، الكاتب ، زعيم الكرم ، وواحد الفهم ، الذى نال الرياسة ، وحاز الكياسة . »

وابن رشيق بصنيعه هذه ، انما يجرى على سنة العصر الذى كان يعيش فيه ، فقد كان العلماء يرفعون كتبهم الى أمير او وزير أو عظيم ، يرجون من وراء ذلك ذيوع الصيت ، وانتشار الكتاب، وجزيل العطاء عليه ، والهبة من أجله . فلا على صاحبنا اذا هو

أسرف فى مدح ابى الحسن على حتى ليتصاغر أمامه حين يقول :
« ولم أرسم كتابى باسم السيد ـ زاده الله تعالى سموا ـ لأكون كجالب التمر الى هجر ، ومهدى الوشى الى عدن ، لكن تزينا باسمه الشريف ، وذكره الطيب واستسلاما بين يدى علمه الطائل وأدبه الكامل :

ان قصرت عن غرض رمية   أو زل فكر أو نبا خاطر
لأننى فيه على نية   يخبر عن باطنها الظاهر »

الى أن يقول : وقد نفضت جراب صدرى ، وانتقدت كنز معرفتى ، وأيقنت أن صورة الانسان فضلة عن القلب واللسان ، وان استحقاقه للفضل انما هو من جهة النطق والعقل ، فمثلت له نفسى وأهديتها اليه ، ومثلت بها حقيقة بين يديه اذ كانت الأنفاس منوطة بالأنفس والمرء لولاهما موات ملقى لا خير فيه ولا نفع عنده ... ثم انى لا أظهر حرفا من كتابى هذا الا عن أمره وبعد اذنه لأكون به أقوى ثقة وله أشد مقة فان وقع منه بموقع ، وحل من قبوله فى موضع بلغت الارادات ، ورجوت الزيادات :

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه
وأول الغيث قطر ثم ينسكب

والا سترته ستر العورة ، وطرحته طرح القلامة ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . »

واذا كان أبو على هذا قد مات سنة ٤٢٥ هـ . فان العمدة يكون قد ألف قبل ذلك التاريخ ، ويكون ابن رشيق قد كتبه بيقين وهو دون الأربعين.

وأما متى بدأ كتابته فيمكن أن نقول انه بدأها بعد سنة ٤١٢ هـ لأنه يذكر عند الحديث عن موت دعبل الخزاعى بزويلة بنى الخطاب قبر ابن شيخه أبى عبد الله محمد بن جعفر النحوى — ويقول : « رحمه الله » فاذا قلنا ان الدعاء بالرحمة انما هو لشيخه ، وانه كان قد مات فى أثناء كتابة قصة دعبل وخبره ،وهو مات سنة ٤١٢ هـ . اذا ذهبنا الى هذا فانه يمكن ان نقول بأن العمدة الف فى الفترة ما بين ٤١٢ هـ — ٤٢٥ هـ . وقد قال صاحب البساط انه ألف قبل سنة ٤٢٠ وهذا قريب مما تذهب اليه على أن من أغرب ما رأيت أن يتصور الميمنى أن يكون الكتاب ألف بعد سنة ٤٤٩ هـ . وهو فى ذلك يعتمد على قصة ابيات جاءت فى الكتاب وهى قوله :

وذيال له رجل طحون ... لما نزلت به ويد زجوج
يطير بأربع لاعيب فيها ... لظهران الصفا منها عجيج
خرجت به الى الاوهام سبقا ... وقل له عن الوهم الخروج
الى الملك المعز ابى تميم ... أمر بمن سواه فلا أعيج

فانه يقول « صنعتها بديهة بالمهدية ساعة وصولى اليه » فيرى الميمنى أن ابن رشيق انما ذهب الى المهدية بعد خراب القيروان سنة ٤٤٩ « وهى سنة انجلاء المعز الى المهدية » ولكنا

تناقشه فنقول : من الذى قال ان المعز لم يذهب الى المهدية الا بعد خراب القيروان ، ولم لا يكون زارها فى أثناء ازدهار الملك ــ وهى احدى المدائن الكبرى الداخلة فى ملكه والتى ولى عليها ابنة تميما ــ ثم ألم يذكر صاحب بساط العقيق أنه كان هناك يوم مات أبوه سنة ٤٠٦ هـ فى صحبة جدته . (١)

على ان القصة ترد برواية أخرى فى النسخة الخطية ــ أقدم نسخ الكتاب ــ تقول هذه الرواية :

« ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهدية قبل وصولى اليه ــ يريد المعز ــ ادام الله عزه عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا» فهى صريحة فى ان الشعر قيل قبل ان يصلى ابن رشيق حبله بحبل المعز ــ وأن ذلك كان عن اقتراح أحد شعراء الوقت ــ ولو كان ابن رشيق قال الابيات بعد سنة ٤٤٩ لما كان بحاجة الى أن ينتظر اقتراح غيره عليه ليقول ــ وانما يكون الاقتراح قبل أن يتصل به فيجرئه المقترح على ان يقول ــ وبذلك يسلم لنا الرأى فى زمن التأليف ولا يكون ألف بحال بعد ٤٤٩ .

على أنه كيف نستسيغ ان يعيش ابن رشيق اكثر عمره ٦٠ عاما لا يؤلف شيئا حتى اذا اضطربت أمور الدولة ، ووقعت فتن القيروان،ونزح الى المهدية راح يؤلف مثل هذا الكتاب؟وصاحب هذه الدعوى يقول عنه « ولكن لما انتقل المعز من سيل اعراب مصر الى المهدية ، وتبعه صاحبنا طار فكره ، وفال رأيه فكان

(١) بساط العقيق ص ٤٢ .

يمتعض من أدنى فلته ، ويجبه على أحقر بادرة ، ويسىء الظن بصديقه الوفي ، وصاحبه الحفى ، فارتحل الى صقلية وهو كاره مع أنها لم تكن أحسن حالا من أفريقية » (١) .

ان رجلا هذه حاله ، وتلك نفسيته لا يمكن أن يكون ألف مثل العمدة فى ذلك الحين وانما الاقرب فى منطق العقل أن يكون الفه قبلا والدنيا مقبلة والزمان موات . والميمنى نفسه يذكر عنه وعما كان عليه حاله بعد سنة ٤٤٩ : « ان هذا العهد كان عهد هرمه وهمومه ، وانه لم يعمل فيه عملا يصلح للذكر أصلا أوعلى ما بلغنا » (٢) ولا يقولن قائل انه يتحدث عنه وهو فى صقلية لأنا نقول انه ذهب اليها عقب رحيله الى المهدية من القيروان ، ولم يكن هو فى المهدية خيرا منه فى صقلية .

عناية الناس بالكتاب :

واذا كنا قد وجدنا فى الكتاب ما رفع من قيمته الفنية والأدبية من حديث النقد والبلاغة فقد وجد فيه الناس والعلماء قبلنا مثل ذلك . فقرأه وأعجب به واختصره أبو عمر عثمان بن على ابن عمر الصقلى الذى لقى ابن رشيق وحادثه فى قضية السرقات وقد نقل فى مختصره أبيات ابن رشيق التى يقول فيها :

دمع رأى برق الحمى فتحدرا
وجوى ذكرت له الحمى فتسعرا

---

(١) ابن رشيق ص ٥٠ . (٢) ابن رشيق ص ٦٠ .

لو لم يكن هجر لما عذب الهوى
أنا اشتهى من هاجرى ان يهجرا
بينى وبين الحب نسبة عنصر
فمتى وصلت وصلت ذاك العنصرا

ورآه أيضا واختصره ونبه على أغلاطه الأعلم الشنتمرى المتوفى سنة ٥٤٩ هـ . وسمى مختصره العمدة والتنبيه على أغلاطه .

وكذلك اختصره موفق الدين البغدادى ، واخيرا كان القفطى على نية أن يصنع كتابا عن مؤلفات ابن رشيق ، ولا نشك فى أن العمدة كان يكون فى طليعة ما يتحدث عنه لو أنه صنع ذلك الكتاب .

وأما عناية المحدثين فتتجلى فى أنه لا يكاد كاتب يكتب فى النقد والبلاغة الا وهو يرجع الى العمدة يستفيد منه مستشهدا أو ناقلا أو ناقدا وحسبنا هذا دليلا على اكبارهم للكتاب ووضعه فى موضع الاعتبار .

نسخ الكتاب :

لما كان الرجل مغربى النشأة ، مغربى الحياة ، والكتاب على ما تقدم ألف فى القيروان ، فقد حاولت التعرف على ما عسى أن يكون فى مكتبات تونس والمغرب من أصول له او نسخ ،ورجعت فى ذلك الى فهارس مكتبات هذه الجهة فلم أجد فيها

ما يشفى الغلة ؛ فرجعت الى مكتبات مصر وفهارسها فاذا له أكثر من مخطوطة بين قديم يرجع به العهد الى أكثر من بضعة قرون وحديث كتب فى القرنين الأخيرين وعلى وجه التحديد سنة ١٢٩٨ هـ .

وأقف من ذلك جميعه عند نسخة هى أقدم النسخ ويرجع تاريخ نسخها الى سنة ٦٧٩ هـ ، وقد سجلت فى الفهارس على هيئة توحى بأن الجزء الأول منها كتب فى زمان ، والجزء الثانى كتب فى زمان آخر ، لكنى رجحت أنهما كتبا بخط واحد وفى وقت واحد وبيد واحدة لأسباب منها تشابه الخط فى النسختين ، ووحدة العنوان فى الجزءين وحدة تشهد حتى فى شكل الخط بأن الكاتب واحد . فعلى الجزء الأول نجد العنوان هكذا : « الجزء الأول من العمدة فى محاسن الشعر ، تأليف أبى على حسن بن رشيق الازدى الشاعر » وعلى الجزء الثانى مثل ذلك . وعليه عبارة كتبه لنفسه الفقير الى رحمة ربه الراجى عفوه وغفرانه ثم كشط يأتى بعده : وفقه الله لمرضاته ، وتغمده برحمته ، وغفر له ولوالديه وللمسلمين ، وصلى على محمد وحسبنا الله ونعم الوكيل

وفى نهاية الجزء الثانى أيضا نجد عبارة هذا نصها : كمل كتاب العمدة فى محاسن الشعر وآدابه لأبى على بن رشيق الازدى والحمد لله منتصف النهار من يوم الأربعاء لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة آخر شهور سنة تسعة ـ كذا ـ وسبعين وستمائة

ـ كاتبه يستغفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين انه غفور رحيم » .

وهكذا ، لتشابه الخط فى جملتـه وفى دقائقـه ، ولوحدة العنوان فى القطعتين ، ثم لوحدة عبارة الناسـخ عليهمـا ودعائه لنفسه بصيغة واحدة فيهما ، رجحت أن القطعتين تؤلفان نسخة الكتاب فى أقدم ما وصلنا .

هذا وفى النسخة اضطراب يمكن أن نرى منـه . فى وضع الورقة التاسعة من الجزء الأول فى غير موضعها وحقها أن تتأخر الى باب « المبدأ والخروج » حيث أن مادتها تتصل بذلك الباب.

ونرى منه فى اختلال ترتيب الأبواب الواردة فى الورقات من ٣٢ حتى ٣٦ ، كما نرى بها نقصا نلمسه فى عدم وجود الأبواب الآتية بها ، وهى :

١ ـ باب من رفعه الشعر ومن وضعه .
٢ ـ جزء من باب تعرض الشعراء.
٣ ـ باب التكسب بالشعر والأنفة منه .
٤ ـ باب تنقل الشعر فى القبائل .
٥ ـ باب الاستعارة .
٦ ـ باب التمثيل .
٧ ـ باب المثل .
٨ ـ التشبيه .

٩ ــ باب الاشارة .

مع وجودها فى بقية النسخ الأخرى .

وأما الجزء الثانى فكامل غير مضطرب ولا منقوص .

وتتبين هذا كله من مقارنة المخطوطات الأخرى المتأخرة بهذه المخطوطة .

وقد وردت للقفطى عبارة يقول فيها : « ومن تصانيفه ابن رشيق كتاب العمدة فى صناعة الشعر ــ أربع مجلدات » وتفسير أنه أربع مجلدات فى حين أن ما بأيديهم مجلدان فقط ، نجده فى المخطوطة القديمة ــ فانه بعد باب «القدماء والمحدثين» يقول : تم الجزء الأول من العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ــ ثم يقول ــ بسم الله الرحمن الرحيم ــ باب تنقل الشعر فى القبائل وهذا يدل على أن الرجل كان قد جعل الكتاب أربعة أجزاء لا جزئين كما هو فى صورته الحاضرة والمتناقلة اخيرا ــ وان القفطى رآه فى صورته الأولى التى كان عليها فى أربعة أجزاء ــ فقال ماقال من أنه اربعة مجلدات وقدمت أنه ربما كان هذا هو سبب التخليط فى نسبته الى التاريخ . وقد طبع الكتاب فى مجلدين طبع فى تونس ، وفى مصر بمطبعة السعادة ، واخيرا فى التجارية .
وفى طبعة السعادة نلحظ اخطاء كثيرة ، فمن ذلك ما نراه فى باب حد الشعر اذ تقول هذه النسخة « باب حد الشعر : البنية من أربعة أشياء وهى اللفظ والمعنى والوزن والقافية لأن من الكلام

موزونا مقفى وليس بشعر لعدم الصنعة » والصواب (يقوم الشعر بعد النية من أربعة أشياء ، هى اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، لأن من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر لعدم القصد) .

والغريب أن بعض المتأخرين ممن اعتمدوا فى تعريف الشعر على ما قاله ابن رشيق أخذوا هذا التعريف عن هذه النسخة بخطئه وزيفه وراحوا يناقشونه من غير أن يفطنوا الى ما فيه من تصحيف ، فقد صحفت كلمته النية فصارت : البنيه ، وصحفت كلمة القصد فصارت : الصنعة . وجل من لا يسهو .

وفى هذه النسخة أيضا خطأ حول بيتى امرىء القيس اللذين يقول فيهما :

كأنى لم أركب جوادا للذة
ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروى ولم أقل
لخيلى كرى كرة بعد اجفال

فقد قالوا أنشد البيتان فى حضرة سيف الدولة ، وشهد المجلس رجل بغدادى يعرف بالمنتخب وكان لا يسلم منه أحد من القدماء والمحدثين ، ولا يذكر شعر بحضرته الا عابه وظهر على صاحبه بالحجة الواضحة فانشد يوما هذين البيتين فقال : خالف بينهما امرؤ القيس ولو قال :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل
لخيلى كرى كرة بعد اجفال

ولم أسبأ الزق الروى للـذة
ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

لكان قد جمع بين الشيء وشكله بذكر الجواد والكر فى بيت ، وذكر الخمر والنساء فى بيت ـ قالوا فالتبس الأمر بين يدى سيف الدولة وسلموا للمنتخب ما قال ؛ فقال رجل ممن حضر : ولا كرامة لهذا الرأى ، الله أصدق منك حيث يقول : « ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » فأتى بالجوع مع العرى ولم يأت به مع الظمأ فسر سيف الدولة وأجازه بصلة حسنة (١) .

ذلك هو الوجه فى القصة ولكنها ترد فى طبعة السعادة مختلة مبتورة بترا يفقدها كل معنى ، ويقطع صلتها بأصلها الصحيح (٢)

موضوع الكتاب :

تضمن الكتاب طائفة من الأبواب معظمها فى نقد الشعر وصناعته وتاريخه وما يتصل به من مباحث الوزن والقافية ــ والصور الفنية التى تتصل بفن القول عموما وفن الشعر بخاصة.

ولكن ابن رشيق ــ على جارى عادة المؤلفين قبله والى عصره يضم الى ذلك الموضوع الأصيل فى كتابه العمدة موضوعات أخرى لا تجمعها والشعر ودراساته جامعة لا من قريب ولا من

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٢٩ .
(٢) انظر القصة فى باب النظم بنسخة مطبعة السعادة .

بعيد الا بتكلف كان يتحدث فى باب عن أصول النسب وبيوتات العرب ، وفى باب آخر عما يتعلق بالأنساب ، وفى باب ثالث يذكر وقائع العرب وأيامها ، وفى باب رابع يتناول ملوك العـرب ، وفى باب خامس يذكر العتاق من الخيل ، وفى باب سادس يحدثنا عن حكم البسملة قبل الشعر ، وفى سابع يذكر الجوائز والصلات ، وفى ثامن يعرض لأحكام القوافى والخط ..

ولولا أنه جعل عنوان الكتاب العمدة فى محاسن الشعر لما وقفنا منه عند ذكر أبواب لاتمت الى الشعر بصلة فان هذه كما أسلفت كانت عادة العصر والتأليف من حيث الشمول وعدم التخصص .

ب ـ كتاب قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب :

وهو أيضا كاسمه موضوعه النقد الذى جلى فيه ابن رشيق ـ فلزم أن نقف منه هو الآخر وقفة تعرف به ، وهو قد ألفه بعد العمدة بيقين ، وقد أشار لذلك حين قال فى العمدة : « على أن المحدثين شاركوا القدماء فى كل ما ذكرته أيضا .. كما خالطوهم فى صفات النجوم ، وكثير مما لا يتسع له الباب ولكنى أفرد له كتابا قائما بنفسه أذكر فيه ما انفرد به المحدثون ، وما شاركهم فيه المتقدمون (١) وذلك الذى يشير اليه هو موضوع قراضة الذهب

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٢٩ .

الموجود بأيدينا فانه يتحدث فيه عن ابتداعات الشعراء ، واخذ المتأخرين منهم عن المتقدمين مع الزيادة والفوق أو العجز والتقصير. كما يتحدث ابن رشيق فى العمدة أيضا عن ابن الرومى وأنه أكثر الشعراء اختراعا ، ثم يقول وسيأتى برهان ذلك فى الكتاب الذى شرطت تأليفه ان شاء الله سبحانه (٢) » ويستأثر ابن الرومى فعلا فى القراضة بنصيب كبير يصدق ما وعد به الرجل فى العمدة ، فيقوم ذلك دليلا آخر على ان القراضة كتب آخرا .

واصرح من ذلك قوله فى القراضة بعد سياقة أبيات أخذفيها بعض الشعراء عن بعض : « وفى كتاب العمدة من ذلك جملة كافية » (٣) ومرة أخرى يقول : « والحذق فى الأخذ على ضروب أنا ذاكر منها ما أمكن وتيسر اذ ليست هذه الرسالة موضع استقصاء لاسيما وقد فرغت فى كتاب العمدة مما يراد أوأكثر»(٤)

واذا كنا رجحنا قبلا أن كتاب العمدة قد ألف قبل سنة ٤٢٥ فانا بيقين نقطع بأن رسالة قراضة الذهب كتبت بعد سنة ٤٢٧ وذلك لأنه يقول فيها : « وكنت أنا صنعت منذ سنين عدة ، وقد خرجنا للاستسقاء فرجعنا وقد انتشر الجراد حتى كاد يحول بيننا وبين الشمس ، وشق ذلك على الذى خرج للاستسقاء وكان شيخا

---

(٢) العمدة جـ ٢ ص ٢٣٢ .

(٣) قراضة الذهب ص ٢٠ .

(٤) قراضة الذهب ٢٦ .

صالحا مات سنة سبع وعشرين ـ بعد القصة بمـدة طويلة ـ صنعت ..

بينما نرتجى سـحابة مزن   غشيتنا سـحابة من جـراد
ليس من قلة ولا بخـل رب   انمـا ذاك من ذنوب العبـاد

فان القصة صريحة فى الدلالة على أن الرسالة ألفت بعد دلك التاريخ الذى مات فيه هدا الشيخ سنة ٤٢٧ .

هدا وقد طبعت الرسالة فى مطبعة النهضة سنة ١٣٤٤ هـ .. ومنها مصورة فى دار الكتب المصريه تحت رقم ٤٨٣١ ادب ى سبع واربعين لوحة .

-٢-
قضية اللفظ والمعنى

عرض ابن رشيق لقضية اللفظ والمعنى ــ وقبل أن نعرض لرأيه أرى لكى تستبين جهود صاحبنا أن أمهد لذلك بكلمة عن القضية فمن عهد ارسطو واللفظ والمعنى يشغلان بال النقاد ، ويجرانهم الى خلافات حول أهمية كل منهما فى مجال فن التعبير بالـكلمة كعنصر من عناصره .

أما ارسطو فيذهب ــ فيما يرى بعض النقاد الى أن الأهمية فى التعبير الفنى ترجع الى اللفظ ، ويعتمدون فى ذلك على أنـه يقول : « اذا أخطأ الشاعر فى قوة التعبير فخطـأه فنى ، اما اذا اخطأ لجهله بمسألة طبيعية او فنية فلا لوم عليه لأن المطلوب منه هو التعبير الفنى لا التدقيق العلمى » (١) .

وواضح أن مفهوم اللفظ فى مقابل المعنى فى هذا المجال انما هو التأليف ونظم الكلمات فى جمل والجمل فى موضوع ــ وليس اللفظ هو الكلمة المفردة على مايتوهم فريق من النقاد .

والذى أراه فى ارسطو انه متردد بين أن يجعل اللفظ أو المعنى القيمة الكبرى فى الأثر الفنى ، اذ بينا ننقل عنه العبارة السالفة ، نراهم ينسبون اليه قوله :

(١) النقد الجمالى ص ١٨ .

ولو برع المرء فى تأليف أقوال تكشف عن الأخلاق ، وتمتاز بفخامة العبارة وجلال الفكرة لما بلغ المراد من المأساة ، انما يبلغه حقا بمأساة أضعف عبارة ، وفكرة لكنها ذات خرافة وتركيب أفعال، أضف الى ذلك ان مصدر اللذة الحقيقى لنفس المشاهد للمأساة انما هو فى أجزاء الخرافة أعنى التحولات والتصرفات (١) وظاهر النص أن براعة الشاعر أو الكاتب ، وتميزه بفخامة العبارة وجلال الفكرة لايبلغان بأحدهما المراد ، وانما يبلغهما ذلك أن تكون القطعة الفنية ذات تركيب وخرافة ــ وكأن المضمون عنده هو الذى ينبغى قصده وتحقيقه ــ وربما ايد ذلك انه يقول بعد عبارته المتقدمة : « وشبيه بهذا مايقع فى الرسم ، فلو أن رساما أفاض فى التلوين بأجمل الألوان ، ولكن بغير خطة مرسومة لجاء عمله ادنى منزلة وجمالا من رسام يرسم صورة تخطيطية » (٢) .

فواضح من هذا المثل الذى يضربه أرسطو أن الفكرة أكثر أثرا فى تحقق الفنية من مجرد الألفاظ التى تقعقع من غير أن يكون تحتها طائل . وربما كان قصده من ذلك هو قصد الذى قال حين سمع أبيات ابن هانىء :

أصاخت فقالت وقع أجرد شيظم
وشامت فقالت لمع أبيض مخذم

---

(١) فن الشعر .
(٢) فن الشعر .

وما ذعرت الا لجـــرس حليهـــا
ولا رمقت الا برى من مخـــــدم

فقال اسمع جعجعة ولا أرى طحنا .

ولكن يعكر علينا صفو القول المحدد فى مذهب ارســطو ، وتقرير أى جانبى القضية اكثر أهمية عنده انه يقول فى تفســير الفكرة مايشبه أن يكون تفسيرا للفظ أو العبارة وذلك حين يقول:
« ... واعنى بالفكرة القدرة على ايجاد اللغة التى يقتضــيها الموقف وتتلاءم واياه ، وهذا فى البــلاغة من شأن الســياسة والخطابة » (١)

ولست أدرى أذلك اللبس والغموض فى وجهة نظر أرســطو مرجعه اضطراب ارسطو ذاته ، أم مرجعه الترجمات التى ترجمته الى مختلف اللغات اذ كيف تكون الفكرة هى القدرة على ايجاد اللغة التى يقتضيها الموقف (٢) وذلك أشبه باللفظ منــه بالمعنى ، اللهم الا أن يريد أن تركيب الجملة معنــاه تركيب عنــاصرها مجموعة من المعانى التى تلبس الألفاظ .

وأيا ما كان الرأى فى وجهة نظر أرسطو فان النقاد من بعده ، وفى سائر الآداب واللغات ــ ومن بينهم نقاد العرب ــ طالماعرضوا لهذه المسألة وانقسموا حولها .

---

(١) فن الشعر ــ بدوى ص ٢١ .
(٢) العمدة جـ ١ ص ١٠٢ .

فاذا ما بلغنا الى ابن رشيق رأينا بعض النقاد يقول فيمايحدث به عن القضية « ان الجاحظ من أنصار اللفظ وان ابن رشيق مثله يؤثر اللفظ أيضا » . غير أن التحقيق الذى انتهت بى اليه دراساتى حول الرجل هو أن ابن رشيق أقرب الى القول باهمية الفكرة والمعنى منه الى القول باهمية العبارة واللفظ ويصدر كلامه فى ذلك بقوله « اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسد » ونحن نعلم منزلة الروح من الجسد .

ويحكى ابن رشيق آراء الناس فى ذلك قبله فيقول ان« منهم من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده ، ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالى حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته » ثم يشبه البيت من الشعر بالبيت من الشعر وأنه « قراره الطبع وسمكه الرواية ، ودعائمه العلم — الى ان يقول : وساكنه المعنى ولا خير فى بيت غير مسكون » (1) فهاتان تنضحان دلالة على أن ابن رشيق يكبر المعنى عن اللفظ ويرجح ذلك انه يروى بيتى ابن هانىء المتقدمين ثم يقول : « وليس تحت هذا كله الا الفساد وخلاف المراد ، ما الذى يفيدنا ان تكون هذه المنسوب بها لبست حليها فتوهمته بعد الاصاحة والرمق وقع فرس أو لع سيف غير أنها معززة فى دارها ، أو جاهلة بما حملته من زينتها .. »

---

(1) العمدة ج 1 ص 104 .

على أنه اذا صح أن شيوع مذهب فى قضية ببلد ، يمكن أن يدل على أن أهل البلد يعتنقونه فانا نقول ان مذهب المعنى كان أكثر شيوعا فى بيئة المغرب فهذا ابن شرف القيرواني — وكان معاصرا لابن رشيق ، ومرافقا له فى قصر المعز يقول فى أفضلية المعنى على اللفظ « وان من الشعر ما يملأ لفظه المسامع ، ويرد على السامع منه قعاقع ، فلا ترعك شماخة معناه ، وانظر الى مافى سكناه من معناه ، فان كان فى البيت ساكن فتلك المحاسن ، وان كان خاليا فاعدده جسما باليا ، وكذلك اذا سمعت الفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما فى أضعافها ، فكم من معنى عجيب فى لفظ غريب والمعانى هى الأرواح والألفاظ هى الأشباح » (١) .

ولا أسرف على الحقيقة اذا أنا قلت ان هذه العبارة هى عبارة ابن رشيق التى اسلفنا وان تفاوتت العبارتان باللفظ دون المعنى ، بل لا أشك فى أن أحدهما أخذ عن صاحبه فيكون المذهب عند ابن رشيق ايثار المعنى بالعناية والاهتمام .

على انا لا نفسر ابن رشيق بابن شرف ، وانما نفسره بنفسه وبما يقول فى كتابه العمدة — يقول الرجل : حكى عبد الكريم عن العباس بن حسن العلوى فى صفة بليغ قوله : معانيه قوالب لألفاظه .. وهو الذى يقتضيه شرط كلامه ثم خالف فى موضع آخر فقال : ألفاظه قوالب معانيه ، وقوافيه معدة لمبانيه .. ويعقب

(١) رسالة اعلام الكلام ص ٢٧ .

على هذه الرواية فيقول : والسجع يشهد بهذه الرواية الأخرى، وهى التى اعرف ، والقالب يكون وعاء كالذى تفرغ فيه الأوابى، ويعمل به اللبن والآجر . وقد يكون قدرا للوعاء كالذى يقام به اللوالك وتصلح عليه الأخفاف ، ويكون مثالا كالذى تحذى عليه النعال وتفصل عليه القلانس..فلهذا احتمل القالب أن يكون لفظا مرة ، وأن يكون وعاء مرة .

واذا كان هذا هو تفسيره لمداول كلمة القالب فى هذا الموضع وأنه يمكن أن يراد منها اللفظ ويمكن أن يراد منها المعنى ، فانه هو نفسه يكبر المعنى ويقدمه على اللفظ .

واذا كان يحكى الرأيين فى باب اللفظ والمعنى فانا نراه فى غيره من الأبواب يميل الى المعنى . نجد ذلك فى حديثه عن البحترى اذ يقول عنه « ورأيت البحترى اذا مدح الخليقة كيف يتعمل للأبيات ويبرز وجوه المعانى (١)». ويقول : « ومما يؤيد كلام ابن قتيبه ـ فى تفضيل المعنى ـ كلام على رضى الله عنه اذ يقول : لولا أن الكلام يعاد لنفد ، فليس أحدنا أحق بالكلام من أحد ، وانما السبق والشرف معا فى المعنى على شرائط نأتى بها فيما بعد من الكتاب ان شاء الله (٢)

وكذلك نجد له حين يتحدث عن صنعة الكلام والتهدى فيها الى التوليد على ألا يكون رقيقا سفسافا ولا باردا غثا . وليس التوليد فيما أرى الا صفة من صفات المعانى .

(١) العمده جـ ١ ص ١٢٢ ه

(٢) العمده جـ ١ ص ٧٤

ثم هو اذا تحدث عن امرىء القيس وتقدمه على سائر الشعراء فانه يرد ذلك الى ابتكاراته فى المعانى فيقول : وانما تقدمهم لأنه خسف لهم عين الشعر فافتر عن معان عور أصح بصرا ، ثم يقرر بعد أنه لم يتقدمهم لأنه قال مالم يقولوا ، ولكن لأنه سبق الى أشياء استحسنها الشعراء واتبعوه فيها وقد قيل : أول من لطف المعانى واستوقف على الطلول ، ووصف النساء بالمها وبالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وجميع ذلك فيما نرى يرجع الى المعنى ولا شىء منه يرجع الى اللفظ والعبارة.

وابن رشيق حين يعجبه شاعر فانما يعجبه منه معنى جديد يكون قد وقع له ، أو تهدت اليه قريحته ، فنراه يحكى قصة الحسين بن الضحاك مع ابى نواس،وكيف اعجبه فى شعر الحسين معنى فاستلبه جهارا — يقول ابن رشيق : قال الحسين أنشدت أبا نواس قولى :

وشاطرى اللسان مختلق التكريه
شاب المجون بالنسك

الى أن بلغت الى قولى :

كأنما نصب كأسه قمر
يكرع فى بعض أنجم الفلك

فنفر نفرة منكرة ، فقلت مالك قد أفزعتنى ؟ فقال هذا معنى مليح ، أنا أحق به منك وسترى لمن يروى ، ثم أنشدنى بعد أيام

اذا عب فيها شارب القوم خلته
يقبل فى داج من الليل كوكبا

فقلت هذه مصالته يا أبا على ، فقال : أتظن انه يروى لك معنى مليح وأنا فى الحياة » (١)

وهكذا انما يتنازع الشعراء على المعانى والفكر ، حتى ما يتحرج شاعر كأبى نواس من أن يغتصب الحسين لضحاك بيته عنوة واقتدارا ، ثم يجعله فى جملة شعره لا لشىء الا لأنه تضمن معنى كريما .

وهكذا أيضا يرجع ابن رشيق الميزة فى الأثر الفنى الى المعنى على ألا ينال ذلك من منزلة الألفاظ ، فانه حين يفاضل بين القدماء والمحدثين ويفضل شعراء الاسلام على شعراء الجاهليه، يرد ذلك الفضل الى المعانى حيث يقول « واذا تأملت هذا تبينت مافى أشعار طبقة جرير والفرزق وأصحابها من التوليدات والابداعات العجيبة التى لا يقع مثلها للقدماء الا فى الندرة القليلة والفلتة النادرة » (٢) .

ويقول : ثم اتى بشار بن برد وأصحابه فزادوا معانى مامرت بخاطر جاهلى ولا مخضرم ولا اسلامى . والمعانى تتردد وتتولد، والكلام يفتح بعضه بعضا .

ويعجبه قول يزيد بن الطثرية حين حلق أخوه ثور جمته :

(١) العمدة ج ٢ ص ١٧٢ .
(٢) العمدة ج ٢ ص ٢٢٦ .

فاصبح رأسي كالصخيرة أشرفت	عليهـا عقاب ثم طارت عقابها

وقول بشـــار :

ياقوم اذني لبعض الحي عاشقة	والاذن تعشق قبل العين احيانا
قالوا بمن لاترى ، فقلت لهم	الأذن كالعين توفى القلب ماكانا

فهل اعجبه غير ابداع التصوير فى بيت يزيد ؟ وحسن التصور والتعليل فى بيتى بشار ، وهل مرد التصوير والتصور الا الى المعانى التى هى قدرة على التخيل والتركيب والضم والتشتيت ، وجميع ما يكون من عمل القريحة فى تشكيل الصورة !.

ويعجب ابن رشيق بابن الرومى فما الذى يعجبه فيه ؟ انمـا يعجبه منه حسن تصويره ، وتأتيه لما لايتأتى له غيره من الشعراء ويصرح بذلك فيقول :

وكان ابن الرومى ضنينا بالمعانى حريصـا عليها يأخذ المعنى الواحد ويولده فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ويصرفه فى كل وجـه والى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم الامطح لأحد فيه بعده (1) .

ويذكر من ذلك قوله :

عينى لعينك حين تنظر مقتـل	لكن لحظك سهم حتف مرسل
ومن العجائب ان معنى واحدا	هو منك سهم وهو منى مقتل

ثم يذكر لابى نواس قوله :

لست ادرى اطـال ليلى أم لا	كيف يدرى بذاك من ينقـلى

(1) العمدة جـ ٢ ص ٢٢٦ .

لو تفرغت لاستطالة ليـــلى ولرعى النجم كنت مخـــلا

ولابن الرومى ايضا قوله ولم يسمع أحسن منه :

وما يعتـــريها آفة بشريـــة من النوم الا انها تتبختـــر
وغير عجيب طيب انفاس روضة منورة باتت تـــراح وتمطـــر
كذلك انفاس الرياض بسحرة تطيب وأنفاس الورى تتغـــير

وبعد فمع أن الكتاب معقود لترجمة ابن رشيق أجدنى مدفوعا الى أن أدخل فى قضية اللفظ والمعنى برأى فأقول : ان جانب المعنى أحق بالرعاية من جانب اللفظ ، والآثار الفنية ترتفع بمقدار مايتهيأ لها من غرابة الفكرة وطرافة المعنى ، وفى مجال اللغة يتـــرك الفنان لفظا الى غيره لأن هذا يؤدى معنى لايؤديه المتروك ،وليس صحيحا مايقوله بعضهم من أن المعنى يتعاوره اكثر من شاعر ، اذ الحقيقة انه اذا اختلفت العبارة بتقديم او تأخير ، او بنقص اوبزيادة اختلف المعنى وان دق الاختلاف وعمى على كثيرين ــ ولو أنا نظرنا فى قوله تعالى «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه » ثم عدلنا عن كلمة الظمآن الى كلمة الانسان مثلا ــ وهى شبيهتها فى الجرس والنغم ــ لبدا لأول النظر الا فرق بين الاستعمالين من حيث النسج والصورة والنغم ، ولكن فى الحقيقة يختلف المضمون وتذهب تلك اللمحة التى تحملها لفظة «الظمآن» من الاشارة الى شدة الحاجه واللهفة على الماء ، وما يتبع ذلك من أثر اخلاف الظن

عندما يتوقع الظمآن فى السراب ماء ويسعى نحوه مجهودا ،حتى اذا ما اقترب منه تكشفت له الحقيقة عن سراب وحسرة . وهكذا فى كل تغاير بين تعبيرين نلمس فروقا وان بدا لنا أن هناك معنى واحدا . لكن حفلنا بالمعانى يجب ألا ينسينا قيمة اللفظ والعبارة فالبلاغة كما يقول الاستاذ احمد الشايب ، تقوم على حسن التعبير كما ترتكز على قيمة التفكير .

٣ - الشعر وماهيته

الشعر فن كغيره من سائر الفنون يصدر عن موهبة ويعتمد على الحس المرهف وعلى الذوق اكثر مما يعتمد على العقل والمنطق لذلك لم يكن من اليسير تحديده او فى الاقل الاتفاق على تحديده .

وما الاختلاف بين النقاد فى سائر اللغات حول حقيقة الشعر ومفهومه الا مظهر من مظاهر هذه القضية ، غير ان ذلك لم يمنع المشتغلين بالدراسات النقدية من أن يقوموا بمحاولات فى هذا الصدد .

وفى اللغة العربية نجد كثيرين عرفوا الشعر وحددوا أركانه وعندى انهم فى جميع مايذكرون او فى أكثره على الأقل ، انما يعرفونه بمظاهره الخارجية المتبدية فى شكله وصورته اكثر مما يعرفونه بحقيقته وجوهره .

فالجاحظ مثلا يقول هو صناعة وضرب من الصبغ والتصوير وابن قتيبة يقول : انه الكلام الموزون الحسن اللفظ ، اللطيف المعنى ،ويروى بيتى المرقش :

هل بالديار ان تجيب صمم   لو ان حيا ناطقا كلم

بأبى الشباب الاقــوزين ولا   تغبطن أخــاك أن يقال حكَم

ثم يقول : والعجب عندى من الاصمعى حين أدخله فى متخيره وهو شعر ليس بصحيح الوزن ، ولا حســن اللفظ ولا لطيف المعنى .. فترى كيف لم يعجبه ادخال البيتين فى الشعر المتخــير لأنه لم يتحقق فيهما حسن اللفظ ، ولا صحة الوزن ، ولا لطف المعنى . وكأن هذه هى صفات الشعر الجيد .

وأما أبو العلاء المعرى فيقول على لسان ابن القارح لما سأله رضوان : ما الاشعار .. الاشعار جمع شعر ، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرط ان زاد أو نقص ابانه الحس . فتراه وقد رده الى الوزن ــ ورد الوزن الى الحس والذوق .

ثم كان الآمدى صاحب الموازنة بين الطائيين ، والجــرجانى صاحب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، فعرفا الشعر ولــكن عن طريق مدارسة الاشعار وبيان جيدها من رديئها وصــحيحها من سقيمها ، وكأنما أحسا ان خير مايصنع بالفنــون فى التعرف على كنهها وحقيقتها انما هو استعراضها ، والنظر فيها ، وليس وضــع الحدود او التعاريف لها .

واتى بعد ذلك قدامة بن جعفر ، وكان المنطق اليونانى قد انتقل وشاع فى الأوساط العلمية ، وظهرت آثاره ومظاهره فى الثقافة العربية ، ولم ينج منه الشعر ، فاذا قدامة يطبقه عليه فيضع لــه تعريفا بالجنس والفصل والعرض .

ويأتى بعد هذا كله ابن رشيق ، ويؤلف العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ، فلا يكون له بد من أن يعرف الشعر ، وهو كان قرأ قدامة ، وأعجب بكثير من آرائه ونقل منها ، فلما أراد ان يعرف الشعر نقل تعريفه فى باب جعل عنوانه « باب حد الشعر » وهو عنوان تظهر فيه صيغة المناطقة وعبارتهم واعنى بذلك كلمة الحد ، فهى كلمةليست من الشعر ومفهومه فى شىء . وتحت هذا المعنى :

يقول : يقوم الشعر بعد القصد والنية من أربعة أشياء وهى اللفظ والوزن والمعنى والقافية . لأن من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر لعدم القصد والنية كأشياء اتزنت من القرآن وكلام النبى صلى الله عليه وسلم .

ويلفت النظر فى تعريف ابن رشيق نصه على القصد والنية فى اعتبار الكلام شعرا أو غير شعر واعتباره لهما فصلا يخرج به ما اتزن من القرآن وكلام النبى ، على انه ليس فى هذا بأول ولا آخر فقبله قال الجاحظ مثل ذلك ، وبعده قال الباقلانى : «ثم يقولون ان الشعر انما يطلق متى قصد القاصد اليه على الطريق الذى يتعمدويسلك ولا يصح انيتفق مثلهالا من الشعراء دونمايستوى فيه العامى والجاهل ، والعالم باللسان والشعر وتصرفه ، ومايتفق من كل أحد فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم الشاعر لأنه لو صح ان يسمى كل ما اعترض فى كلامه الفاظ تتزن بوزن

الشعر وتنتظم انتظـــام بعض الاعاريض كان النـــاس كلهم شـــعراء » (١) .

وكما هو واضح فيمن أكد حديث القصد والنية فان ذلـك الشرط انما قال به العرب المسلمون دون غيرهم من نقاد اللغـات الأخرى لأن المسلمين نظروا فرأوا فى القرآن وزنا كقوله تعالى : هيهات هيهات لما توعدون ، فانها تصلح تكملة لمن يقول :

قد قلت لما حاولوا سلوتى

وبذلك يتألف منهما بيت من الشعر الموزون بوزن عربى : ورأوا فيه قوله تعالى : وجفان كالجواب وقدور راســـــيات فالآيتان موزونتا نبوزن من اوزان الرمل .

ورأوا قوله تعالى : ومن يتق الله .. يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ، فانها تشبه أن تكون من المتقارب .

ورأوا النبى صلى الله عليه وسلم يقول : هل انت الا اصبع دميت ، وفى سبيل الله مالقيت ؟ فانها عبارة تشبه الشـــعر فى وزنه .

رأوا ذلك وأمثاله فى القرآن ، وفى كلام العامة ، والخاصة، وشىء منه لم يرد به الشعر ولا تحققت اركان الشعر فيه ، وانمـا جاء موزونا بالعرض فقالوا باشتراط النية والقصد ، ولا ســيما وقد رأو القرآن ينفى عن نفسه أن يكون شـــعرا ، وعن النبى أن يكون شـــاعرا .

---

(١) اعجاز القرآن ص ٨٥ .

والرأى عندى ان ذلك ليس من قضية الشعر فى شىء لأن الوزن ليس هو كل شىء فى الشعر ، ومجىء الكلام موزونا لايدخله فيه ، وماكان لنقادنا ان يخافوا على القرآن ان يدخل فى جملة الشعر ، ولا على النبى صلى الله عليه وسلم ان يدخل فى جملة الشعراء ببضع كلمات وافقت فى وزنها أوزان بعض بحورهم واشعارهم ، ولكنهم ـ عفا الله عنهم ـ جسموا صغيرا ، وجعلوا من الحبة قبة ـ كما يقول المثل ، والذين تحدثوا فى الشعر ثم لم يتعرضوا للقصد والنية عندى أولى بالتقدير والاكبار لثقوب نظرهم ، ودقة بصرهم بالشعر والقرآن .

الالتزام والشعر المرسل :

على انا ونحن نعيش فترة من حياتنا ترتفع فيها أصوات تنادى بالتحلل من الوزن الملتزم والقافية الموحدة ، وترى أن يدخل فى مفهوم الشعر هذا الذى يطلقون عليه اسم « الشعر المرسل » نرى لزاما أن نقول : ان كلمة الشعر كلمة قديمة اطلقت ولها فى أذهان العرب اصحاب اللغة مفهوم ، واصبحت علما منذ أطلقوها على لون خاص يسلكونه فى صياغة الكلام ليميزوا بينه وبين سائر ألوان الصياغة الأخرى ، وذلك اللون هو الكلام الذى تتحقق فيه عناصر فى مقدمتها الوزن والقافية المتحدة والخيال ، وهكذا يكون الوزن على هيئة من هيئات بحورهم ، والقافية الموحدة فى آخر أبيات القصيدة شرطين من شروط اعتبار الكلام شعرا ، ولا نكاد نرى عربيا تعرض لتعريف الشعر وأغفل ذكر هذين ، ولا نكاد نرى

كلمة الشعر وقد استعملت فى غير هذا اللون من الصياغة ، حتى العرب لما قالت فى القرآن الكريم انه شعر لما رأوا فيه فواصل قيل لهم ليس بشعر وانهم عرضوه على أقراء الشعر فلم يوافق شيئا منها .. وعلى ذلك فتسمية هذا اللون الجديد من الصياغة باسم الشعر ، وان وصفوه بالمرسل ، تسمية غير صحيحة واستعمال لكلمة الشعر فى غير ماعرفت به ، وماذا عليهم لو لم يسم صنيعهم هذا شعرا أصلا ، قد يكون لونا جميلا من نظم الكلام ، وله حلاوة وفيه جرس ، ولكن ذلك لايمكن بحال ان يجعل منه شعرا والشعر فى الاصطلاح يشترط تمام الوزن ووحدة القافية .

وأما مايذهب اليه بعضهم من أن الوزن والقافية انما هما من مقاييس العروضيين وانهم هم الذين شرطوهما فى الكلام ليكون شعرا فوهم ، وانما الشعراء القدماء والعرب جميعا ــ وقبل ان يظهر علم العروض بمئات السنين ــ ومنذ كان الحس العربى هو الحكم فى فنية الكلام وفى تبين الشعر منه من النثر ، قالوا بحتمية الوزن المكتمل وبحتمية وحدة القافية .

وهذا هو النابغة الذبيانى يقول :

زعم البوارح ان رحلتنا غدا ... وبذاك تنعاب الغراب الأسود
بمخضب رخص كأن بنانه ... عنم يكاد من اللطافة يعقد

فيقوى ويخالف بين قافيتى البيتين ، اذ تأتى واحدة بالكسر فى آخرها وتأتى الثانية بالضم فيه ، ويسمع العرب ذلك ، فيقع

من آذانهم موقع النفرة ، ومن ذوقهم موقع الانكار ، ولكنهم يهابون ان يسألوا الشاعر عن ذلك ، فقد يكون مذهبا جديدا — كمذاهب المحدثين — وقد يكون ابداعا لم يسبق اليه ، غير ان نفوسهم لاتطمئن لهذا الخروج على المألوف ، فاذا هم يحتالون للأمر ، ويدسون على الشاعر جارية تتغنى بالبيتين ، ويوحون اليها أن تطيل الصوت بأواخر القوافى حتى تبين المخالفة بينهما بالضم والكسر ، والنابغة يسمع لها ، فاذا هو يفطن لذلك ، واذا هو يدرك أنه قد خرج على عمود الشعر بما خالف بين القوافى بالحركات واذا هو يعدل فى شعره بحيث يحقق تمام التشابه فى القافية ، واذا هو يجعل البيتين هكذا :

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك حدثنا الغراب الأسود
بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

ويقول مسرورا — ان خلا شعره من الاقواء قبل أن يشيع فى العرب وهو شاعرها — دخلت المدينة أو دخلت يثرب وفى شعرى أقواء وخرجت منها وأنا أشعر الناس (١)

ومثل ذلك ما يحكم عن بشر بن خازم واخيه سوادة فقد أنشد بشر بيتيه :

ألم تر أن طول الدهر يسلى وينسى مثلما نست جذام
وكانوا قومنا فبغوا علينا وينسى مثلما نسيت جذام

(١) موسيقى الشعر ص ١٥ .

فقال له سوادة أقويت ! لما سمع : « جذام والشآمى » ،فيقول بشر وما الاقـــواء ؟.

فيقول له قلت : نسيت جذام ويمد الصوت بحركة الميـــم وقلت الشامى ويمد بها الصوت ايضا .

فيقول له : أدركت ولست بعائد .

وهكذا يدرك العرب بحسهم انليس شعرا مستساغا ماتخالفت فيه القوافى وأما اشتراط تمام الوزن فهذه قصيدة عبيـــد بن الأبرص :

أقفـــر من اهله ملحـــــوب فالقطبيـــــــات فالذنـــوب

لم يعيبوها بأكثر من اختلال الوزن فيها وقالوا ان وزنهـــا ردىء النغمة مكروه على الأذن .

وهكذا يكون الحس هو الذى يدرك قيمة الوزن فينفر من مختله ، وليس العروضيون هم الذين ينكرون ، وانما العروضيون يضعون الموازين للمقبول والمردود بعد أن يستفتوا حس العرب وذوقهم

وهذا ابو العلاء المعرى ــ وهو من لاننكر عليه حسه وذوقه يسمع قصيدة عبيد ويرى فيها من الخلل مايجعلها عنـــده مضرب المثل اذ يقول :

وقد يخطىء الرأى امرؤ وهـــو حازم
كمـــا اختل فى وزن القـــريض عبيـــد

وعلى هذا يكون الوزن وتمامه ، والقافية ووحدتها من مقاييس الشعر الذى يستحق هذا اللقب ، وذلك برأى أهل الذوق والبصر باللغة وجمالها ، يقول الدكتور ابراهيم انيس :

والشعر منذ القدم جاء موزونا مقفى ، وهو لايزال فى جل الأمم موزونا مقفى ترى موسيقاه فى أشعار البدائيين وأهل الحضارة ، ويستمتع بها هؤلاء وهؤلاء ، ويحافظ عليها هؤلاء وهؤلاء ، فليحاول النقاد اذا ماشاءت لهم المحاولة التفتيش عن كل اسرار الشعر وليصورها لنا ماشاء لهم التصوير وليكشفوا لنا عما قد يكون فيه من أخيلة واستعارات وتشابيه ومجازات ، وليؤلفوا لنا من مثل هذا علما او فنا .. غير أنا نطمع منهم ان يضعوا موسيقى الشعر فى محلها الأسمى وألا يقرنوها بشىء قد يعثرون عليه فى بعض الأشعار ، اذ يتعثرون فى البحث عنه والتنقيب ، فليس الشعر الحقيقى الا كلاما موسيقيا تنفعل لموسيقاه النفوس وتتأثر القلوب ! ومن تمام الموسيقى القافية الواحدة ذات الجرس المنتظم . وهكذا يكون ابن رشيق اصاب لما جعل تمام الوزن ووحدة القافية قوام الشعر ، ويكون أولئك المحدثون الذين يتحللون من الوزن والقافية أو يتسهلون فيها بمنأى عن الصواب حين يدخلون فى جملة الشعر ماليس موزونا ولا مقفى ويكون أولئك الذين يريدون أن يدخلوا فيه مالم يكتمل له هذان الركنان مسرفين على العرف وعلى ما استقر عليه النقاد منذ عصور خالية ـ وليس هذا تجميدا لمفهوم الشعر وانما هو التزام بعموده

وفى اللغة متسع لتسمية كل جديد باسم يناسبه من غير ما تخليط أو اهدار للقديم وما استقر عليه الناس والعرف .

وبعد الوزن والقافية فى الشعر يأتى عنصر الخيال ، وقد أدرك ابن رشيق حتميته فى الكلام ليعد من الشعر حين قال : « وانما سمى الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ،فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استطراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعانى أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ أو صرف معنى الى وجه عن وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ولم يكن له الا فضل الوزن ، وليس بفضل عندى مع التقصير » (١)

ثم لابن رشيق مزية أخرى فى حديثه عن الشعر ، فاذا كان غيره يقف عند حد ذكر التعريف وقيوده ومحترزاته كما فعل قدامه ، ويوجز فى الاستشهاد لما يقول فان صاحبنا سلك طريقا آخر هو بالدراسات الأدبية أليق ، وكأنى به تبين عدم جدوى تحديد الفن بتعريف فأخذ نفسه بذكر الأشعار وتبين أوجه الحسن فيها ، والكشف عن مظاهر الجودة والرداءة من جهة الاستعراض لآثار الشعراء وقصائدهم .

ويفصل ابن رشيق بين الشعر والحكمة حين يقول (وانما الشعر ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع ، فهذا باب الشعر

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٩٦ .

الذى وضع له وبنى عليه لا ما سواه .. والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر فان وقع فيه شيء منها فبقدر ، ولا يجب أن يجعلا نصب العين فيكونا متكئا واستراحة (١) .

ونلمح في كلمة ابن رشيق المتقدمة ريح العاطفة التى يهزها الشعر ويحركها وهى التى أشار اليها رسكن لما قال عن الشعر : انه عرض البواعث النبيلة والعواطف بواسطة الخيال (٢) واذا كان بعض نقادنا يطير فرحا لمثل هذا التعريف فانى أقرر ان ابن رشيق قد لمحه قبل رسكن بمئات السنين .

وقال كروتشى عن الفلسفة وموقف الشعر منها : «عالم الشعر يخلو من التفكير والنقد والفلسفة ، فهو عالم الخيال المطلق بينما الفكر والفلسفة عالمهما الواقع والحقيقة ، والفلسفة تقتل الشعر » وقد لمح ذلك وصرح به ابن رشيق قبل كروتشى بمئات السنين كذلك .

وبعد فهذا هو ابن رشيق فى تعريف الشعر ، يمسه مس الفنان ، ويتصوره على ما يكون عليه الفن الشعرى من العناية بالخيال دون الفلسفة وجر الأخبار ، ولا يهمل ما به قوامه من الوزن وتمامه ، والقافية ووحدتها .

واذا كان ثمة شيء يؤخذ عليه فهو توسعه فى اطلاق الشعر

---

(١) العمدة ج ١ ص ١٠٧ .

(٢) قدامة بن جعفر والنقد الادبى ص ١٤٨ .

على المنظوم كله وجعله قسيما للمنثـور وذلك فى قوله : وكلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، والحقيقة التى يجب أن تتحراها فى مجال الدراسة الواعية الدقيقة تقتضينا أن نقول ان الـكلام كله منظوم ، والمنظوم شعر ونثر ، ولكنه جرى على ما جرى عليه غيره من استعمال كلمة المنظوم فى مقـابل الشعر . ثم يفـرقون بينهما بالخيال وأنه اذا تحقق للموزون المقفى عنصر الخيال كان شعرا ، واما اذا التزم فى المـوزون المقفى البحث عن الحقيقـة تمريرها كما فى ألفية ابن مالك فذلك هو المنظوم .

وأيا ما يكون فان ابن رشيق عرف الشعر بخير ما يعرفه به ناقد متذوق يدرك الجمال ويعرف اسراره ، وذلك فى أسـلوب علمى شائق يشيع فى أكثر فصول كتابه العمدة متبعـا تعـريفه بالنماذج الكثيرة من الشعر . وهو بهذا يؤكد أن الفنون تعرف بنماذجها أكثر مما تعرف بالحدود أو الرسوم .

٤ - طفولة الشعر ونشأته

لم يفت ابن رشيق ــ وكتابه العمدة فى محاسن الشعر وأدبه ــ أن يتحدث عن أولية الشعر العربى وكيف نشأ ــ واذا كان حديثه عن هذه القضية يعتمد فى أكثره على نقول نقلها عن المتقدمين ، فان الحديث فى أولية الشعر لا يعدو أن يكون مجرد حدس واجتهاد اذ لم يسجل الأولون لنا فى هذا المجال ما يمكن أن يغنى أو يقنع ، وانما هى روايات يتناقلها الخالف عن السالف، كأن يقولوا : « كان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحه ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأمجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز أنفسها الى الكرم ، وتدل أبناءها الى حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه ، سموه شعرا ، لأنهم شعروا به أى فطنوا » هذه احدى أقاويلهم التى ذكر ابن رشيق[1]،

على أن له رواية أخرى تقول : « ويقال ان أول من أخذ فى ترجيع الحداء مضر بن نزار ، فانه سقط عن جمل ، وانكسرت يده ، فحملوه وهو يقول : وايداه وايداه ، وكان أحسن خلق

(١) العمدة جـ ١ ص ٨ .

الله جرما وصوتا فأصغت الابل اليه ، وجدت فى السير ، فجعلت العرب مثالا لقوله : هايدا ، هايدا ، يحدون به الابل .

ثم يحكى رواية ثالثة فى ذلك فيقول : « وزعم ناس من مضر أن أول من حدا رجل منهم ، كان فى ابله ايام الربيع فأمر غلاما له ببعض أمر ، فاستبطأه فضربه بالعصا فجعل ينشد فى الابل : يا يداه يا يداه » فقال له : الزم الزم ، واستفتح الناس الحداء من ذلك اليوم .

وأيا ما كان حظ السند فى الروايات الثلاثة ، وهو حظ مشوب بالشك ، بل بأسباب الرد ، فان متن الروايات يشير الى حالة انفعال أثر سقوط عن جمل ، شعر معه من سقط بألم فصار يعبر عن ألمه بقوله : وايداه وايداه ، أو حالة انفعال لألم أحسه غلام لما ضربه سيده ، فجاشت نفسه بالذى أحس ، واذا لقلبه وجيب ، ونبض خاص غير نبضه الطبيعى ، ولأنفاسه ترديد غريب (١) عبر عنه باللغة فكانت عبارته ذات تقاسيم مرددة : وايداه ، وايداه . أو وايدا وايدا . فأصغت الأبل ، ورفعت رءوسها ، ونصبت آذانها وأغذت السير ، أو أخذت هذه التقاسم بلب الرجل الذى ضرب غلامه ، فاذا هو يقول له : الزم الزم .

ثم كان أن استفتح الناس بالحداء من ذلك اليوم ، ثم أخذ الحداء يتطور مع مرور الزمان حتى صار الى ذلك الشعر فى أسمى صوره ، وكان من أهم أركانه الوزن الذى هو ظاهرة

---

(٢) اصول النقد الادبى ص ٢٩٦ .

طبيعية لتصوير العاطفة التى لا يمكن الاستغناء عنها مطلقا »[1].

وواضح كما قدمت مافى الروايات من تصنع يبعد بها عن أن تكون موضع اطمئنان فى الدلالة على تصور نشأة الشعر وأوليته. ذلك أن التحديد بحادثه فى هذا المجال ، ثم ربط الحادثة بمضر ابن نزار — فى احدى الروايات — أو برجل من مضر فى رواية أخرى — يساعد على تسليط الشك على جميع الروايات . وانما كانت على ذلك للعصبية فى اثبات الفضل ، ونسبة المزيه الى مضر فى كل شىء حتى فى الاهتداء الى أولية الشعر عند العرب .

وربما لم تكن العصبية لمضر وحدها هى التى أعانت على خلق هذه الروايات ، وانما الدين أيضا كان له دخل فى ذلك فان النبى صلى الله عليه وسلم ينتهى فى نسبه الى مضر ، فلتكن مضر صاحبة فضل على الشعر كما هى صاحبة فخر بأن الرسول عليه السلام كان منها . ويؤيد ذلك أو فى الأقل يزكيه أنا نجدهم ينسبون الى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لقوم من بنى غفار وكان سمع حاديهم بطريق مكة ليلا يحدو فمال اليهم : ان أباكم مضر خرج الى بعض رعاته فوجدها قد تفرقت ، فأخذ عصافضرب بها كف غلامه فغدا الغلام فى الوادى وهو يصيح : وايداه وايداه ، فسمعت الابل ذلك فعطفت ، فقال مضر : لو اشتق مثل هذا لانتفعت به الابل واجتمعت فاشتق الحداء » [2] .

---

(1) أصول النقد الادبى ص ٢٩٦ .

(2) العمدة جـ ٢ ص ٢٩٧ .

وفى رأيى أن ذلك من خلق الرواة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل ذلك ولم تكن أولية الشعر لتشغله ، بل كانت تشغله رسالته والقيام على تبليغها وتوضيحها .

على أنه لو كان من هم الرسول أن يتحدث فى ذلك لكانت له مناسبة فأما أن يميل الى قوم من بنى غفار ليحدثهم ان مضرا ضلت له ابل ... الخ القصة فشىء يحيله المنطق ، أو فى الأقل يراه بعيدا .

والغريب أن ابن رشيق يسوق هذه الروايات ثم لا يبدى فيها برأى ، وكان أجدر به أن ينظر فى طبيعة اللغة والحياة ، أى لغة كانت وأى حياة ، واذا لرأى أن الشعر فن من التعبير بالكلمة عن النفس ووقع الأشياء عليها فى كل لسان ــ وليس العرب ــ ولا مضر ــ دون غيرهم قد انفردوا بهذا اللون من التعبير المنغم ، واذا كان هذا هو الشعر ، وهو عام فى جميع اللغات ، وهو تعبير عن النفس البشرية وعن وقع الأشياء عليها فلابد وأن يكون مرحلة من مراحل الحياة تمر بها الشعوب جميعا على اختلاف السنتها ومستوياتها ، والأقرب الى المنطق ــ وهذا أمر الشعر ــ أن تكون جميع اللغات قد تكلمت بكلام منظوم تعبيرا عن أحاسيس ومشاعر وانفعالات ، قد يكون مصدرها سرور فتغنى ، أو حزن فتنوح وفى كليهما تنغيم ، ثم أعجبت الأمم بذلك الكلام ذى الجرس والنغم ، فعدلت فيه ومضت به نحو أشكال وقوالب

محدودة باختلاف طبائع الشعوب وأصواتها ، وطبائع لغاتها وما تطيق فى ألفاظها وتراكيب جملها .

أو أن اللغات بدأت بالمنثور ، وليس المنثور الفنى ، وانما المنثور العادى الذى يقوم بحاجات الانسان الضرورية ثم رأت منه نوعا كالسجع فى فواصله ، ارتقت به الى الرجز وما يشبهه ثم أخيرا الى مرحلة القصيد ، ويمكن تطبيق ذلك على اللغة العربية فنقول انها بدأت بكلام منثور يتصل بحاجات الحفاظ على الحياة، ثم اتفق منه كلام ذو جرس ونغم ارتبط بالعواطف البدائية ، والمشاعر الانسانية ، فاستراح له أصحاب اللغة ، وأدخلوا عليه من التعديلات قصدا بعد أن كان يصدر عنهم عفوَ الخاطر ، فكان السجع ، وهو مرحلة قبل الشعر وجدوا فيها امتاعا وتأثيرا كالذى يروى عن كهان العرب ، ثم كانت مرحلة أخرى رؤى فيها أن تتعادل الفقر تعادلا كاملا كقول القائل :

يا ليتنى فيها جذع أخب فيها وأضع

وهكذا . يقول بروكلمان فى تصور أولية الشعر (ويختلف عادة المقال الذى يعبر به الانسان عن مشاعره القوية عن الكلام العادى ، بما يتطلبه أولا من تعديلات صوتية فى الالقاء ثم بما يدخل عليه من مميزات خاصة فى الألفاظ ، فانقسم الكلام الى أجزاء ، لم يراع فى أول الأمر التماثل فى تركيبها ولكنها تنشد لانسجام فى الجمال الذوقى بوساطة تقريب التجانس بينها ..

وأول حلية أدخلها العرب عليها هى السجع .. وكان النثر المسجوع دائما أبدا يلازم الحالات الخطيرة والمناسبات الرهيبة ، أو الطقوس والحفلات الرسمية ، ولم يقصد به بعد التسلية وادخال السرور على السامعين ، وانما قصد به وقتئذ الاستيلاء على قلوب العرب السامعين ، وسحر أفئدتهم فاستحسنه العرافون والكهنة ، وتدرج العرب من النثر المسجوع الى وزن تفعيلى بسيط بعد ان سيطرت على مشاعرهم القافية والتوقيع بفضل الأسباب والتأثيرات الخارجية ، ثم تطور الوزن بعد ذلك الى الاشكال العديدة) (١) .

وعلى هذا يكون ما ذهب اليه ابن رشيق ونقله فى كتابه غير سديد ولا مقبول .

---

(١) مجلة الازهر ـ السنة الثامنة ص ٦٥٤ .

٥ - إبداع الشعر

كان ابن رشيق شاعرا ، وشاعرا من النمـــط العــالى على ما سنذكره بأدلته فى موضعه من هذه الترجمة ، والخبرة بشىء تدفع صاحبها الى الحديث عنه ، لذلك لم يكن عجيبــا أن نرى بالقصد ــ وربما كان لأول ما نرى فى تاريخ الشعر ونقــده ــ حديثا لابن رشيق عن ابداع الشعر ، وكيف يصدر عن الشعراء. عاقدا لذلك بابا مستقلا فى كتابه .

واذا كنا نجد لأمثال ابن قتيبة وبشر بن المعتمر والجرجــانى صاحب الوساطة كلمات عن تخير الأوقات لانتاج الشعر،ونصائح يهدونها للشعراء فان ابن رشيق بعد هؤلاء هو الذى عقد للقضية بابا فى عمدته ، وتحدث فيها عن خبرة ومعاناة لقول الشعر فكان حديثه أقرب الى الصواب .

واذا كان المحدثون من دراس هذه القضية يتعقبون الشعراء يسألونهم كيف ينزل عليهم رئى الشعر ، وفى أى الحالات ، وعلى أى الصور يأتيهم ، فان ابن رشيق من ألف سنة الا قليلا فعــل مثل ذلك فسأل شعراء عصره وتعقبهم ولحظهم ــ ثم كتب ما كتب عن بينــــة .

وأول ما يلمس الرجل من أطراف القضية هو تقريره أن لابد من طبيعة فنية ويعنى بها ما نطلق عليه كلمة الموهبة أو الاستعداد الفطرى . ويستشهد لذلك بعبارة صاحب الوساطة من أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ـ فمن اجتمعت له هـذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيب الشاعر منهـا تكون مرتبته من الاحسان .

غير أن ابن رشيق لا يتعرض للموهبة وحقيقتها ومصدرها ، وهل هى شىء يورث وتساعد عليـه عوامل أم أنه شىء لا يد للانسان به ، ذلك ما لم يحدث عنه . ولـكنه ليس وحده بالذى يلتزم الصمت ازاء هذه الظاهرة،فان العلماء قبله وبعده لا يزالون فى حيرة من أمر الموهبة ، وغاية ما يقول بعض الباحثين فيها أنها استعداد فطرى تلعب فيه الوراثة وقوانينها دورا كبيرا ، لكن هذا أيضا لا يعدو أن يكون رأيا ما يزال بحاجة الى الأدلة التى تجعل منه حقيقة علمية ، وفى سبيل ذلك قامت وتقوم دراسات تبحث الابداع الفنى ، وعند الشعراء خاصة (١) وهى دراسات تقوم على دراسة تاريخ الشعراء واستقراء صور انتاجهم وطرائقهم فى قرض الشعر وصناعته كما تقوم على بحث مسوداتهم وما يتعاورها من المحو والاثبات . ومثل ذلك لم يكن على عهد ابن رشيق ـ لكنه مع هذا لم يفته أن يستبطن من نفسه طريقة قول الشعر فيشيرعلى

(١) من ذلك كتاب الدكتور مصطفى سويف : الانيس النفسية للابداع الفنى عند الشاعر خاصة

من يستشعر فى نفسه هذه الموهبة بأن يأخذ نفسه بحفظ الشعر والأخبار ومعرفة النسب وأيام العرب ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار ، وضرب الأمثال ، وعليه أن يعلق نفسه ببعض أنفاسهم ، ويقويها بقوة طباعهم ، ويعلل لذلك بما رأى من دراساته للشعراء فيقول : وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل صاحبه برواية الشعر ، ومعرفة الأخبار ، والتلمذة لمن فوقه من الشعراء ، فيقولون : فلان شاعر راوية ، يريدون انه اذا كان راوية عرف المقاصد ، وسهل عليه مأخذ الكلام ، ولم يضق به المذهب (١) واذا كان مطبوعا لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم ، وربما طلب المعنى فلم يصل اليه وهو ماثل بين يديه لضعف آلته ، كالمقعد يجد فى نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة (٢) .

ثم ما يزال يتحدث عن الرواية وعن قيمتها فى انتاج الشاعر ، ويكبر من شأنها بالنسبة للمولدين خاصة ويحتم عليهم ضرورة الوقوف على أشعار اسلافهم الذين افتنوا فى صنعة الشعر ، واشعار اقرانهم الذين ملكوا زمامه ــ وكأنه يريد ان يقول ان الدراسة تعدى على العلم ، ثم يشير على المولدين ألا يقصروا نظرهم فى الشعر على شعر الفحول المقدمين ، كما يحذرهم من الاكتفاء برواية اشعار المحدثين ، فان ذلك مدعاة الى أن يأتى

(١) العمدة جـ ١ ص ٧٢ .
(٢) العمدة جـ ١ ص ١٧٣ .

نسجهم ضعيفا مهلهلا . يقول (ولا يستغنى المولد عن تصفح أشعار المولدين ، لما فيها من حلاوة اللفظ وقرب المأخذ ،واشارات الملح ، ووجوه البديع الذى مثله فى شعر المتقدمين قليل ، وان كانوا هم فتحوا بابه وفتقوا جلبابه ، وللمتعقب زيادات وافتنان ، على الا تكون عمدة الشاعر مطالعة ما ذكرت ــ دون شعر الفحول المقدمين ــ فانه متى فعل ذلك لم يكن فيه من المتانة وفضل القوة ما يبلغ به طاقة من تبع جادته ، واذا اعانته فصاحة المتقدم وحلاوة المتأخر اشتد ساعده ، وبعد مرماه ، فلم يقع دون الغرض ،وعسى ان يكون ارشق سهاما ، واحسن موقعا ممن لو عول عليه من المحدثين لقصر عنه ووقع دونه .

ذلك هو صاحبنا فى القرن الخامس الهجرى يتحدث عن الرواية وأثرها فى مساعدة الموهوب على انتاج الفن والشعر ، وهو فى اكبار أمرها والتفطن لقيمتها لا يقل عن توفيق الحكيم فى القرن الرابع عشر الهجرى ايضا حين يذكر مثل ذلك فيقول : انى اطالع فى اليوم مالا يقل عن مائة صفحة فى مختلف ألوان المعرفة ، مائة صفحة فى اليوم أى ثلاثة آلاف صفحة فى الشهر » (١) وهو يقرأ فى تأن وتؤدة وبطء حتى يعرف لمن يقرأ فنه وسر صناعته وطريقة أسلوبه فى البناء ، وخلق الأشخاص ، ونسج الجو واحداث التأثير ، بل انه ليعيد قراءة الصفحة الواحدة مرات .

---

(١) زهرة العمر ـ ٧٧ ه

وكذلك لا يقل ابن رشيق فى اكبار أمر الرواية عن الشاعر أحمد رامى الذى يقول : لقد قرأت كثيرا وكثيرا جدا حتى كدت أجن ، كنت أقرأ حتى أصاب بدوار ، ولقد تعلقت تعلقا شديدا ببيرون ولامرتين وشوقى . وجننت شغفا برباعيات الخيام .

وهكذا يكون صاحبنا أدرك قبلا ما أدركه المتأخرون ، وأدرك حتمية التنويع فى القراءة فلا يقف الفنان عند شاعر بعينه ، وانما عليه أن يقرأ للمحدثين والمتقدمين .

واذا كان علماء النفس الذين عرضوا لدراسة الابداع الفنى فى الشعر قد جعلوا منه ابداعا مفاجئا وابداعا بطيئا ، وابداعا يقظا لا شعوريا ، وابداعا يخضع لحكم العادة ، ورددوا ان هذه الأنواع يحددها الاستعداد الفطرى ولايد للفنان بالتحكم فى زمامها ، فانى أذكر ان ابن رشيق سبق — على تقدمه فى الزمن — الى قريب من ذلك التقسيم .

ولست اتصيد له الكلمة فأحملها مالا تحمله حتى أقول ان منهجه يوافق منهج المحدثين ، وانما اذكر — بالاعجاب — أنه تصور القضية تصورا متكاملا ، وكتب فيها بابين وان لم يكونا بلغة علماء النفس المحدثين ، وبأسلوبهم وطريقتهم ، فانه انتهى فيهما الى مثل ما انتهى اليه هؤلاء من تقسيم .

انه يتحدث عن الابداع المفاجىء والابداع البطىء تحت عنوان البديهة والارتجال ، ويفرق بينهما فالارتجال ما كان انهمارا وتدفقا لا يتوقف فيه قائله ، والبديهة دون ذلك فيها ريث

وأناة ـ وقد عارض ابن رشيق من ذهب الى أن البديهة هى الارتجال فقال : وليست به « لأن فيها الفكرة والتأيد.والارتجال ما كان انهمارا . » (١)

وأفضل البديهة عنده بديهة أمن وردت فى موضع خوف ،فما ظنك بالارتجال وهو اسرع منها . واستعرض ابن رشيق الشعراء ووضعهم من البديهة والارتجال حيث كانوا ، فأبو نواس قوى البديهة والارتجال لا يكاد ينقطع ولا يروى الا فلتة ، قال له الخصيب يوما يمازحه وهما بالمسجد الجامع : يا أبا نواس أنت غير مدافع فى الشعر ولكنك لا تخطب فقام من فوره يقول :

منحتكم يا أهل مصر نصيحتى   ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية   أكول لحيات البلاد شروب
فان يك باق سحر فرعون فيكم   فان عصا موسى بكف خصيب

ثم التفت اليه وقال : والله لا يأتى بمثلها خطيب مصقع فكيف رأيت ؟ فاعتذر اليه الخصيب وقال : ان كنت الا مازحا

ويروى ابن رشيق أن أبا العتاهية صحب يوما رفقة فسمع زقاء الديوك فقال لرفيقه :

هل رأيت الصبح لاحا

قال نعم :

وسمعت الديك صاحا

(١) العمدة جـ ١ ص ١٦٤ .

قال ابو العناهية :

انما يبكى على المغتر بالدنيا وناحا

فاستيقظ رفيقه للكلام وأنه شعر فرواه .

يقول ابن رشيق فما جرى هذا المجرى فهو ارتجال .

وأما البديهة فبعد أن يفكر الشاعر سريعا أو يكتب سريعا ان حضرت آلة الا أنه غير بطيء ، ولا متراخ ، فان أطال حتى يفرط ، أو قام من مجلسه لم يعد بديها .

ويذكر ابن رشيق أن شعر البديهة دون شعر التروية فيقول : وكان أبو الطيب كثير البديهة والارتجال الا أن شعره فيهما نازل عن طبقته جدا . ويلتمس له العذر ، وأنه فى سعة منه لأن البديهة كما قال فيها ابن الرومى :

نار الروية نار جد منضجة   وفى البديهة نار ذات تلويح
وقد يفضلها قوم لسرعتها   لكنها سرعة تمضى مع الريح

وابن المعتز يقول :

والقول بعد الفكر يؤمن زيفه   شتان بين روية وبديه

ولكن من الشعراء من شعره فى بديهته ورويته سواء وهو كذلك فى الأمن والخوف لقدرته وسكون جأشه وقوة غريزته كمرة بن محكان السعدى اذ يقول وقد أمر مصعب بن الزبير رجلا من بنى أسد يقتله :

بنى أســـد أن تقتــلونى تحــاربوا
تميمــا ، اذا الحرب العوان اشمعلت
ولست وان كانت الى حبيبـــــة
ببـــاك على الدنيـــا اذا ما تولت

يقول ابن رشيق : وهذا شعر لو روى فيه صاحبه حولا كاملا على أمن ودعه وفرط شهوة أو شدة حمية لما أتى فوق هذا .

ومايزال ابن رشيق يسوق للشعراء من شعر البديهة والارتجال ما يرد على قسطاكى الحمصى مذهبه الذى ينكر أن تكون العرب قالت الشعر على البديهة الا ان يكون فى بيت واحد كالذى يروى عن أبى تمام فى سينيته يقصد قوله :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنــوره مثلا من المشــكاة والنبراس

وحتى هذه أيضا يشك فيها الحمصى مع استفاضة الروايات بها ، ويقول ان ذلك ان صح به الخبر فهو من الخــوارق التى لا يروى مثلها الا فى مدى مئات السنين ــ ثم يقول ــ وحسبك ما ورد بالتحقيق عن فرجيل ثانى شعراء الدنيا من أنه لم ينته من نظم قصيدته « المساء » الا بعد اربع عشرة سنة .

وهذا كلام لا يحتج به فى قضيتنا ــ فليس فرجيل ــ وان صح أنه ثانى شعراء الدنيا بحجة تلغى ما تواترت به الروايات عن شعراء العرب وأن كثيرا من شعرهم كان عن ارتجال ــ وهــذه

معلقة الحارث بن حلزة قيلت فى ظـروف أعجلته عن التـروية والاعـــداد .

ابن رشـــيق واللغـــة :

وابن رشيق الناقد كان على بصر باللغة ومنابع الكلم ومصادر اشتقاقها لذلك يتحدث عن اصل الكلمة فيـذكر « ان اشــتقاق البديهة من يده بمعنى بدأ ، ابدلت الهمـزة هاء كمـا أبدلت فى أشياء كثيرة لقربها منها ، فقد قالوا فى مدح مده ، ولهنك تفعـل كذا بمعنى لأنك وهو كثير .

والارتجال مأخوذ من السهولة وا لانصباب ومنه قيل شعر رجل اذا كان سبطا مسترسلا غير جعد ، وقيل هو من ارتجـال البئر وهو أن تنزل برجلك من غير حبل . » وكانه يريد انك ترد الماء بغير تأهب او استعداد ثقة واقتدارا على الورود بغير عدة .

***

ثم يتحدث ابن رشيق بعد عن الابداع اليقظ الشعورى فيذكر أنه حالة شعورية ، يقول فيها الشاعر الشعر عن قصد واختيـار وارادة كالشعر فى المناسبات ، فليس مثل ذلك فيضا وانبجاسا ، وانما هو شيء يتعمده الشاعر ويتأهب له ويقصده . يقول : وكان أبو تمام يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك فى شـعره . قال أحد أصحابه : استأذنت عليه يوما ـ وكان لا يســتتر عنى ـ فأذن لى فدخلت فاذا هو فى بيت مصهرج قد غسل بالماء ، يتقلب يمينا وشمالا ، فقلت : لقد بلغ الحر بك مبلغا شديدا ، قال لا ، ولكن غيره . ومكث كذلك ساعة ثم قام كأنما أطلق من عقـال ،

فقال الآن اردت ، ثم استمد وكتب شيئا لا أعرفـه ، ثم قال : اتدرى ما كنت فيه منذ الآن ؟ قلت كلا . قال قول أبى نواس :

كالدهر فيـه شراسة وليـان

أردت معناه فشمس على حتى أمكن الله منه فصنعت :

شرست ، بل لنت ، بل قانيت ذاك بذا

فأنت لاشـك فيك السهل والجبـل

يقول ابن رشيق : ولعمرى لو سكت هذا الحاكى لنم البيت بما كان داخل البيت ، لأن الكلفة فيه ظاهرة والتعمل بين .

ومثل حكاية أبى تمام حكاية عبد الكريم النهشلى ـ معاصر ابن رشيق ـ قال ابن رشيق : حدثنى بعض اصـحابنا من أهل المهدية وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكدية ـ هو أشرفهاارضا وهواء ـ قال جئت هذا الموضع مرة فاذا عبد الكريم على سطح برج هنالك قد كشف الدنيا ، فقلت أبا محمد : ما تصنع ههنا ؟ قال القمح خاطرى ، واجلو ناظرى . قلت فهل تنتج لك شيء ؟ قال ما تقر به عينى وعينك ان شاء الله تعالى ، وانشدنى شعرا يدخل فى مسام القلوب رقة ، قلت هذا اختبار منك اخترعتـه ؟ يريد الوقوف بالمكان العالى . قال لا بل برأى الاصمعى .

قال : وكان جرير اذا أراد أن يؤبد قصيدة صنعها ليلا ، يشعل سراجه ويعتزل ، وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة فى الخلوة بنفسه ، ويحكون انه صنع ذلك فى قصيدتهالتى اخزى بها بنى نمير لما قال فيها :

فغض الطرف، انك من نمــير   فلا كعبـــا بلغت ولا كلابا

ثم يلجأ ابن رشيق الى الاستبطان فى دراسة الظاهرة ،ولذلك نراه يحكى ان أبا تمام كان ينصب القافية للبيت ليعلق الأعجاز بالصدور ، ولا يأتى بذلك الا شاعر مصنع كحبيب ثم يقول عن نفسه : والصواب الا يصنع شاعر بيتا لا يعرف قافيتـــه ، غير انى لا أجد ذلك فى طبعى جملة ، ولا أقدر عليه بل اصـــنع القسيم الأول على ما اريده ، ثم التمس فى نفسى ما يليق به من القوافى بعد ذلك فأبنى عليه القسيم الثانى ، افعل ذلك فيه كما يفعل من يبنى البيت على القافية ، ولم أر ذلك بمخل على ، ولا يزحــزحنى عن مرادى ، ولا يغير على شــيئا من لفــظ القسيم الأول الا فى الندرة التى لا يعتد بها أو على جهة التنقيح المفرط .

ثم يذكر ان من الشعراء من يسبق اليه بيت واثنان وخاطره فى غيرهما ، يجب أن يكونا بعد ذلك بأبيات أو قبله بأبيــات ، وذلك لقوة طبعه وانبعاث مادته ..

ثم ما يزال يحكى من طرائق الشعراء فى نظم الشعر حتى يقول حاكيا عنهم : « من أراد ان يقول الشعر فليعشق فانه يرق ،وليرو فانه يدل ، وليطمع فانه يصنع . ثم يقول وقالوا : الحيلة لـــكلام القريحة الحمام ، وتصيد ساعات النشاط . وهذا عنده انجع وبه يأخذ واليه يذهب.

وينهى ابن رشيق حديث الابداع الفنى بـــذكر صـــحيفة بشر بن المعتمر فى الدلالة على نطاق الفصاحة والبلاغة .

وبعد فهل نسرف على الحقيقة اذا قلنا ان ابن رشيق بحديثه فى الابداع الفني ، والبديهة والارتجال سبق الدكتور مصطفى سويف حين جعل الباب الثانى من كتابه الأسس النفسية للابداع الفنى عند الشاعر خاصة، بابا عنوانه : «محاولة تفسير ديناميات الابداع فى الشعر على أساس النهج التجريبى الموجه » وقال فى صدره : المشكلة التى نريد ان نعالجها فى هذا الباب هى كيف ينشىء الشاعر قصائده أو بعبارة آخرى : ما هى خطوات الشاعر التى يتخذها فى عملية الابداع ، وكيف تتعدد به ، وما هى العوامل التى تساهم فى تحديدها ؟ وكيف يمضى هذا التحديد ؟ » (١)

ان هذه المشكلة هى التى عرض لها ابن رشيق وتحدث عنها، وحاول جاهدا أن يصورها فى ضوء تجربته كشاعر ، وفى ضوء ملاحظاته على معاصريه ، وعلى الروايات التى عرضت لذلك على المدى الطويل فى تاريخ الشعراء .

وكل ما بين ابن رشيق والدكتور سويف انما هو ما بين العصرين من اتساع أفق المعرفة ، وتفتح صور ومناهج للدراسات لم تكن معروفة على عهد ابن رشيق ، ولكنه لمح لها ووضع بذورها فى حديثه هذا المستفيض عن الروية والبديهة والارتجال وحسبه أن يكون فتح الباب .

---

(١) الاسس النفسية للابداع الفنى ص ١٠٦ .

٩- الطبع والصنعة

والطبع والصنعة فى عمل الشعر باب لم يكن لابن رشيق ـ وقد كتب كتابه العمدة فى نقد الشعر ومحاسنه ، او فى نقد الشعر وآدابه ـ بد من ان يتحدث فيه ، وهو قد رأى بين يديه شعرا كثيرا لشعراء يختلفون بالزمان والمكان ويختلفون بالبيئة وبالمنبت الذى عاشوا فيه ، فاولئك جاهليون وهؤلاء مخضرمون أظلتهم الجاهلية ولحقهم الاسلام ،وثمت من نشأوا فى كنف الاسلام ، ولم تتعفر وجوههم بتراب الجاهلية ، وفريق عاش والاسرة الأموية ترفرف بجناحيها على الدولة الاسلامية ، وآخرون رفرفت عليهم اعلام الدولة العباسية الممتدة من وسط آسيا الى شمال افريقية ، الى آخرين عاشوا فى جنوب غرب اوربا حيث الدولة الاندلسية .

ومن هؤلاء من كان موطنه البادية حيث العرار والشيح والقيصوم ، ومنهم من تقلب فى حضارات أصيلة ومجتلبة فى الجزيرة العربية وخارجها على طول امتداد الدولة وتجنيحها فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب .

وهؤلاء واولئك مختلفون من حيث الموهبة والطبع والغريزة والنقاد قبل ابن رشيق قد عرضوا لهم بدراسة وبآراء قالوها فى شعرهم ، ووصلت اليه هذه الآراء فيهم وفى اشعارهم وفى طرائقهم حين يقرضون الشعر ، وفى طبيعة الشعر الذى يصدر عنهم ، فلم يكن بملك ـ وهو الناقد ـ الا أن يعرض لذلك كله ليقول فيه برأيه ـ فكان ذلك الباب .

وليس من همنا هنا ـ ونحن نترجم للرجل ـ ان نستقصى ماقال النقاد قبله ، وانما حسبنا ان نعرض لرأى ابن رشـــيق بالقدر الذى يجعل من هذه الترجمة صورة تكشف عن شخصية الرجل وعن جهوده فى هذا المضمار حتى تستكمل الترجمة جميع جوانبها .

وأول مانلحظ على منهجه فى علاج الموضوع انه عقد له بابا ينفرد بالحديث فيه وان مسه فى مواطن أخرى من كتاب العمدة ، وقد جعل من الشعر مطبوعا ، وانه الأصل الذى وقع أولا . وجعل منه نوعا آخر اسماه المصنوع ، ولكنه ليس بالمتكلف تكلف اشعار المولدين ، وانما استحق لقب المصنوع لما وقع فيه من هذا الذى يسمونه صنعة .

وفرق بين الشعر المطبوع وشعر الصنعة « على أساس ان الاول وان جاء فيه من صور البديع الا انه جاء من غير ان يقصد اليــه الشاعر او يتعمل له أو يتكلفه ، وانما جاء عفوا وبطباع القـــوم

واستحسنوه فمالوا اليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غـيره » (١)

وابن رشيق حين يقول ــ وانما جاء عفوا وبطباع القوم ــ انما يريد ان يقول : ان ماجاء فى الشعر القديم من استعارة او جناس أو تشبيه انما كان شيئا يسيرا لم يقصد اليه شاعر ، ولا تعمده ، وانما هو شيء نراه بين الفينة والفينة وليسـت عليه مسـحة التكلف .. والعرب لا تنظر فى اعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة او معنى لمعنى كما يفعل المحدثون .

والعرب عنده هم المتقدمون الذين عاشوا فى الجزيرة العربية جاهليتها وصدر الاسلام ، وقد جعل بعضهم ذلك آخر عصـر الاستشهاد للغة وحددوه بالفرزدق على الراجح ، وهم على هذا العرب الذين لم يخالطوا العجمة والعجم بعدما اتسعت رقعـة الدولة .. وخالط ابناؤها ابناء الشعوب الداخلة فى حـكمها ، ففقدوا بهذه المخالطة نقاوة العنصر العربى ، وبالتبع نقاوة اللسان.

وعلى هذا يكون المصنوع من الشعر ماحفل به الشـاعر ، واكترث له وتكلف فيه زينة اوجاء به وعليه مسحة الصنعة من مثل حسن النسق والعطف فى قصيدة ابى ذؤيب التى يقول فيها يصف حمر الوحش والصائد :

---

(١) العمدة جـ ١ ص ١٠٨ .

فوردن والعيون مقعدرابىءالض   مرباء خلف النجم لا يتتلع
فكر عن فى حجرات عذب بارد   حصب البطاح تغيب فيه الأكرع
فشربن ثم سمعن حسادونه   شرف الحجاب وريب فرع يقرع
فنكرنه فنفرن فامترست به   هوجاء هادية وهاد جرشع

يقول ابن رشيق : فانت ترى هذا النسق بالفاء ، كيف اطرد له ،ولم ينحل عقده ، ولا اختل بناؤه ، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته اياه ـ وقصده اليه ـ لما تمكن له هذا التمكن (١) والشاعر لاشك قد اجهد نفسه وحملها على هذا الصنيع ـ ولو أن مثل ذلك كان في بيت أو بيتين لقيل شيء جاء بالعفو والطبع ـ لكن متانة الاسلوب واتساق الابيات ، وتمكن الشاعر من احكام النسج لم يخرج بالأبيات الى ذلك النوع الثالث الذى يسميه المتكلف .

وقد حاول ابن رشيق تحديد الأنواع الثلاثة ، فالمطبوع من الشعراء من ينثال عليه الشعر انثيالا لايجهد نفسه فى نحت البيت أو قرض القصيدة كالذى نراه عند الحارث بن حلزه في معلقته على ما اشتهر من أنه انشدها بين يدى عمرو بن هند فانهم قالوا انى بها كالخطبة ، ومثله شعراء الجاهلية حين يقولون على السجية لاينظرون في أعطاف اشعارهم بزينة وانما نظرهم فى فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وابرازه واتقان بنية الشعر واحكام عقد القوافى وتلاحم الكلام بعضه ببعض .

(١) العمدة جـ ١ ص ١٠٩ .

وفى ذلك يقول الجرجانى : « فكانت العرب تفاضـل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجـزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق لمن وصف فأجاد ، وشبه فقارب وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر امثاله ، ونوادر ابياته ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض » .

وشعر الصنعة فى نظر ابن رشيق ضربان اولهما : ماكان فيه قصد الى التجويد ، ومحاولة من الشاعر لتبرئة شعره من كل ما يشينه مع تحقيق جمال فنى فيه على غير تكثر او تكلف ، وفى هذا النوع يأتى الشعر وفيه من التشبيهات ، وتجسيم الصـور وتتابع الاستعارات القريبة المشتقة من طبيعة الحياة ، والمستمدة مادتها من البيئة ، مع نأيه عن كل متكلف مسرف فى العلاقـات البعيدة التى تبعد بالعبارة عن المراد بها . فمن ذلك مثـل قـول زهـير :

فبينا نبغى الصيد جاء غلامنـا	يدب ويخفى شخصه ويضائله
فقال شياه راتعـات بقفـرة	بمستأسد القريان حو مسايله
ثلاث كأقواس السراء ومسحل	قد اخضر من لس الغمير جحافله

فهذا اللون من الفنية على المعنى المتقدم شائع عند الشعراء المتقدمين او الشعراء العرب كما يسميهم ابن رشيق ، وهو لون وان ظهرت فيه الصنعة المحكمة ، والنسج المبدع الا انه جاء بغير تكلف وبغير اسراف فى الحلى .

ويشير ابن رشيق الى أن تنخل الشعر واختيار جيده لا يدخله فى باب التصنيع ولا يخرجه عن شعر الطبع ولا يخرج صاحبه عن جملة الشعراء المطبوعين فهذا امرؤ القيس يقول : (١)

اذود القوافى عنى ذيادا ذياد غلام جرىء جوادا

فلما كثرن وعنينه تخيرت منهن شتى جيادا

فاعزلُ مرجانها جانبا وآخذ من درها المستجادا

فهذا التخير لايعدو ان يكون مجرد انتقاء مما يتوارد عليه فأما ماوراء ذلك من القصد الى المجىء بتشبيه او استعارة ، أو العمد والاصرار على مطابقة او تجنيس فليس هؤلاء الشعراء منه فى شىء فاستحقوا بذلك اسم المطبوعين .

أما شعراء الصنعة فهم اولئك الذين يسعون الى الحلى اللفظية والمعنوية يوشون بهم شعرهم قال ابن رشيق : وأول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد وابن هرمة ، وهو ساقة العرب ، وآخر من يستشهد بشعره تم تبعهما مفتونا بهما كلثوم بن عمرو العتابى ومنصور النميرى ومسلم بن الوليد وابو نواس ، واتبع هؤلاء حبيب (٢) — وهم جميعا كانوا طلاب صنعة يستهدفونها فى اشعارهم ويسعون اليها فى قصائدهم على حين كانت قبلهم نبذا فى الشعر تستحسن ، ونكتا تستظرف مع القلة وفى الندرة لاتدل على كلفة . يقول الرجل : وانما هرب الحذاق من هذه

(١) الوساطة ص ٢٧ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ١١٠ .

الاشباه لما تدعو اليه من التكلف لاسيما ان كان فى الطبع أيسر شيء من الضعف والتخلف » (١) ويقول ايضا « فاما اذا كثرت فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وايثار الكلفة » .

ويتحدث ابن رشيق عن زحمة الشعر بصور البديع فيرفضها ولكنه فى الوقت ذاته لايحب « ان يكون ايضا خاليا منها مغسولا ككثير من شعر أشجع واشباهه من هؤلاء المطبوعين جملة » (٢)

ونقف منه وقفة قصيرة عند هذا الحكم اذ يبدو انه فيه متأثر بنظرية الوسط فلا كثرة الصور البديعية ترضيه ولا خلوه منهامما يستحسنه .واذا كان مذهبالوسط مما يقول بهالاخلاقيون فانى لا أرى الأخذ به فى الأحكام الفنية ، ذلك انه قد تكثر الحلى فى شعر شاعر ولكن حسن سبكها وبديع تناولها وخفاء تأتى لها ينبو بها عن أن تكون مستثقلة أو مستسمجة أو غير مستملحة ، بل قد يضفى عليها مسحة من جمال يرتفع بها الىأعلى مستوى فى الفنيـــة .

ورب حلية واحدة أو تصنع قليل لا يوفق فيه صاحبه يأتى فى الشعر فاذا هو سمج مستثقل ، ومعيب مردود ، وهكذا لا يكون الأمر أمر الكم ، وانما الأمر فى الفن ومنه الشعر ـ أمر الكيف كمايقولون . فمتى وجدناصنعة حسنة ،وتصويرا بديعا كان الشعر مقبولا وان تزاحمت عليه الصور . وهذه أبيات لأبى تمام يقول فيها :

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٥٥ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ٢٥٥ .

دعنى وشرب الهوى يا شارب الكاس
فاننى للــذى حسيته حـــاسى
لا يوحشنك ما استسمجت من سقمى
فان منــــزله من أحسن النــاس
من قطع الفــاظه توصيــل مهلكتى
ووصـل الحـــاظه تقطيـــع أنفاسى
متى أعيش بتــأميل الرجـــاء اذا
ما كــان قطـع رجائى فى يدى ياسى

فلم يخل بيت فيها من معنى بديع ، وصنعة لطيفة ، طابق وجانس واستعار ، فأحسن فى جميع ذلك ، والأبيات معدودة فى المختــار من غزله ، وحق لها فقد جمعت على قصرها فنونا من الحســن ، وأصنافا من البديع ، ثم فيها من الاحكام والمتانة والقوة ماتراه

وهذا بيت له هو نفسه أيضا يقول فيه :

فاضت ســـحائب من نعمائه وكفت
بؤســا على البؤس حتى اضنت البؤسا

فتراه وقد صنع فيه فأساء الصنعة ، وأغرب وكرر حتى سمج وأصبح البيت ثقيلا على اللسان يكده ان ينطق به ، وعلى العقل يعتصره حتى يصل الى ما أراد به ، وعلى هذا لانحكم الكم فى الشعر وانما ينبغى ان نحكم الصنعة والتهدى لها من أجمــل الطرق وأيسرها وأوضحها .

ثم يمضى ابن رشيق يحدث عن الشعراء ويصنفهم من حيث الطبع والصنعة ، وهو فى كل ذلك يكشف عن شخصية خبرت الشعر وأصدرت حكمها فى الشعراء على بينة من الدراسة ومن التمرس بقرض الشعر والتصرف فيه فالبحترى عنده أملح صنعة واحسن مذهبا فى الكلام ، يسلك منه دماثة وسيولة مع احكام الصنعة وقرب المأخذ ، لاتظهر عليه كلفة ولا مشقة . أما ابن المعتز فلم يكن ابن رشيق يعلم ـ فيما بدا ـ شاعرا اكمل منه ولا أعجب تصنيفا ، فان صنعته خفية لطيفة ، لاتكاد تظهر فى بعض المواضع الا للبصير ، وهو ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعا وافتنانا ، واقربهم قوافى وأوزانا ، ولا ترى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب .

وأما حبيب ومسلم فشعرهما أكثر الشعر نفعا لمبتدىء فى طلب التصنيع ومزاولة الكلام لما بينهما من الفضيلة لمبتغيها ،ولأنهما طرقا الى الصنعة ومعرفتها طرقا سابلة ، وأكثرا منها فى اشعارهما تكثيرا سهلها عند الناس وجسرهم عليها » (١) .

ومع جمع ابن رشيق بين مسلم وحبيب فى تلك الصفة فانه لايفوته ان يدرك مابينهما من فروق ، فمسلم اول من تكلف البديع من المولدين ، وأخذ نفسه بالصنعة واكثر منها ، وهو عنده زهيرهم لأنه كان يبطىء فى صنعته ويجيدها ، ثم هو مع ذلك اسهل ـ عنده ـ شعرا من حبيب ، وأقل تكلفا .

(١) العمدة جـ ١ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

ويحكى ابن رشيق بيت ابى تمام الذى يقول فيه

بحوافر حفــر   وصلب صــلب

وان ابن الرومى نص فى بعض تسطيراته على محمد بن ابى حكيم الشاعر حين عاب عليه قوله فى الفرس :

فله شــــهامة سودنيق باكر   وحوافر حفر ورأس صــنتع

بأنه حاكى فيه كلمة حبيب : بحوافر .. وحفل بها ، واعتذر له .. وخرج التخاريج الحسان فيه . وذكر ان الحافر الوأب والحافر المقعب ونحوهما أشرف فى اللفظ من الحـافر الاحفر ـ الا أن الطائى عنده كان يطلب المعنى ، ولا يبالى باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها . ذلك رأى ابن الرومى فى ابى تمام ويعلق عليه ابن رشيق فيقول : « والذى اراه ان ابن الرومى أبصر بحبيب وغيره منا» وهذا تواضع من صاحب الترجمة ،ولكنه تواضع العلماء الذى لايمنعهم من أن يبدو رأيهم حين يعتقــــدون الرأى فاذا هو يقول بعد ذلك : « غير انى لو شئت ان أقــول ، ولست رادا عليه ـ يريد ابن الرومى ـ ولا معترضا بن يديه ـ ان المعنى الذى أراده وأشار اليه من جهة الطائى انما هــو معنى الصنعة كالتطبيق والتجنيس وما أشبههما لامعنى الكلام الذى هو وجهه وروحه ، وان اللفظ الذى ذكر انه لايبالى به انما هو فصيح الكلام ومستعمله ، ويدلك على صحة ما ادعيته على ابن الرومى ان الحافر الوأب والمقعب أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر »ثم

يختم اعتراضه هذا وتفسيره ذاك بأحسن مايكون عليه متواضع جم التواضع اذ يقول : «وانما هذا معرض للكلام لا مخالفة ».

ويكشف هذا التعقيب من ابن رشيق عن شخصية تلمح ادق الفروق فى الاستعمال اللغوى ، وما يكون بين عبارة وعبارة من التخالف فى المعنى للتخالف فى اللفظ وان بدا أن الألفاظ متقابلة أو متشاكلة ـ وهذه هى الفروق التى يتمايز بادراكها العلماء. فالرجل يوضح لنا مابين الحافر الاحفر والحافر الوأب والحافر المقعب ، كما يفسر المعنى وان ليس المراد به فى كلمة ابن الرومى مايقابل اللفظ ، وانما المعنى فى العبارة المتقدمة هو المحسنات التى كان يسعى لها ابو تمام ويركب فى سبيلها كل مركب وان صعب • وأما اللفظ فيريد به فصيحه المستعمل .

وهكذا وراء مايكتب ابن رشيق عقلية تنقد فتفسر وتقبل وترد ، وليس مجرد حاك لآراء كما زعم عليه بعض نقاده المعاصرين

ويحاول ابن رشيق بعد الذى تقدم له من حديث الطبع والصنعة ان يوازن بين المذهبين من حيث القيمة الفنية ، وهو يميل الى أن المصنوع من الشعر . ادخل فى الفنية شريطة أن يصيب صاحبه به المحز ويطبق المفصل ، وشريطة ألا تبدو عليه سمات التكلف اواجهاد النفس، وهاهو ذا يقول :«ولسنا ندفع ان البيت اذا وقع مطبوعا فى غاية الجودة ثم وقع فى معناه بيت مصنوع

فى نهاية الحسن ، لم تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه التعمل ، كان المصنوع أفضلهما » (١) .

ويوصى ابن رشيق من يميل الى التصنيع الا تستهويه الصنعة فيستغرق فيها ، وانما عليه ان يجعل للطبع فى شعره نصيبا «وسبيل الحاذق بهذه الصناعة اذا غلب عليه حب التصنيع أن يترك للطبع مجالا يتسع فيه » تعليل ذلك عنده ان الاستغراق فى الصنعة كثيرا ما تدخل منه على الشاعر الغفلة والضعف ، ومجانية الصواب « وما يؤتى الشاعر من سوء المطالع وعدم ملاءمتها للمواقف فى كثير الا من غفلة فى الطبع وغلظ ، أو من استغراق فى الصنعة وشغل هاجس بالعمل يذهب معه حسن القول اين ذهب »فالشاعر حين يجرى وراء بديع يحققه ، أو جناس يأتى به فى شعره ينسى حق المعنى وما يتطلبه المقام .

ويذكر ان مما يدفع بالشاعر الى الصنعة ان ينصب قافية بعينها للبيت من الشعر كأن تكون ثالثة أو رابعة أو نحو ذلك لايعدو بها ذلك الموضع الا انحل عنه نظم أبياته »

وذلك عنده عيب شديد يجعل الشاعر محصورا على شىء واحد بعينه ومضيقا عليه وداخلا تحت حكم القافية . وهو لا يحب للشاعر ان يكون بتلك المنزلة لأنهم يقولون : ليكن الشعر تحت حكمك ولا تكن أنت تحت حكمه » (٢) .

(١) العمدة جـ ١ ص ١١١ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

ولابن رشيق مذهب فى صناعة الشعر وتجويده وان ذلك يكون بحسب الحال التى يقال فيها الشعر فشعر يقوله الشاعر فى خاص أموره وأحواله كالمدح والغزل ومجالس الندمان والشراب والمجون وماهو من هذه المواضع بسبيل . وفى هذه ، لا على الشاعر أن يرسل القول ارسالا لاينظر فى اعطافه ولا يحاول فيه تصنيعا .

وشعر يقوله فى الحفل يوم الجمع ، والعيون تنظر وتتشوف وفى هذا يجب له أن يتصنع لشعره ويعاود فيه النظر ، فيسقط الردىء ، ويثبت الجيد ، ويكون سمحا بالركيك منه ، مطرحا له، راغبا عنه . فان بيتا جيدا يقاوم بألف ردىء » ..

ويحبب ابن رشيق التصنيع الى الشعراء ويرغبهم فيه ويجرئهم عليه حين يذكر أن اميرهم امرأ القيس كان يتنخل من شعره وفى ذلك جاء قوله :

ازود القوافى على ذيادا ..

« فاذا كان اشعر الشعراء يصنع هذا ويحكيه عن نفسه فكيف ينبغى لغيره أن يصنع » . وكان ابو نواس يفعل مثل ذلك فينفى الدنى ويبقى الجيد » (١) .

واذا كان هذا هو الشعر ، ومنه شعر الطبع ، ومنه شعر الصنعة فان رأيا غريبا نجده لصاحب كتاب الطبع والصنعة ، فانه يرى أن

---

(١) العمدة جـ ١ ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

كل مايصدر عن الشعراء لابد أن يكون مصنوعا اذ عنده « أن الذى يرسل الحكمة ليرسل فى طيها أدب النفس ، أو الذى يريد نحو ذلك مما ترجع فيه الثمرة الى حقائق الحياة وقضايا العلم وضوابط الاجتماع لابد له ان يطلبه على الأغلب بالقصد السابق والنية المبيتة ، ولا يكون تبييت النية فى الشعر أو سبق القصد اليه الا أن نأتى اليهما والى مايراد بهما عن طريق الصنعة ، فليس للطبع مايؤهله للاغراض المبيتة بليل ، والمقاصد المطلوبة بعد سبق الاصرار . » (١) .

وهذا باب من تفسير الطبع والصنعة غير الذى نحن فيه ،وغير الذى اراده ابن رشيق فقد عنى بهما صاحب الترجمة تصنيع الشعر وتحقيق الحلى الفنية فى خلاله ، أو اطلاقه منها — أما الذى عناه من ينكر الصنعة على الشعر فشىء آخر يتصل بالتأهب لقول الشعر أو قوله على غير أهبة ، وحتى هذا الذى يذهب اليه هذا المفكر مردود ، فليس أحد ينكر ما للشعراء من الارتجال والقول على البديهة فى كثير من المواقف والمشاهد — والكتب حافلة بقصص ذلك — واسدال الشك عليها جميعا مناقض لأصول البحث ، وكثير من الشعراء ، وكثير من الشعر جاء — وفيه فصل القول — على البديهية ،وكم من بيت شرود لم يفكر فيه قائله ،وانما ارسله عفو الخاطر،ثم من هذا الذى قال ان على الشعراء ان يأتوا فى

(١) الطبع والصنعة ص ١٥ .

اشعارهم بحقائق الحياة ، وضوابط العلم ، وقضايا الاجتماع حتى يبيتوا لها النية ، ويقدموا الاصرار ؟ وهـذا هو البحترى يقـول :

كلفتمونا حـدود منطقـكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهـج با لمنطـق ماأصله وما سـببه
والشعر لمح تكفى اشـارته وليس بالهذر طـولت خطبه

ومنذ القديم قال ارسطو « والشاعر يصف الانباء كمـا هي أو كما يجب ان تكون ولا ينتظر منه التدقيق العلمى ـ المطلوب فى السياسة . واذا أخطأ الشاعر فى قوة التعبير فخطؤه فنى ،أما اذا أخطأ لجهله مسألة طبيعية أو طبية فلا لوم عليه لأن المطـلوب هو التعبير الفنى لا التدقيق العلمى » .

وكذلك ذهب صاحب « الفن ومذاهبه فى الشعر » الى أن الشعر الجاهلى كله مصنوع متكلف أيضا وقال عنه انه « ليس تعبيرا فنيا حرا ، بل هو تعبير فنى مقيد ، وليس تعبير الطبيعـة بل هو تعبير التكلف والصنعة » (١) وعمدته فى اصدار هـذا الرأى ان الشاعر كان يسعى جهده ليوفر فى شـعره كثيرا من القيم الصوتية والتصويرية ، وكان يلقى عناء شديدا فى هـذا التصور اذ نراه يتقيد بقيود كثيرة لاتقف عند الموسيقى والتصوير بل تتعدى ذلك الى الموضوعات والألفاظ .»

وردنا على هذا أيضا ان طبيعة الشعر ان تتوافر له القيم الصوتية والتصويرية ، ولا يكون الكلام شعرا من غير ان يتحقق له العنصران ؟ وكذلك الموضوعات والألفاظ ، اذ ماذا يكون الشعر ان لم يكن ألفاظا تدل على موضوعات ، بل ان الكلام المنثور ايضا لايكون بغير الفاظ وموضوعات وتصاوير وقيم صوتية . ولكن الذى نحن بصدده هو التفرقة بين من يتصنع للكلام ويحاول ان يحقق فيه من الصور الفنية مايمكن ان يخلو منه كلامه ثم يبقى وهو شعر او يبقى وهو نثر — وعلى مستوى رفيع من الفنية ،ذلك هو الذى نعنيه حين تتحدث عن الطبع والصنعة فى الشعر —وحين نقول ان الشعر الجاهلى تغلب عليه صفة الطبع فانما نعنى ان القصيدة منه على طول امتدادها قد تأتى وهى غسيلة من بديع أو جناس او طباق أو مشاكلة الى آخر ماهو معروف فى الاصطلاح باسم البديع ، بينما تأتى قصيدة أخرى لأبى تمام مثلا ، وقد ازدحمت بهذه الصور وأخذ بعضها بخناق بعض — ففى مثل ذلك لا يمكن ان نقول انها جاءت هكذا مزدحمة بالصور البديعية عن غير قصد كالقصيدة الجاهلية ، وانما نقول الأقرب الى الصواب ، والى منطق العقل أن القصيدة الجاهلية جاءت على السجية لم يحاول صاحبها ان يحقق فيها بديعا ، بينما قصيدة ابى تمام —ومن يشاكله — جاءت والشاعر قد أعنت نفسه وأرهقها حتى حقق فيها ما حقق من ألوان البديع وصوره . ذلك هو الذى نريده ، ولسنا نريد أن الشاعر الجاهلى لم يوفر « لشعره القيم الصوتية

والتصويرية » وحتى ماجاء فى الشعر الجاهلى من صور البـديع جاء بغير أن يقصدوا اليه أو يتعملوا له ، أو يتعمدوه ، ولذا نراه يسيرا فى شعرهم كالقبل أو كالخال اليسير فى الوجه الجميل يزيده جمالا . فأين مثل هذا من شعر المتأخرين الذين أثقلوا
يزيده جمالا . فأين مثل هذا من شعر المتأخرين الذين أثقلواشدهم شعرهم بضروب الزينـة اللفظية التى تكد الخاطر وتشغل النفس عما عساه أن يكون فى القصيدة من معنى بديع أو حكمة مستطرفة

الا أن ابن رشيق ابعد نظرا حين قسم الشعر والشعراء الى مطبوع ومصنوع ، والى مطبوعين ومصنوعين .

٧ - أوزان الشعر

لم يكن لابن رشيق بد — وهو يتحدث فى كتابه عن الشعر — من أن يتناول الأوزان بباب ، لأن الوزن عنده اعظم أركان الشعر وأولاها به خصوصية ، ولما كان حديثه فى الشعر انما هو ليمهد به الطريق امام الشعراء ، وكان يمكن ان يظن أن المعرفة بالأوزان تخلق من أى انسان شاعرا ، فقد بدأ حديثه فيها بقوله «والمطبوع مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان واسمائها وعللها لنبو ذوقه عن المزاحف منها والمستكره ، والضعيف الطبع محتاج الى معرفة شىء من ذلك يعينه على مايحاوله من هذا الشأن .

ثم يذكر أن للناس فى الأوزان كتبا كثيرة مشهورة وبينهم فى ذلك اختلاف ، وانه لن يتعرض لشىء من هذا . وانما سيأخذ نفسه فى حديثه بمذهب الخليل لأنه أول من تعرض لهذا العلم وكشف عنه ووضع أصوله وقواعده دون غيره ممن ألف فيه بعده كالأخفش والزجاج .

ثم يمضى ابن رشيق بعد هذه التقدمة يتحدث عن أنواع من العلل والزحاف مما لامحل لذكره فى هذه الترجمة

وكنا ننتظر منه وقد جعل الوزن أهم اركان الشعر أن يعرفا ولكنه مر بذلك دون وقفة عنده .

واتماما للفائدة نذكر ان الوزن هو ذلك التوقيع المنتظم الذى نلمسه فى كلمات البيت وموضوعه كما يقول ابن سينا : الأزمنة المتخللة بين النغم والنقرات ، أو هو نظام الحركات مراعى فيها التماثل والتكرار فى أجزاء البيت الواحد أولا ، ثم فى أبيات القصيدة جميعها ثانيا فصيغة فعولن مفاعلين بوزنها تتكرر اربع مرات فيكون من ذلك بيت على وزن نسميه بحو الطويل ، ثم تتوالى الأبيات على ذلك فتكون القصيدة كلها على هذا البحر والوزن ، والاخلال بالوزن فى بيت منها اخلال بموسيقى الشعر التى ارتضاها العرب أصحاب اللغة وشعراؤها .

ولما كان الوزن هو تكرار الأصوات على هيئة بعينها ، وكانت الأصوات هنا ليست الاصوات المطلقة ولا الطبيعية ـ كالذى يصدر عن الموسيقى ـ وانما الأصوات المتحققة عن طريق الكلمات والمتلبسة بالألفاظ ذات الدلالة الخاصة ، لما كان ذلك كذلك كان من العسير تحقيق ذلك التكرار تحقيقا تاما منضبطا لايتخلف بنقص أو زيادة لأن المعنى يتحكم فى الكلمة التى تحقق بدورها الوزن والصوت وعلى هذا تتبع العلماء ماعسى ان يكون من خروج على الوزن المنضبط فى صوره الكثيرة وأعنى بها البحور ، فى أوزانها التامة سواء كان الخروج بزيادة صوت أو بنقص صوت ،وسواء كان بتحريك ساكن أو تسكين متحرك ، وبينوا من ذلك ما يجوز وما لايجوز ، وما يلتزم فى جميع أبيات القصيدة لأنه يحقق جمالا وحسنا ، وما يرفض ويرد لما يترتب عليه من قبح الوقع

على الأذن ، وسموا علم ذلك كله علم الزحاف والعلل ، وقــالوا فيه : تجرى على تفاعيل الميزان الشعرى تغييرات كتسكين متحرك أو حذفه ، أو حذف ساكن أو زيادته ، أو حذف اكثر من حرف أو زيادته ، فهذا فى مجموعه هو مايشمله اسم الزحاف والعلل ! .

والذى تعرض له ابن رشيق ، ويستحق أن يذكر له أنه ــ وهو شاعر مرهف الحس ــ يناقش الوزن ، وهل المرجوع فيه الى الذوق ام الى العروض وقواعده ، وعند رجل كابن سنان الخفاجى وهو معاصره فى الشرق ، أن ماصح ذوقا وعروضا فهو مقبول ، وماصح عروضا دون ذوق فهو مقبول كذلك لأن الذوق ينبو عن بعض الزحافات وهى جائزة فى العروض ، وما صح ذوقا دون عــروض فهو مقبول أيضا لأن الذوق هو الأصل الذى عملت عليه العرب الأول (١) .

فأما اذا خرج الوزن عن الحس وعن أوزان العــرب فليس بصحيح ولا جائز لأنه لايرجع الى أمر يسوغه من ذوق أو عروض وهذه هى الأقسام كلها .

ولكن ابن رشيق لايرضى عن ذلك وانما يرد الأمر كله الى الذوق وعبر عنه بكلمة الطبع ، فقال : « ولست أحمل أحدا على ارتكاب الزحاف الا ماخف منه وخفى ، وتكلف العمل بالعــلم فى كل أمر أوفق الا فى الشعر خاصة فان عمله بالطبع دون العروض

---

(١) الفصاحة ص ٣٤٢ .

أجود لما فى العروض من المســـامحة فى الزحاف وهو مما يهجن الشعر ويذهب برونقه » .

وقيمة هذا الرأى فى الدراسات المتصلة بالشعر أنه يفتـح الباب أمام الأذواق التى ترتضى غير ماورد عن العرب فى أشعارها وأوزانها ، وعلى هذا فكل وزن جديد يسيغه الذوق فللشـعراء أن ينظموا فيه وان لم ينظم فيه الأسلاف من العرب .

على ان ابن رشيق اذ يبيح التجديد فى الأوزان يؤكد حتمية الجمال فيما يجدد الشعراء منها ، ولذلك نراه لايقبل كل ماهب ودب ، وانما يقبل ما يسيغه حسه المرهف ، وأذنه الموسيقية ومن ثم فهو يرفض ما اضطرب من الشعر بكثرة الزحاف .

وتدعوه هذه الفكرة ـ فكرة تغليب الذوق على علم العروض ـ الى أن يدعو الى زحاف يأتى قليلا فى الشعر فيضـفى على موسيقاه جمالا ،ويضرب له المثل بالجارية يكون فيها من القبل والفلج واللثغة مايكسبها حسنا وظرفا وخفة روح .

ومع هذا فهو يوصى بأن يأخذ الشاعر نفسه بركوب مستعمل الاعاريض ووطيئها ، وأن يستحلى الضروب ، ويختار ألطفهـا موقعا، وأخفها مستمعا ، ويوصيه بأن يتجنب عويصها ومستكرهها فان العويص مما يشغله ، ويمسك من عنانه ، ويوهن من قواه ، ويفت فى عضده ويخرجه عن معتقده » (١) .

---

(١) العمدة جـ ١ ص ١١٧ .

ويستقبح على أســاس من ذلك قصــيدة ابن الابرص التى أولهــا :

أقفــر من أهله ملحـــوب فالقطبيبــات فالجنـــوب

لما كثر فيها الزحاف كثرة نبت بها عن أن تستسيغ الأذن وقعها ويقول : ان الزحاف الذى يقع على هذه الصورة من الكثرة يخل بالــوزن .

ثم يذكر ان من الزحاف قبيحا لاتقبل عليه النفس كقبح الخلق واختلاف الاعضاء وسوء التركيب فى الناس . وان لم يتعدد ، ويسوق على هذا مثلا من الشعر ، أبياتا رواها المعــرى لامرىء القيس ، وأجازها العروضيون ولكن الحس ينبو عنها والطبــع ينفر منها ، قالوا : وهى أبيات من معلقته زاحفها البغداديون بزيادة واو فى أولها ، ومنها قوله :

وكان ذرى رأس المجيمر غدوة كبير أناس فى بجــاد مزمــل

وقوله :

وكأن ذرى رأس المجيمر غدوة شربن سلافا من رحيق مفلفل

وقوله :

وكأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى انابيش عنصل

فانك ترى كيف ثقل وقع الأبيات على الأذن لما زيدت فى اوائلها الواو .

وأخيرا يذكر ابن رشيق أن علم العــروض ليس بضروري للمطبوعين أن يعرفوه ، فالشعراء قالوا أحسن مالهم قبل أن يأتي الخليل بعروضه ، ولكن ضعاف الطبع في صنعة الشعر بحاجة الى معرفته أو معرفة شيء منه ، فان ذلك يعينهم على مايحاولون في هذا الشأن ، أما من لاطبع له ، وحرم الموهبة ، ولم يكن منها في قليل أو كثير فان علم العروض لايجدى عليه شيئا .

وبالجملة فان ابن رشيق عالج الوزن كأحسن وانفع مايكون علاج هذا الباب ، وألم باصوله في عمدته ، ووفاه حقه حتى ليغني عن الرجوع الي غيره من كتب ذلك العلم بحشوها وحشدها .

ويتعرض ابن رشيق بعد لما يسميه « الرخص في الشــعر » ويذكر أنه اذا كان الوزن والتزامه كثيرا مايدفع بالشاعر الى مخالفة اللغة في أصولها وقواعدها ، فان هذه المخالفة لابد وان تــكون ذات حدود ،وليست كل مخالفة ــ في سبيل تحقيــق الوزن مستساغة ، وانما تقبل من ذلك أمور كمنع المصروف من الصرف، وصرف الممنوع منه ووصل الف القطع .. وقبل من العــرب أشياء وردت ولكنه منع المحدثين من الأخذ بها وعلل بأن العرب جاؤوا بما جاؤوا عن جبلة وفطرة ، « فاما المولد المحدث فقد عرف أنه عيب ودخوله في العيب يلزمه اياه .

٨ - إنشاء الشعر

تنطق آثار العرب فى شعرهم بأنهم تغنوا به فى أسفارهم وفى مجامعهم ومجالسهم ، وربما كانوا بذلك يستعينون على مغالبة الحياة البدوية بشظفها ويبسها وعسرها ، أو انهم كانوا يتخففون بالتغنى من همومهم ، فان الغناء مما يعين على ذلك بما يؤخر من احساس الفرد بالجهد او بالهم زمانا ، وبما يصرف السامع عن اجترار أحزانه ومتاعبه وهمومه . وكأنى بالشاعر العربى عنى هذه الحقيقة لما قال

فان امس مكروبا فيارب قينة　　منعمة أعملتها بكران
لها مظهر يعلو الخميس بصوته　　أجش اذا ماحركته يدان

واذا كان الشعر وعاؤه الصوت ــ والعرب أمة تنشد أكثر مما تكتب ، فلا غرابة اذا نحن رأينا ابن رشيق يعقد لانشاد الشعر بابا .

ان العربى كان يرى سوء الاداء عيبا وسقم التعبير منقصة ، وهذا ابو عطاء السندى يدرك عدم القدرة على الالقاء الجميل للشعر فيطلب من سليمان بن كيسان الكلبى ان يوافيه بغلام يجيد الالقاء وذلك فى ابياته التى يقول فيها :

أعوزتني الرواه يابن سليم وأبى ان يقيم شعرى لسانى
فغلا بالذى يجمجم صدرى وشكانى لعجمتى شيطانى
فضربت الأمور ظهرا لبطن كيف احتمال حيلة للسانى
وتمنيت اننى كنت بالشعر فصيحا وبان بعض بنانى
فاكفنى مايضيق عنه رواتى بفصيح من صالح الغلمان
يفهم الناس ماأقول من الشـ عرفان البيان قد اعيانى

ولكيلا يتأثر حسن الجرس فى شعر زياد الأعجم بسوء تعبيره ونطقه يهدى اليه المهلب غلاما يجيد الالقاء عنه » (١) .

أقول ادرك صاحبنا قيمة الأداء والانشاد فى الشعر فعقد بابا لذلك قال فيه :

« ليس بين العرب اختلاف اذا أرادوا الترنم ومد الصوت فى الغناء والحداء فى اتباع القافية المطلقة مثلها من حروف المد واللين فى حال الرفع والنصب والخفض ، كانت ــ القافية ــ مما ينون أولا ينون فاذا لم يقصدوا ذلك اختلفوا فمنهم من يصنع فى حال الغناء والترنم ليفصل بين الشعر والكلام المنثور وهم أهل الحجاز ، ومنهم من لايفصل وانما ينونماينون ومالا ينون فاذا وصل الانشاد أتى بنون خفيفة مكان الوصل فجعل ذلك فصلا بين كل بيتين فينشد قول النابغة

بادارمية بالعلياء فالسند

---

(١) العربية لسير هاندك .

منونا الى آخر القصيدة ، لايبالى بما فيه الف ولام ، ولامضاف ولا بفعل ماض ولا مستقبل ، وهم ناس كثير من بنى تميم » .

وما يزال يتحدث عن طرائقهم فى الانشاد وتصرفهم بالألفاظ والقوافى بالزيادة والمد ، وتغيير الحركة ، ويرى انه مما يدخل فى شفاعة هذا الباب الغناء والحداء والتغيير ويذكر قول الشاعر :

تغن بالشعر أما كنت قائله ان الغناء لهذا الشعر مضمار

وقول ذا الرمة :

احب المكان القفر من أجل اننى به اتغنى باسمها غير معجم

ثم يذكر ان غناء العرب قديما كان على ثلاثة أوجه : النصب والسناد والهزج ، فأما النصب فغناء الركبان والفتيان ، وهو الذى سماه اسحق بن ابرهيم الموصلى : المرائى وهو الغناء الجنابى .

وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع ، الكثير النغمات والنبرات وهو على ست طرائق .

وأما الهزج فالخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم ثم يحكى ابن رشيق ان اسحاقا قال : كان هذا غناء العرب حتى جاء الله بالاسلام وفتحت العراق وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم فغنوا الغناء المجزء المؤلف بالفارسية والرومية وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير .

ولو أن العرب كانت قد عرفت التسجيل الصوتى ـ على النحو الذى نعرفه اليوم ـ لكانت لهذا الباب الذى عقده ابن رشيق قيمته ومع ذلك فستظل هذه الكلمات الموجزة فى الغناء وانشاد الشعر لابن رشيق من بين المراجع التى يرجع اليها عند دراسة العرب والغناء .

وهكذا يكون ابن رشيق الذى تحدث عن الأوزان ـ وهى الجانب النظرى فى دراسة موسيقى الشعر ـ قد حاول ان يضع شيئا يعين على استجلاء الجانب العملى فى هذه الموسيقى . وحسبه هذا محاولة طيبة فى التعريف بخصائص العرب فى القائهاوانشادها وغنائها .

انه خرج بهذا على كثير من تقاليد العروضيين من الاكتفاء بالدراسات النظرية الجامدة التى تجعل من عروضهم علمايستعصى على الكثيرين . أما هو فقد قرب الباب الى هواة الموسيقى ودارسيها .

٩ ـ القدماء والمحدثون

تدفع الرغبة فى الاستئثار بالفضل والمزية أهل كل صناعة الى ان يثيروا قضية القديم والمحدث ، وكل انسان فى هذه الحياة قديم محدث ، فهو قديم بالنسبة الى أخلافه وحديث بالنسبة الى أسلافه . ومن هنا تأتى أحاديث القدم والحداثة .

والشعراء ناس قبل كل شيء ، ومن ثم لم يكونوا بمنجاة من أن ينظروا النظرة ذاتها وهؤلاء هم الجاهليون ـ وهم فيما نرى أقدم طبقات شعراء العربية ـ كانوا ايضا ينظرون الى أنفسهم على أنهم محدثون فى عصرهم فزهير يقول :

ما أرانا نقول الا معارا ومعادا من من قولنا مكرورا

وعنترة يقول :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

وامرؤ القيس يقول :

عوجاء على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خذام

وهكذا كانوا يرون أنه قد ذهب الذين قبلهم بالكلام ، وما عليهم هم الا أن يقولوا كما قالوا ، أو يقولوا الذى قالوا .

ثم كان النقاد بعد ، فأرادوا أن يعرفوا جهود كل طبقة وأهل عصر فاذا هم يجعلون من الشعراء قدماء ومحدثين .

فلما جاء ابن رشيق لم يكن له بد هو الآخر من أن يقـــول « قدماء ومحدثون » وقد راعه ان من النقاد من يرد الفضل كله للأول ، ولا ينسب للمتأخر الا مانزر ، وكأن القدم يضـــفى على أهله روعة وجلالا يتحرج الناس معهما من أن يقولوا قولة الحق دائمـــا .

وفى مجال الشعر يقول صاحبنا « كل قديم من الشعر فهو محدث فى زمانه بالاضافة الى من كان قبله » ويحكى ان ابا عمرو بن العلاء كان يرى جـــريرا والفرزق مولدين وكان يقـــول يقصـــدهما :

لقد أحسن هذا المولد حتى هممت ان آمر صبياننا بروايته — وانما كانا مولدين بالنسبة الى شعراء الجاهلية والمخضرمين .وكان ابو عمرو لايرى الشعر الا ما كان للمتقدمين .

اما هو فمثل القدماء والمحدثين عنده كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهـــرة على هذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن . (١).

على أنه يعلل لتقديم بعض النقاد للمتقدمين على المحـــدثين وأن ذلك انما كان « لحاجتهم فى الشعر الى الشاهد وقلة ثقتـــهم فيما يأتى به المولدون » « ثم صارت لجاجة » .

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٧٤ .

وما ذهب اليه ابن رشيق صحيح فى جملته ، فاكثر الذين فضلوا القديم على الحديث كانوا من المشتغلين بالدراسات اللغوية المتصلة باللغة فى نحوها وصرفها ومتنها كأبى عمرو والأصمعى واضرابهما . فأما أصحاب الذوق والحس الفنى من نقدة الكلام كابن قتيبة واضرابه فلم يذهبوا مذهب أولئك وانما سلكوا طريقا هى أقرب للمعدلة اذ لم يتحيفوا شاعرا لتأخر زمانه به ، ولم يفضلوا شاعرا لتقدمه .

وعلى هذا يكون ابن رشيق قد اعطى كلا حقه ، ووضعه حيث يضعه شعره لا عصره . ويعجبه فصل كتبه شيخه عبد الكريم ابن ابراهيم النهشلى يقول فيه (قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن فى وقت مالا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد مالا يستحسن عند أهل غيره ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد ألا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال ، وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا فى غيره كاستعمال اهل البصرة بعض كلام أهل فارس فى اشعارهم ونوادر حكاياتهم — قال — والذى اختاره انا التجويد والتحسين الذى يختاره علماء الناس بالشعر ، ويبقى غابره على الدهر ، ويباعد عن الوحشى المستكره . ويرتفع عن المولد المنتحل ويتضمن المثل السائر والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة » .

وانما اعجب ابن رشيق بكلام شيخه هذا لأنه كلام يقوم على الموضوعية فى نقد الشعر فهو لم يفضل شعرا لقائله ، ولا لزمانه، وانما لما جاء عليه من بعد عن الوحشى المستكره ، وارتفاع عن المولد المنتحل مع ما يتضمن من المثل السائر والتشبيه المصيب ، والاستعارة الحسنة . ولهذا فانه يقول : وأنا أرجو أن أكون باختيار هذا الفصل واثباته هنا داخلا فى جملة المميزين ان شاءالله فليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من الناس دون طائفة ، لا يخرج من بلده ، ولا ينصرف من مكانه كالذى لفظه سائر فى كل أرض معروف بكل مكان .

ومع هذا فان ابن رشيق لا يمتنع من أن يجعل الشعراء اربع طبقات : جاهلى قديم ، ومخضرم ، واسلامى ، ومحدث ، ثم صار المحدثون طبقات اولى وثانية على التدرج وهكذا فى الهبوط .

ونلمح من خلال ذلك ميلا الى تأخر الشاعر بالزمان ، واذا صح ذلك يكون ابن رشيق قد نسخ مذهبه ، ولكنا حين نمعن النظر نرى ان مساق هذا التقسيم جاء ليحمل المحدثين على الوقوف على شعر المتقدمين ليفيدوا منه فان المحدث « اذا رأى أنه ساقة الساقة ـــ من حيث الزمان ـــ تحفظ على نفسه ، وعلم من أين يؤتى ، ولم تغرره حلاوة لفظه ، ولا رشاقة معناه ، ففى الجاهلية والاسلام من ذهب بكل حلاوة ورشاقة وسبق الى كل طلاوة ولباقة » (١) .

(١) العمدة ج ١ ص ٩٤ .

وابن رشيق بعد شاعر متحرر ، لايرى عيبا فى أن يخرج الآخر عن الأول والمحدث على القديم حتى يلائم بينه وبين بيئته وعصره ، وهذه دعوة تكشف من صاحبنا عن فكر لا يتشبث بالقديم لأنه قديم ، وانما يرى مشاكلة الزمان أجود من التعلق بأهداب الماضى مهما يكن ذلك الماضى ، وفى هذا يقول « ...وقد بينت أن طريق العرب القدماء قد خولفت الى ما هو اليق بالوقت وأشكل بأهله » وذلك بعدما انتقد بيتى ابى عون الكاتب :

تلاعبها كف المزاج محبة
لها وليجرى ذات بينهما الأنس
فتزيد من تيه عليها كأنها
غريرة خدر قد تخبطها المس

وقال فيهما : فلو أن فى هذا كل بديع لكان مقيتا بشعا ، فمن ذا يطيب له أن يشرب شيئا يشبه بزبد المصروع ، قد تخبطه الشيطان من المس . » (١) .

بل انه يذهب الى ان للمحدثين من المعانى والصور ما ليس للمتقدمين وينقل فصلا طويلا عن أبى الفتح عثمان بن جنى يتحدث فيه عن أولئك المتأخرين ، وانهم اتسعت بهم الأرض وانتشروا بالاسلام فى أقطارها فمصروا الأمصار وحضروا الحواضر وتأنقوا فى المطاعم والملابس ، وعرفوا بالعيان عاقبة

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٧٠ .

مادلتهم عليه بداهة العقول .. ثم يقـول ابن رشـيق : والذى ذكره ابو الفتح صحيح بين ... ويذكر نماذج من تشابيه أولئـك المولدين كابن المعتز وابن الرومى وغيرهما . ومخافة أن يظن به الجور على المتقدمين من الشعراء العرب يقول « ولم أدل بهـذا البسط كله على أن العرب ـ وهم القدامى ـ خلت من المعانى جملة ، ولا أنها افسدتها لكن دللت على أنها قليلة فى أشعارهم تكاد تحصر لو حاول ذلك محاول ، وهى كثيرة فى اشعار هؤلاء وان كان الأولون قدنهجوا الطريقونصبوا الأعلامللمتأخرين»(١)

وهكذا ينصف ابن رشيق أولئك وهؤلاء بغض النظـر عن الزمان أو القدم أو الحداثة .

وينصف ابن رشيق حين لا يكلف المحدثين أن يأتوا بمثـل ما أتى به المقدمون من أوصاف ومعان لأنه يعلم ان لكل بيئـة صورها وأفكارها ومعانيها فيقول : « وأطرح عن المحدث المولد ما كان من جنس تشبيه النعامة للطرماح وصفة الثور الوحشى له أيضا ، وصفة مغارز ريش النعامة اذا أمرط للشماخ ومثـل بيت العنكبوت فيما يمتد من لغام الناقة تحت لحيها فى شعر الحطيئة، وتشبيه الذباب بالأجذم ، ولحيى الغراب بالجلم لعنترة ، واشباه هذا مما انفردت به الاعراب والبادية كعادتها ، كانفرادها بصفات النيران ، والفلوات الموحشة ، وورود مياهها الآجنة ، وتعسـف

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٢٦

طرقاتها المجهولة ، الى غير ذلك مما لا يعرف الا عيانا اذا كان المحدث غير مأخوذ به ولا محمول عليه » (١)

وينصفهم أيضا حين يقول : على أنهم شاركوا القدماء فى كل ما ذكرته أيضا الا أن اولئك أولى به ، واحق بالتقدمة فيه كما خالطوهم فى صفات النجوم ومواقعها والسحب وما فيها من البروق والرعود والغيث وما ينبت عنه وبكاء الحمام وكثير مما لا يتسع له هذا الباب » (٢) .

ثم يحكى بعد ذلك كثيرا مما انفرد به المحدثون من مثل قول بشار :

يا قوم اذنى لبعض الحى عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا : بمن لاترى تهذى ؟ فقلت لهم
الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقوله فى المعنى ذاته :

قالت عقيل بن كعب اذ تعلقها
قلبى وأمسى به من حبها أثر
أنى ، ولم ترها ، تهذى ؟ فقلت لهم
ان الفؤاد يرى مالا يبصر البصر

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٢٨.

(٢) العمدة جـ ٢ ص ٢٢٩.

وقوله :

وكيف تناسى من كأن حديثه
بأذنى — وان غيبت — قرط معلق

وقول أبى نواس :

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المنام الا شميما
نالنى بالملام فيها امام لا أرى لى خلافة مستقيما
فاصرفاها الى سواى فانى لست الا على الحديث نديما
أكبر حظى منها اذا هى دارت أن أراها أو أن اشم النسيما
فكأنى وما ازين منها قعدى يزين التحكيما
كل عن حمله السلاح الى الحرب فأوصى المطيق ألا يقميا

ويختم اختياره بأبيات من شعر ابن الرومى يقول فيها : ولم اسمع احسن منها فى معناها — وهى :

وما يعتريها آفة بشرية
من النوم الا أنها تتبختر
وغير عجيب طيب انفاس روضة
منورة باتت تراح وتمطر
كذلك أنفاس الرياح بسحرة
تطيب ، وأنفاس الورى تتغير

وهكذا لا يضر المتأخر تأخره اذا أجاد ، كما لا ينفع المتقدم تقدمه اذا هو أساء .

وهكذا أيضا رأينا ابن رشيق فى قضية القدماء والمحدثين وهو حر الرأى لا تستعبده العبارة لغيره ، ولا يمشى فى ركاب سواه ، الا أن يؤمن بصحته وسلامته ولذلك نراه فى مطالع القصائد لا يذهب فيها الا مذهبا يرتضيه هو ، وذلك حيث يقول: وللشعراء مذاهب فى افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب ، واستدعاء القبول بحسب ما فى الطباع من حب الغزل والميل الى اللهو والنساء ، وان ذلك استدراج الى ما بعده ، ـ ثم يقول ـ ومقاصد الناس تختلف فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال ، وتوقع البين ، والاشفاق منه ، وصفة الطلول والحمول والتشوق بحنين الابل ، ولمع البرق ، ومر النسيم وذكر المياه التى يلتقون عليها والرياض التى يحلون بها ومافيها من خزامى وأقحوان ، وبهار وحنوه وظيان وعرار ، وما أشبهها من زهر البرية الذى تعرفه العرب ، وتنبته الصحارى والجبال ، وما يلوح لهم من النيران فى الناحية التى بها أحبابهم ولايعدون النساء اذا تغزلوا او نسبوا ، فان وقع منهم مثل قول طرفة .

وفى الحى أحوى ينفض المرد شادن

مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد

فانما هو كناية بالعزل عن المرأة .

وأهل الحاضرة يأتى أكثر تغزلهم فى ذكر الصدود والهجران والواشين والرقباء ومنعة الحراس والأبواب وفى ذكر الشراب والندامى والورد والنسرين والنيلوفر وما شاكل ذلك من النواوير

البلدية ، والرياحين البستانية ، وفى تشبيه التفـاح والتحيـة به ودرس الكتب وما شاكل ذلك مما هم به منفردون وقـد ذكروا الغلمان تصريحا .. كما يذكر أحدهم الابل ويصف المفاوز عـلى العادة ولعله لم يركب جملا قط » ... وهكذا يلمح ابن رشيق أثر المكان فى البادية والحاضرة كمـا يذكر أثر الزمان فى القدماء والمحدثين .

***

١٠ - السرقات

والحديث فيها وثيق الصلة بحديث النقد الذى انعقد له فى الجملة كتاب العمدة لصاحب الترجمة ، ذلك ان الحديث فى السرقات ان هو الا حديث فى المعانى والصور وتناقلها بين الشعراء شعراء على احسان وزيادة أو على اساءة ونقصان .

والنقاد نظروا فى انتاج الشعراء من حيث الابداع والابتكار والأولية ثم من حيث التقليد والتوليد والأخذ والتبعية ،وانتهى بهم النظر الى أن هناك من الشعر ما قيل على غير مثال او احتذاء ، وضربوا لذلك المثل بكثير مما قال امرؤ القيس من مثل قوله :

سموت اليها بعدما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

وقوله :

وبيضة خدر لا يرام خبازها
تمتعت من لهوبها غير معجل
تجاوزت احراسا اليها ومعشرا
على حراصا لو يسرون مقتلى

تصد وتبـــدى عن أسـيل وتتقى
بنـــاظرة من وحش وجرة مطفـل

وتضحى فتيت المســك فوق فراشــها
نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضـــل

الى أمثال ذلك حتى قالوا « انه أول من طرق هذه المعـانى وابتكرها وسلمها له الشعراء فلم ينازعه احد اياها . »

فلما كان ابن رشيق لم يسعه الا أن يخوض فى الذى خاضوا فيه فكتب فى عمدته فصلا طويلا تحدث فيه عن السرقات وانواعها كما كتب كتابه الصغير او رسالته المسماة بقراضة الذهب فى نقد أشعار العرب ، وقد كان صـادق الحس النقـدى حين قرر أن الحديث فى السرقات باب متسع جدا لأن أحـدا من الشـعراء « لا يقدر أن يدعى السلامة منها ، وفيها أشياء غامضـة الا على البصير الحاذق بالصناعة »

وهو قد قسم الشعر الى مخترع وهو مالم يسبق اليه قائله ومنه أبيات امرىء القيس المتقدمة ومولد وهـو أن يسـتخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد فيه زيادة ، ومثـل هذا ليس اختراعا لما فيه من الاقتداء بالغير ، وضرب له المثل بقول عمر بن أبى ربيعة :

فاسـقط علينـا كسـقوط النـدى
ليــــلة لاناه ولا زاجـــر

قالَ : فانه ولد معنى مليحا اقتدى فيه بقولَ الضليلَ :

سموت اليها بعد ما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حالِ

من غير أن يشركه فى شيء من لفظه ، أو ينحو نحوه الا فى المحصول ، وهو لطف الوصول الى حاجته فى خفية .

واما التوليد بزيادة فمثله قول عدى ابن الرقاع :

تزجى أغن كأن ابرة روقه
قلم أصاب من الدواة مدادها

فانه أخذه من قول جرير :

يخرجن من مستطير النقع دامية
كأن آذانها أطراف أقلام

يقول ابن رشيق : فان عديا ولد بعد ذكر القلم اصابته مداد الدواة بما يقتضيه المعنى اذ كان القرن أسود .

ومنه أيضا قول نصيب لمولاه عمر بن عبد العزيز :

فأنت رأس قريش وأنت سيدها
والرأس فيه يكون السمع والبصر

فانه مأخوذ من قول أمية بن الصلت يمدح عبدالله بن جدعان :

لكل قبيلة شيخ وصلب
وأنت الرأس أول كل هاد

وفرق ابن رشيق بين السرقة والتوليد بأن التوليد خير أن كان فيه اقتداء الا أن الشاعر فيه ليس آخذا قول السابق على وجهه ، وانما يأخذ الفكرة ثم يصوغها صباغةجديدة اويزيد فيها، لكن هذه التفرقة ليست بذات بال لأن عبد الكريم النهشلى وهو شيخ ابن رشيق يقول « السرقة فى الشعر مانقل معناه دون لفظه، وأبعد فى أخذه . وعلى هذا فتفرقة صاحبنا فى غير موضعها .

وللعلماء فى ذلك آراء كثيرة يحكيها ابن رشيق فى الباب المعقود لهذا فيذكر منها أنواعا كثيرة ، فالسلخ ، والاصطراف، والالمام ، والموارده ، والاختلاس ، والاجتذاب ، والاستلحاق ، والاجتلاب ، والانتحال ، والغصب ... الى آخر الأقسام التى يعددها ويستشهد لها فيما يزيد على خمس عشرة صفحة والذى يعنينا أن منهجه فى الباب منهج المقنن الذى يضع الحدود والتعاريف لكل قسم ثم يستشهد له كأن يقول :

وأما المرافدة فأن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له كما قال جرير لذى الرمة :

أنشدنى ما قلت لهشام المرئى فأنشده قصيدته :

نبت عيناك عن طلل بحزوى　　محته الريح وامتنح القطارا

فقال له : ألا أعينك ؟ قال ذو الرمة : بلى بأبى وأمى ، قال : قل له :

يعد الناسبون الى تميم　　بيوت المجد أربعة كبارا

يعــدون الرباب وآل ســعد — وعمــرا ثم حنظلة الخيــارا
ويهلك بينها المــرئى لغــوا — كما ألغيت فى الدية الحوارا

فلقيه الفرزدق فاستنشده ، فلما بلغ هذه قال : جيد ، أعده فأعاد ، فقال : كلا والله ، لقد علكهن من هو أشد لحيين منك . هذا شعر ابن المراغة .

يقول ابن رشيق : وأما النظر والملاحظة فمثل قول مهلهل :

انبضوا معجس القسى وابرقنا كما توعد الفحول الفحولا

نظر اليه زهير بقوله : -

يطعنهم ما ارتموا حتى اذا أطعنوا
ضارب حتى اذا ما ضاربوا اعتنقا

وأبو ذؤيب بقوله :

ضروب لهامات الرجال بسيفه — اذا حن نبــع بينهــم وشريح

وهــكذا الى أن يقول : وكانوا يقضــون فى السرقات ان الشاعرين اذا ركبا معنى كان أولاهما به أقدمهما موتا ، وأعلاهما سنا ؛ فان جمعهما عصر واحد كان ملحقا بأولاهما بالاحسان ، وان كانا فى مرتبة واحدة روى لهما جميعا ــ يقول ــ وانما هذا فيما سوى المختص الذى حازه قائله ، واقتطعه صاحبه ، ألا ترى أن الأعشى سبق الى قوله :

وفى كل عام أنت جاشم غزوة — تشد لأقصاها عــزيم عزائكا
مورثه مجدا وفى الأصل رفعة — لما ضاع فيها من قروء نسائكا

فأخذه النابغة وقال :

شعب العلافيات بين فروجهم والمحصنات عوازب الأطهار

قال : وبيت النابغة خير من بيت الأعشى باختصاره ، وبما فيه من المناسبة بذكر الشعب بين الفروج ، وذكره النساء بعد ذلك ، وأخذه الناس من بعده فلم يغلبه على معناه أحد ، ولا شاركه فيه ، بل جعل مقتديا تابعا وان كان مقدما عليه فى حياته وسابقا له بمماته .

وهكذا يمضى ابن رشيق فى الباب الى أن يقول : وفى أقل مما جئت به كفاية .

أما تناوله للموضوع فى رسالته قراضة الذهب فيرجع الى أنه هو كان قد رثى الأمير أبا منصور بقوله :

الم ترهم كيف استقلوا ضحى الى كنف من رحمة الله واسع

امام خميس ماج فى البر بحره يسير كمتن اللجة المتدافع

اذا ضربت فيه الطبول تتابعت به عذب يحكى ارتعاد الأصابع

تجاوب نوح بات يندب شجوه وأيدى ثكالى فوجئت بالفواجع

وأن أبا الحسن على ابن القاسم اللواتى كان قد استحسن معنى البيتين الأخيرين ، وأن بعض من لاخلاق له فى الأدب ، ولا معرفة له بحقائق الكلام عارض فيهما بالطعن ، ونازعه معناهما بالجهل ، وادعى عليهما ضربا من السرق ، ونوعا من الأخذ ، فعز ذلك على ابن رشيق ، وكبر عليه أن يتهم فى شعره بالأخذ من

غيره ، فكتب الرسالة يفسر بها متى يكون الشاعر سارقا ، وقال ان المعنى المأخوذ ـ على مايزعم المعترض ـ انما هو قول عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى يصف مايحدث عند اندفاع الجدول فى الماء من تلك الرغوة والنفاخات :

قد صاغ فيه الغمام أدمعه دررا ورواه جدول غمر

تجيش فيه كأنما رعشت اليك منه أنامل عشر

ثم يقول : فان كان المعترض أراد ذكر هذا الارتعاد والارتعاش ، وذكر الأصابع والأنامل فصدق ، الا أن هذا لا يعد سرقة فى السرق لعلل شتى منها أن القصد غير واحد . . ولو أن هذا الناقد كان بصيرا ، لنظر نظر تحقيق ، وتأمل تأمل رفيق ، فعرف بعد ما بين المقصدين على قرب ما بين اللفظين ، ولم يكن ذلك عنده محظورا لأن عبد الله بن المعتز يقول فى صفة جدول :

كفيل لأشجارها بالحياة اذا ما جرى خلته يرتعش

وليس لفظة الارتعاش من خاص البديع .

ذلك سبب تأليف الرسالة ، وان موضوعها كان السرقة فى الشعر . وعلى هذا يمضى ابن رشيق فيذكر : « انه لو عد مثل هذا سرقة لم يسلم شيء من الكلام » كيف وهو كثير باللفظ وغير اللفظ ! ثم يأخذ فى سوق نماذج منه تشهد بأن المعنى اذا كثر واشتهر ، وتصرف الناس فيه هذا التصرف لم يسم آخذه سارقا ؛ لأن المعنى يكون قليلا فيحصر ، ويدعى صاحبه مبتدعا ، وآخذه

سارقا ، فاذا شاع وتداولته الألسن بعضها من بعض تساوى فيه الشعراء الا المجيد ، فان له فضله ، أو المقصر فان عليه درك تقصيره الا أن يزيد فيه شاعر زيادة بارعة مستحسنة ، يستوجب بها ويستحقه على مبتدعه ومخترعه » .

ثم يذكر ابن رشيق ان السرقة انما تكون فى البديع النادر والخارج من العادة ، وذلك فى العبارات التى هى الألفاظ كقول أبى عبادة البحترى يصف سيفا :

حملت حمائله القديمة بقلة   من عهد عاد غضة لم تذبل

فقد قال ابن المعتز متبعا له وآخذا منه :

ويهزون كل أخضر كالبقلة   ماض على القلوب رسوب (١)

ــ وكذا ــ وعنده أن ما كان الناس فيه شرعا واحدا من «مستعمل اللفظ الجارى على عادتهم وعلى ألسنتهم ، وكذلك ما كان من المعانى الظاهرة المعتادة فانها معرضة للافهام متسلطة على فكر الأنام .

ثم يمضى يذكر أنه يأتى على ذلك كله فى الرسالة وأنه يقتصر فى أكثر الذى يورده على امرىء القيس لأنه المقدم لا محالة وان وقع فى ذلك بعض الخلاف .

ويأخذ ابن رشيق يسوق من مختاره لامرىء القيس ثم يذكر الذين أخذوا منه ، ويشير الى مابينه وبينهم على

(١) قراضة الذهب ص ١٤ .

سبقه وتأخرهم : كأن يقول : وقال ــ امرؤ القيس ــ يذكر فرسا طــــرد عليهــا الوحش :

ذعرت بها سربا نقيــا جلوده   واكرعه وشى البرود من الخال
كان الصوار اذا تجاهدن عدوة   على جمزى خيل تجول بأجلال

أخذه ذو الرمة وهو أحد المشبهين ، وثانى امرىء القيس فى التشبيه ، فقال :

وموشية سحم الصياصى كأنها   مجللة حق عليهــا البراقــع
حزونية الأنساب أو أعوجية   عليها من القهز الملاء النواصع
تكشفن منها عن خدود وشمرت   أسافلها من حيث بان الأكارع

فجاء به كما ترى فى ثلاثة أبيات .

وعلى هذا النحو من العرض يمضى ابن رشــيق دالا بكثرة مايسوق من الأمثلة والشواهد على سعة الرواية ووفرة المحفوظ ، وبما يبدى من الرأى فى كل الذى يعرض على ثقابة بصر ، ومعرفة بمنازع الكلم ومآخذه . وفضل بعضه على بعض كأن يروى قول امرىء القيس يصف حلى امرأة :

كأن على لبــاتها جمر مصطل   أصاب غصنا جزلا وكف بأجزال

فيشرحه على نحو لا يدع لشارح بعده مكانا فيقول : «ذكر الجمر ثم شبه به الحلى ، ثم ما كفــاه الى أن جعله جمر غضا ،

---

(1) العمدة جـ ٢ ص ٢٧٦ ــ ٢٧٧ .

وهو أبقى ، ثم جعله جزلا ليكون أشد لوقوده وأعظم لنوره ، وان كان أراد به الكثرة ، من قولهم : عطاء جزل ، فقد جعله مختارا لأن من وجد شيئا كثيرا اختار أفضله ، ثم جعله مكفوفا بالأجزال زيادة فى المبالغة ، وقوله جمر غضا مصطل لأنه يقلب الجمر فتظهر حمرته ، وهذا نهاية لا يتناوله أحد على هذه الصفة الا افتضح . وقد أخذه النابغة فقال :

يضىء الحلى فى اللبات منها كمثل الجمر بدد فى الظلام

يقول : فأجاد الا أنه دون امرىء القيس لما فى مبالغته من اللبس .

ذلك نموذج من صنيع ابن رشيق فى الرسالة .

ويحسن ابن رشيق تفسير الظواهر الأدبية كأن يقول : وأقل من الاتفاق فى قسيم ، الاتفاق فى البيت بأسره ، وسبيله سبيل القديم فيما تقدم من الاعتذار عنه وان كان أبعد،غير أن أبا عمرو ابن العلاء سئل عن بيتى امرىء القيس وطرفة ــ يريد قول الأول :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقول الثانى :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

فقال : عقول رجال توافت على ألسنتها .

يقول ابن رشيق : وكان هذا كثيرا ما يعرض للفرزدق ، اما نسيانا واما تغلبا ، لأنه كان راوية للشعر ، مكثرا منه ، قاهرا

لشعراء عصره ، مهيبا فيهم ، ولم يكن أحدهم يرميه بالعجز والتقصير فينسب ما يأخذه الى السرق ، لأنه ما تعاطى شيئا يفوته عمل مثله ، الا أن جريرا كان يرميه بالسرق والاجتلاب ، والاجتلاب أن يرى الشاعر بيتا يصلح لموضع من شعره فيجتلبه . وقد فعل ذلك جرير فى بيتى المعلوط السعدى :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا

ولابن رشيق فى مثل ذلك رأى لا يصدر الا عن مثله ممن قال الشعر وخبر صنعته ، وذلك اذ يقول : « والذى أعتقده وأذهب اليه أنه لم يخف على حاذق بالصنعة أن الصانع اذا صنع شعرا ما ، وقافية ما لمن قبله ، وكان من الشعراء شعر فى ذلك الوزن وذلك الروى ، وأراد المتأخر معنى به فأخذ فى نظمه أن الوزن يحضره ، والقافية تضطره وسياق الألفاظ يحدوه حتى يورد نفس كلام الأول ومعناه ، حتى كأنه سمعه وقصد سرقته ، وان لم يكن سمعه قط ، وعلى هذا يحمل ما كان من شعر امرىء القيس وطرفة لو كان فى عصره ، وان كان لم يسمع قصيدته كما زعم ، وقد استحلف على ذلك فحلف .

وأما مايحكى عن الفرزدق وجرير فى الجيمية ، واتمام الفرزدق كل بيت أنشد صدره بعجز ما قال جرير سواء فانما ذلك لمعرفته بطريقه ومنحاه فى الشعر ، وكذلك ما يحكى عنهما فى الدالية المنصوبة ، وقول كل واحد منهما : كأنك بفلان قد قال

كذا ، فأتى بالبيت المقول ، على ما قال انه يقال عليه . فانه كان لأن المناقضة بينهما طالت حتى عـرف كل واحد منهمـا مرمى صاحبه ومغزاه فى المناقضـة كأن المعنى يقتضى جوابا ونقضـا لا يعدوه ، فهذه العلة فيما جرى بينهما من الموافقات التى وردت بها الأخبار وهى موافقات كثيرة .

ويدق ابن رشيق حين يلحظ الفروق بين المعانى ، ويقـارن بينها ويمايز كالذى يقوله فى مثل قول الثعالبى :

اذا زنت عينى بهـــا فبالدموع تغتســـل

وقول ابن هندو :

يقولون ما بال عينك مذ رأت مسامع هذا الظبى أدمعها هطل
فقلت زنت عينى بطلعة وجهه فكان لها من صوب أدمعها غسل

وقول المتنبى :

اذا ما فارقتنى غســـلتنى كأنا عاكفـان عـلى حـرام

يقول : وابو الطيب أحسن لفظا لقوله :

كانا عاكفان على حـرام

وصح له ذلك لقــوله ــ قبله ــ

وزائرتى كأن بها حيـــاء

فالزيارة والحياء يقتضيان ما أشار اليه لأنهما ليسا من شأن الزوجة ، ولكن من شأن المعشوقة ، ولم يصرح ابو الطيب بلفظ الزنا كما صرح الثعالبى وابن هندو ، ومع ذلك فمعناه أصح بنية

وأكثر تمكنا من جهة أخرى وذلك انه وصف من نفسه وزائرتـه ذكرا وأنثى ، والزناقد يقع بينهما ، وذكرا زنا بين مؤنثين ، فقال الثعالبى :

« اذا زنت عينى بها » وقال ابن هندو « زنت عينى بطلعـة وجهه » ولو قال زنى ناظرى أو لحظى لكان أصح ، لأن الانثى وهى العين لاتزنى « بالطلعة ولا بالانسانة ، وقد قالت اعـرابية لرجل رأته يلحظ ابنتها :

وهل لك منها غير أنك ناكح

بعينيك عينها ؟ فهل ذاك نافع

فأضافت النكاح اليه كالفرجين فصح المعنى » (١) .

واخيرا يتعقب الشعراء ويذكر من أشعارهم التى هى من شعر غيرهم ولكن أحدا لايعلم ذلك الا فى الندرة ، ويـذكر أبيـات بشـار :

اذا كنت فى كل الامور معاتبا — صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه
فعش واحدا أو صل اخاك فانه — مقارف ذنب مرة ومجـانبه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذ — ى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

ويذكر ان ابن عروة الضبعى ينسبها للمتلمس .

وكذا قوله :

اذا ما غضـبنا غضـبة مضرية

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

---

(١) قراضة الذهب ص ٤٤ / ٤٥ .

وانه لعجيف العقيلى ـ ويذكر مثـــل ذلك فى جنب ابى العتاهية وابى نواس ومنصور النمرى وغيرهم .

ثم يختم الرســالة التى دارت مادارت حـــول السرقات ، بالاعتذار لنفسه فيما اتهم به من السرق فى قوله :

اذا ضربت فيــه الطبــول تتــابعت

البيتان ــ وقد تقـــدما .

ويقول : فاين تقع نقطتى من دائرة هؤلاء الجلة ، وقطرتى من بحــارهم .

ويخاطب اللواتى فيقول : « ولولا انها مجاراة أدب ،وتجديد مودة ، لاقتصرت من جميع ما اوردت على معرفتك وسعة روايتك غير رافع رأسا ممن أنطقه الحسد وأسكته الكمد ، ثم ينشــده قـــوله :

دونكهــا ياســيد الاحــرار	وواحد العصر بل الأعصــار
رســالة بينـــة الأعـــذار	باحت بما تخــفى من الاسرار
كأنها من جودة العيــــــــار	« قراضة من ذهب » الدينار
اليك جاءت لا الى الممــارى	هل يعرف التبر سوى التجار

وهكذا قدم ابن رشيق فى باب السرقات ، وفى قراضةالذهب معرفةخبير بالاشعار عارف بمداخلها ومآخذها ومصادرها ومايكون بين البيت والبيت والكلمة والكلمة ، من خفى الأخذ ودقيــق الشـــبه .

١١ - فنون الشعر

اذا كان ابن رشيق قد درس الشعر من حيث معناه ولفظه ومن حيث اوزانه وقوافيه ، ومن حيث أزمنة الشعراء ومذاهبهم فيه من ارسال النفس على سجيتها أو أخذها بالصنعة والتصنيع فانه لم يفته ان ينظر فى أعطافه من ناحية أغراضه .

والنظر فى الشعر من حيث الاغراض انما هو نظر فيه من جهة الوجدان والعاطفة التى يتلبس بها الشاعر ، والتى تملك عليه نفسه وحسه ساعة يقول الشعر كأن تكون الحزن او الشوق أو الرضا او الاعتزاز بالنفس أو التخضع والتزلف فيكون من وراء ذلك الرثاء والنسيب اوالمدح أوالفخر أو العتاب الى آخر الحالات النفسية التى يقال فيها الشعر . يقول تشارلتن : « والقصيدة الغنائية أنواع تختلف باختلاف العاطفة التى تعبر عنها ، فهناك الأغانى ، وقد تكون الأغنية مما يتغنى بالحب أو بالشراب أو بجمال الربيع أو بألوان لاتنتهى من ألوان الغناء ، ولكنها فى مجموعها تعبر عن المشاعر التى يشترك فيها الشاعر مع غيره من الناس على الرغم مما لها من قوى الأثر فى حياة الشاعر خاصة .

وربما كان أول من قسم الشعر على ذلك الاساس ، وجمعه فى كتاب هو صاحب الحماسة ابو تمام ٢٣١ هـ فقد تخير منه فى كتابه الحماسة ولم يجد لتبويبه اساسا خيرا من العاطفة التى صدر عنها ماتخيره ، واذا هو عنده عشرة أبواب أولها الحماسة وبه سمى الديوان واستغرق منه أكثر من ثلثه ثم تتابعت بعد ذلك ابوابه وهى المراثى والأدب ، والنسيب والهجاء ، والأوصاف والمديح ، والصفات ، والسفر والنعاس والملح وآخرها باب مذمة النساء .

وتتابع النقاد ينظرون على هذا الاساس فى أعطاف الشعر العربى . مع تجوز فى عدة الأبواب فمنهم من يزيد الاقسام ومنهم من يختصرها ، فاذا كان ابو تمام رآها عشرة فان رجلا كقدامة بن جعفر حصرها فى ستة ، ومدها الى ثمانية وعشرين أبو الاصبع .

فأما ابن رشيق فقد جعلها عشرة وهى النسيب والمديح والافتخار والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب والوعد والانذار ، والهجاء والاعتذار ثم الوصف .

ويخيل لى ان حياة ابن رشيق فى عصر يتكسب بالشعر ، والشعراء يعيشون فيه على مايقولون ـ يخيل ـ لى أن ذلك كان له أثر فى تقسيمه الشعر وفى ترتيب ابوابه فى كتابه ، وكأنى به تصور الشعر يقال ابتغاء العطاء وذلك يستدعى شعر المديح فاذا حرم الشاعر أو منع كان العتاب فان لم يجد فالتوعد والانذار

فاذا لم يبالهما الممدوح فالهجاء ولا على الشاعر أن يعتذر بعد ذلك ، واذا مات صاحب الايادى على الشاعر فالرثاء . وتبقى بعد ذلك ابواب النسيب والفخر والوصف وهى أبواب تصدر عن عوامل غير باب النوال والعطاء ، تصدر عما يجده الشاعر فى نفسه من تعلق بالاحباب او اعتزاز بالنفس أو تأثر بوقع الصور عليها . هذا تصور لتعليل مجيء الأبواب عشرة عند ابن رشيق ويمكن ان يكون لذلك غير هذه العلة فالمسألة تقبل الاجتهاد فى ارجاعها الى علل وأصول . وليست محصورة فى رسوم بعينها والا فأين شعر الفلسفة والمنطق وشعر الحكمة والمثل كالذى نراه عند أمثال ابى العلاء والمتنبى وصالح بن عبد القدوس وعمر بن الفارض وغيرهم .

وقبل ان نمضى فى حديث الفنون عند ابن رشيق نشير الى ما أثاره الحمصى فى كتابه منهل الوراد فى علم الانتقاد فانه عندما تحدث عن بوالو الشاعر الفرنسى وعن ارجوزته الطويلة التى جمع فيها قواعد الشعر وأنواعه وأبوابه ، أشار الى ابن رشيق وذكر أنه لايظن ان بوالو اطلع على قصيدة صاحبنا ، ولا على مؤلفاته فى هذا المبحث (١) ولكنه يعود فيقول ان ابن رشيق ذكر من صنوف الشعر وفنونه المدح والنسيب والهجاء بالتصريح .. وان بوالو ذكر هذه الاجناس أو الأنواع فى قصيدته صناعة الشعر وزاد عليها التراجيديا والكوميديا » (٢) .

---

(١) منهل الوراد ص ١٤٨ . (٢) منهل الوراد ص ١٧٤ .

ونحن نعلم أن بوالو متأخر على ابن رشيق ، وانه نظم ارجوزته التى اشار اليها الحمصى سنة ١٦٧٤ م ومنهجه فيها يشبه منهج ابن رشيق من حيث تقسيم الشعر الى فنون ، فهل لنا أن نشك ـ على الأقل ـ فى أنه اطلع على منهج ابن رشيق ؟ وأى مانع يمنعنا من اثارة ذلك ، واى غرابة فى أن يأخذ بوالو عن صاحبنا وقد كانت الثقافة الغربية يوما ما تنهل من آثار العرب ، وابن رشيق عاش فى الساحل الشمالى لافريقيا والمقابل لفرنسا ، وعاش مدة فى صقلية ، وعلماؤها اختصروا فيها كتابه العمدة فلم لا يكون قد نقل الى فرنسا .

مسألة تستحق الدراسة :

بقى أن نشير الى أن القصيدة التى عناها الحمصى انما هى لأبى العباس الناشىء كما صرح بذلك ابن رشيق نفسه ـ وربما جاء الخطأ فى النسبة من ابن خلدون الذى ذكرها فى مقدمته على أنها لابن رشيق ـ والصواب ماتقدم ـ والقصيدة هى التى يقول فيها ابو العباس :

لعن الله صنعة الشعر ماذا ... من صنوف الجهال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ماكان سهلا للسامعين مبينا

الى أن يقول :

فاذا مامدحت بالشعر حرا ... رمت فيه مذاهب المسهبينا
فجعلت النسيب سهلا قريبا ... وجعلت المديح صدقا مبينا

وتنكبت ماتهجن في السمع ... وان كان لفظه موزونا
واذا ما قرضته بهجاء ... عبت فيه مذاهب المرفثينا
واذا مابكيت فيه على الغادين ... يوما للبين والظاعنينا
حلت دون الأسى وذللت ماكا ... ن من الدمع فى العيون مصونا
ثم ان كنت عاتبا جئت بالوعـ ... ـد وعيدا وبالصعوبة لينا
فتركت الذى عتبت عليه ... حذرا آمنا عزيزا ، مهينا
وأصح القريض مافات فى النظم ... وان كان واضحا مستبينا

أ ــ النسيب

ويفتتح ابن رشيق حديث النسيب بأن النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد ، وأما الغزل فهو الف النساء والتخلق بما يوافقهن ــ ثم يقول : فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ.

وهو بذلك يفرق بين الغزل والتغزل فاولال الف النساء بينما الثانى التحدث عن المرأة فى الشعر وان لم يكن هنالك الف بها ولا موادة على الحقيقة وقد خالف فى ذلك بعض المعاصرين حين جعل التاء فى التغزل كالتاء فى مصادر أخرى كالترقى والتكلم

وابن رشيق أصح نظرا فى ذلك فقد قال النويرى : « ان الغزل هو الاشتهار بمودات النساء والصبوة اليهن » (١) وقال ابن سيده فى مخصصه : « ان الغزل هو تحدث الفتيان ، والجوارى بينما النسيب التغزل بهن فى الشعر ، والتشبيب مثله » (٢) .

---

(١) شرح ديوان الحماسة ص ١١٢ .
(٢) المخصص جـ ٤ ص ٥٤ .

ثم يمضي ابن رشيق فى الباب يناقش اصل كلمة التشبيب واشتقاقها ، وعنده انها مأخوذة من الشبيبة وأصلها الارتفاع كأن الشباب ارتفع عن حال الطفولية ، أو أنه رفع صاحبه ، فانه يقال شب الفرس اذا رفع يديه وقام على رجليه ، ويجوز عنده أن يكون التشبيب من الجلاء والكشف . فانهم يقولون : شب الخمار وجه الجارية اذا جلاه ووصف ما تحته من محاسنه فكأن الشاعر الذى يشبب بامرأة ، انما يبرز محاسنها ويكشف عن صفاتها ويجليها للعيون بوصفه اياها ، ومنه الشب الذى يجتلى به وجه الدنانير ويستخرج غثها ، ومنه على هذا شببت النار ، اذا رفعت سناها ، وزدتها ضياء وعليه انشد الاصمعى لعكاشة بن ابى مسعدة :

يدفع عنها كل مشبوب أغر

قال والمشبوب الذى اذا رأيته فزعت لحسنه ، قال ابن دريد: شببت فى الشعر تشبيبا مثل نسبت نسيبا ، والنسيب أكثر ما يستعمل فى الشعر » (١) .

وانما نقلت هذه البحاثة اللغوية فى التشبيب لأكشف عن صفحة الرجل فى اللغة ، وأنه كان بمنازع الكلم واسع المعرفة كثير الزاد ، يرجع كل كلمة الى أصلها وبنيتها فيكون بهذا عالما لغويا كما هو ناقد وأديب وشاعر .

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ١٢٢

ويأخذ بعد ذلك يحدث عن النسيب وما ينبغى له من حلاوة الألفاظ ودماثتها وقرب معانيها ومآخذها ، بحيث تكون بعيـــدة عن الكز وعن الغامض ، فان لين الدثار ، وطيب المكسر ،وشفافية اللفظ مما يطرب عليه الحزين ويستخف الزرين .

ويشير الى النسيب الذى يتصدر القصائد لاعن هوى ولا عن صبابة ، وانما هو من قبيل الأخذ بتقاليد الشعراء فى مســتهل قصائدها .

ثم يذكر مايميل اليه النقاد من اختيار أخف الاسماء وألذها وقعا على الاذن وبعدهم عما ينفر منه السمع ، ويتعتع به اللسان ككلمة يوزع فى قول الحميرى :

ولقد تكون بها أوانس كالدمى

هند وعبـــدة والرباب ويوزع

وكيف عابوه بها ، فيذكر أن ذلك المبدأ يمكن التحمل منه اذا كان هدا هو اسم المعشوقة على الحقيقة فانه والأمر كذلك لاحيلة فيه مالم يجد الشاعر فى الكنية مندوحة عنه . وهذا منه نظر سليم فان غرابة الاسم او كزازته لاتعيب الشعر مادام هذا الاسم علما على صاحبه المعنى فى القصيدة .

ثم يعود فيذكر ان النسيب الذى لم يصدر عن هوى وانما حفاظا على تقاليد القصيدة العربية يجب الا يجاوز ابياتا فى المطلع يتنقل الشاعر بعدها الى غرضه الاصيل الذى انعقدت له القصيدة

وذلك حتى لايستنفد الشاعر جهده ، ويستهلك طاقته فيما يخصه هو من تغزل ، تاركا فضل طاقته للغرض الاصيل . ويذكر ابن رشيق قصة نصر بن سيار الذى مدحه أحد الشعراء بأرجوزةعدة ابياتها مائة وعشرة أبيات ، كان حظ النسيب منها مائة بيت .. وحظ الممدوح عشرة ، فعابه نصر وانتقده ، وقال له : ما أبقيت كلمة عذبة ، ولا معنى لطيفا الا وقد شغلته عن مدحى بنسيبك فان أردت مديحى فاقتصد فى النسيب . يقول ابن رشيق : فلما كان الغد جاءه الشاعر وانشده :

هل تعرف الدار لأم عمرو ؟
دع ذا وحبر مدحة فى نصر

فقال نصر : لاهذا ولاذاك ولكن بين الأمرين . ثم يذكر انممن تبع المذهب الأول نصيب فانه كان يطيل النسيب فى صدرقصائده وعلى العكس منه كان المتنبى فانه قال :

واحر قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجسمى وحالى عنده سقم

فانه لم ينسب فى هذه القصيدة بغير هذا البيت ثم خرج الى المدح فى البيت الثانى :

ويحكى ابن رشيق مذهب العرب فى اظهار الصبابة وان الرجل هو الذى ينبغى ان يظهر التهالك وينقل عن عبد الكريم: « ان العادة عند العرب ان الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعند

العجم يجعلون المرأة هى الطالبة والراغبة المخاطبة » ويدخل ابن رشيق عنصرا اخلاقيا فى القضية عندما يقول « وهنا دليل كرم النحيزة فى العرب وغيرتها على الحرم »[1]

ويحكى انهم انشدوا أبيات عمر بن ابى ربيعة وابن ابى عتيق يسمع :

بينما ينعتننى أبصرننى	دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى : اتعرفن الفتى	قالت الوسطى : نعم، هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها	قد عرفناه ، وهل يخفى القمر

فقال ابن ابى عتيق يا عمر : انت لم تنسب بهن وانما نسبت بنفسك ، وانما كان ينبغى لك ان تقول : قالت لى فقلت لها .. فوضعت خدى فوطئت عليه ، وكذلك قال له كثير لما سمع قوله:

قالت لها أختها تعاتبها	لاتفسدن الطواف فى عمر
قومى ، تصدى له لأبصره	ثم اغمزيه يا أخت فى خفر
قالت لها قد غمزته فأبى	ثم اسبطرت تشتد فى أثرى

أهكذا يقال للمرأة ؟ انما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة .

لكنى لا أرى واقع الحياة كذلك فالنساء يطلبن الرجال، ويتعرضن لهم كما يطلبهن الرجال ويتصدون لهن . وهذا القرآن الكريم يحكى عن امرأة العزيز ومافعلت بيوسف حين أخذت تراوده عن نفسها . وحين تنكر عليها بنات جنسها تطلعهن عليه فيقطعن

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ١١٨ .

ايديهن لما بهرهن بجماله . وهذه ابنة شعيب تمشى على استحياء وكأن هذا الاستحياء كان سحرا لموسى فمضى مسرعا يخطبها من أبيهـــا .

على انه اذا كان هذا مذهب العرب فى الجاهلية وصـــدر الاسلام فانهم لما خالطوا العجم تخلوا عن مذهبهم ورابنا الجوارى ــ والحرائر ــ يتعرضن للرجال ، وهذا ابوحيه النمـيرى يحــكى عن تعرض المرأة للرجل فيقول :

رمته اناه من ربيعة عـــامر ... نئوم الضحى فى مأتم أى مأتم
فجاء كخوط البان لا متتـــابع ... ولكن بسيما ذى وقاروميسم
فقلنا لها سرا : فديناك لايرح ... صحيحا وان لم تقتليه فـألمى
فألقت قناعا دونه الشمس واتقت ... بأحسن موصولين كف ومعصم
وقالت ، فلما افرغت فى فؤاده ... وعينيه منها السحر ، قلن له قم
فود بجدع الأنف لو أن صحبه ... تنادوا وقالوا فى المناخ له قم

فأين هذا من مذهب العرب وهى قد تعرضت له بما سحره ، وألقت قناعا عن وجهها واتقت بكف ومعصم حتى اذا بلغت منــه ما أرادت قلن له : قـــم ؟.

ولا يفوت ابن رشيق ان يوصى بتجنب مايسوء المعشوق لو وقع وذلك حين يقول :

وكل مالا يليق بالمحبوب فهو مكروه فى باب النسيب ،قالت عزة لكثير يوما ــ ويقال بثينة ــ ما أردت بنا حين قلت :

وددت وبيت الله أنك بكرة   وأنى هجان مصعب ثم نهرب

كلانا به عر فمن يرنا يقل   على حسنها جرباء تعدى وأجرب

نكون لذى مال كثير مغفل   فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

اذا ما وردنا منهلا صاح أهله   علينا، فلا ننفك نرمى ونضرب

لقد أردت بنا الشقاء ؟ أما وجدت أمنية اوطأ من هذه ؟فخرج من عندها خجلا ، يقول ابن رشيق : وانما اقتدى بالفرزدق حيث يقول :

ألا ليتنا كنا بعيرين لانرد   على حاضر الا نشل ونقذف

كلانا به عر يخاف قرافه   على الناس مطلى الأشاعر أخشف

بأرض خلاء وحدنا وثيابنا   من الريط والديباج درع ومحلف

ولازاد الا فضلتان : سلافة   وأبيض من ماء الغمامة قرقف

وأشلاء لحم من حبارى يصيدها   اذا نحن شئنا صاحب متألف

لنا ماتمنينا من العيش مادعا   هديلا بنعمان ، حمائم هتف

قال ابن رشيق ــ وهذا من سوء الاتباع . واذا كان بعيرا فما هذه الأمنية التى كلها للحيوان الناطق ؟ ولكن أبيات الفرزدق قد رد فيها الحديث الى المعشوقين وفيها ملاحة وطرافة اشار اليها ابن رشيق حين قال : «والا فما أملح الجمل نشوان يصيد الحبارى بالبازى » فأين من ذلك أبيات كثير ؟.

ب ــ المــــــديح

ويذكر فيه أن على الشاعر اذا مدح ملكا انَ يسلكَ سبيــلَ الايضاح والاشادة بذكر الممدوح وأن يجعل معانيه جزلة ، وألفاظه نقية غير مبتذلة ولا سوقية وان يتجنب مع ذلك التقصيروالتجاوز والتطويلفان للملك سآمة وضجرا ، وربما عاب من أجلها مالايعاب وحرم من لايريد حرمانه » .

ويبدو تأثر ابن رشيق بعصره ، وبحياته فىَ رحاب ملك يعطى على المديح ويجزل لمن يجيده ، ويحرم حين لا يوافق المديحمزاجه لا لعيب فى القصيد ولكن ربما لسأم أو ضجر . وهكذا لا ينجو الانسان فيما يكتب من التأثر بالجو الذى يحوطه ، وبالظــروف التى يعيش فيها .

وابن رشيق حذر فى تأصيل اصول المديح فمن رأيه الا يمدح الملك ببعض ما يمكن أن يمدح به غيره من الرؤساء أو من يتجه اليهم ، وان كان فضيلة ، فقد انكروا على البحترى قوله فى ابن المعتــــز :

لا العذل يردعه ولا التعنيف عن كرم يصده

وقالوا من ذا الذى يعتف الخليفة على الكرم اوَ يصده عنه؟
ويعجبه من المديح مثل قول ابى العناهية :

انى أمنت من الزمــان وريبــــــه
لما علقت من الأمير حبــــالا

لو يستطيع الناس من اجلاله
تخذوا له حمر الخدود نعالا
ان المطايا تشتكيك لأنها
قطعت اليك سباسبا ورمالا
فاذا وردن بنا وردن خفائفا
واذا صدرن بنا صدرن ثقالا

ثم يحذر من مدح تشوبها طيرة أو تشاؤم ، وقد كره الحذاق مدح الملوك بمثل قول موسى شهوات :

ليس فيما بدا لنا منك عيب
عابه الناس غير أنك فانى
أنت نعم المتاع لو كنت تبقى
غير ألا بقاء للانسان

على أن فى البيتين بعد الطيرة والتشاؤم أنه جعل الممدوح متاعا وهذا من أقبح ما يواجه به الملوك والرؤساء .

ويمضى يختار من أحسن مدائحهم حتى يسود صفحات كثيرة من الكتاب فى قصص تستهوى القارىء كأن يقول : قال شرحبيل بن معن بن زائدة : كنت أسير تحت قبة يحيى بن خالد ، وقد حج مع الرشيد وعديله أبى يوسف القاضى اذ أتاه أعرابى من بنى أسد ، كان يلقاه اذا حج فيمدحه ، فأنشده شعرا أنكر يحيى منه بيتا فقال يا أخا بنى أسد : ألم انهك عن مثل هذا الشعر الا قلت كما قال الشاعر :

بنــو مطر يوم اللقـــاء كأنهم
أسود لهـا فى غيل خفان اشبل

هم يمنعون الجـار حتى كأنمـا
لجـارهم بين السماكين منـزل

بهاليل فى الاسلام سادوا ولم يكن
كأولهم فى الجـــاهلية أول

هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا
أجابوا وان أعطوا أطابوا وأجزلوا

ولا يستطيع الفاعلون فعـــالهم
وان أحسنوا فى النائبات وأجملوا

فقال ابو يوسف : لمن هذا الشعر أصلحك الله فما سـمعت أحسن منه ؟ فقال يحيى : يقوله ابن ابى حفصة فى أبى هذا الفتى وأومأ الى فكان قوله أسر الى من جليل الفوائد .

وابن رشيق يدل بكثرة مايروى ، وبحسن ماينتقى على سعة الرواية والبصر بجيد الشعر ومختاره .

ويتحدث بعد عن الافتخار فيذكر انه المدح بعينـــه الا أن الشاعر يخص نفسه وقومه ومن ثم فانه يقرر ان كل ما حســن فى المدح يحسن فى الافتخار وكل ماقبح هناك يقبح هنا ثم يذكر بضعة مختارات ويناقش ما فيها من وجوه الحسن ، ومواطن المآخذ كدأبه فى أكثر الذى يرويه أو يحكيه .

ج ـ الرثـاء

وهو عنده ـ وكما قال قدامة ـ ليس بينه وبين المدح فرق الا أن يخلط به شيء يدل على ان المقصود به ميت ، مثل كان أو عدمنا به كيت وكيت ، أو ما يشاكل ذلك ليعلم أنه ميت .

ولو لم يتابع ابن رشيق قدامة لعدل عن هذا التعريف لشعر الرثاء فكثير من قصائده لا تتصدر بكان ، ولا تتضمن عد منا به، ولا شيئا من هذا القبيل ، وهذه قصيدة اوس :

ايتها النفس أجمـلى جزعا ان الذى تحـذرين قد وقعا

وقصائد الخنساء من مثل :

يذكر فى طلوع الشمس صخرا واذكره لكل غروب شمس

وقصيدة المعرى :

غير مجـد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شـادى

فكلها تصور الخطب وروعته وتكبر المصاب حتى ماننساه ، وتظهر الأسى والحزن أو تقرر حقيقة الحياة وواقعها ـ ومن بينه الموت والفناء .

فأوس يرى أنه قد وقع المحذور ومات فضالة بن حليمـة ، وليس وراء ذلك خطب تخافه النفس فلتطمئن الى انها لن تواقع بعد ذلك مكروها كذلك المكروه ؛ والخنساء تحدث بتجدد الأسى كلما أشرقت شمس يوم أو غربت ، فحزنها على أخيهـا دائمـا

متجدد ، والمعرى يقرر حقيقة الحياة وان الموت سنتها ، وشبيه عنده صوت الغناء بنشيج البكاء .

وهكذا لا يكون الرثاء كان وعدمنا ، وانما الرثاء هو الفن الذي يظهر فيه شعور الشاعر نحو المصاب ، وقد يكون هذا الشعور شعور الجزع ، وشعور الحزن ، وقد يكون شعور الرضا بما وقع والاستسلام له ، وفلسفة الموت والحياة

ويقرر ابن رشيق أن النساء اشجى الناس قلوبا عند المصاب وأشدهم جزعا عند هلك عزيز ويعلل لهذا بما ركب الله فى طبعهن من الخور وضعف العزيمة ، وعلى شدة الجزع يكون الرثاء .

فاذا أوتى المحزون القدرة على التعبير بالكلمة عن حزن يمضه رأينا الرثاء البالغ غايته فى معناه ، قالوا قتل ديك الجن جاريته ، واتهم بها اخاه ثم قال هو يرثيها :

يامهجة جثم الحمام عليها ... وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها التراب وربما ... روى الهوى شفتى من شفتيها
حكمت سيفى فى مجال خناقها ... ومدامعى تجرى على خديها
فوحق نعليها لما وطىء الحصى ... شىء أعز على من نعليها
ماكان قتليها لأنى لم أكن ... أخشى اذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت على الأنام بحسنها ... وانفت من نظر العيون اليها

فهذا الرثاء المشوب بالتعليل والتبرير .

وينكر ابن رشيق ان تفتتح مرثية بغزل لأن الآخذ فى الرثاء

يجب أن يكون مشغولا عن النسيب ، ويعتذر عن قصيدة دريد ابن الصمة فى رثاء أخيه والتى مطلعها :

ارث جديد البين من أم معبد بعـــافية واخلفت كل موعد

بأن ذلك كان بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ بثأره ، وأدرك طلبته . ثم يذكر أن الكميت كان ركابا لهذه الطريقـة فى اكثـر شـعره .

ويصدق ابن رشيق فى نقده حين يقرر أنه على قدر الجـزع تكون قوة الرثاء ويضرب المثل لذلك بالذى كان من جليلة بنت مرة وقد قتل أخوها جساس زوجها كليبا ، فصارت بين نارين فقـد حليل ، وتوقع ثأر بعد قليل ، جزع على من ذهب ، وتخوف على فقد من بقى ، وقد استطاعت جليلة فى قصيدتها أن تعبر عن وقوعها بين النارين ، وعن ترددها بين الحزن على الذى وقع والاشـفاق مما تتوقع ، وذلك حيث تقول :

يا ابنة الأقوام ان لمت فـلا تعجـلى باللوم حتى تسـألى
فـــاذا أنت تبيـنت الذى يوجب اللوم فلومى واعذلى
ان تكن أخت امرىء ليمت على جـــزع منها عليـه فافعلى
فعل جســاس على ضنى بـه قاطع ظهرى ومـدن أجـلى
لو بعين فديت عينى سـوى اختهـا وانفقـأت لم أحفـل
تحمل العين قذى العين كمـا تحمـل الأم قذى ما تفتـلى

ويبلغ ذروة البصر بالنقد الفنى عندما يقـرر أن من اشـد الرثاء صعوبة ان يتعرض الشاعر لرثاء طفل وامرأة لضيق مجـال

القول وقلة الصفات ، ويشبه ذلك الجمع بين رثاء وتهنئة ، ويختار لذلك من جيد النماذج ماتضيق بعرض الكثير منه هذه السيرة .
ولكنا لابد ننقل للقارىء ما اختار ابن رشيق من مرثية محمد بن عبد الملك لزوجه فانها مرثية تثير شجى القلب بما تضمنت من تصوير فقد الحليلة ولها أطفال صغار يرون كل الأطفال ولهم امهاتهم ماعداهم ، وهى صورة أبدع ابن الزيات ابرازها فقال :

الا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تحثه بلابل قلب دائم الخفقان
ألا ان سجلا واحدا قد أرقته من الدمع أو سجلين قد شفيانى
فلا تلحيانى ان بكيت فانما أداوى بهذا الدمع ماتريان
وان مكانا فى الثرى خط لحده لمن كان فى قلبى بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى فهل أنتما ان عجت منتظران

يقول ابن رشيق ومن أشجى الشعر فى القصيدة قوله :

فهبنى عزمت الصبر عنها لأننى جليد فمن بالصبر لابن ثمانى
ضعيف القوى لايعرف الصبر حسبة ولا يأتسى بالناس فى الحدثان
الا من أمنيه المنى فأعده لعثرة أيامى وصرف زمانى
ألا من اذا ماجئت أكرم مجلسى وان غبت عنه حاطنى ورعانى
فلم أر كالأقدار كيف أصبننى ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى

ثم يعقب على الأبيات فيقول : فهذه الطريق هى الغاية التى يجرى حذاق الشعراء اليها ، ويعتمدون فى الرثاء عليها

ولكن ابن رشيق يؤخذ بخدمة الملوك فى نقده اذ يتبع الذى تقدم بقوله : الا أن تكون المرثية من نساء الملوك وبنات الاشراف، وغير ذوات محارم الشاعر فانه يتجافى عن هذه الطريقة الى أرفع منها نحو قول ابى الطيب :

ولو ان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
مشى الأمراء حوليها حفاة كأن المرو من زف الرئال

ونحو قوله فى اخت سيف الدولة :

يا أخت خيرأخ يا بنت خيرأب كناية بهما عن أشرف النسب
اجل قدرك ان تدعى مؤنثة ومن يصفك فقد سماك للعرب

فلعمرى ليس هذا بأرفع مما تقدم لابن الزيات ، بل ان هذا الذى قاله ابو الطيب ليس فيه الا المبالغة المردودة ، وهو خلو من العاطفة ومن الصدق الفنى الذى نلمسه فى قصيدة ابن الزيات — والأصل فى الشعر أن يكون تعبيرا عن النفس وتصويرا لما يختلج فيها من المشاعر لا أن يكون استرضاء لملك أو عظيم — ولكن كما قال الشاعر :

وحب العيش أعبد كل حر وعلم ساغبا أكل المرار

د — العتاب

وعقد له بابا بعد ما تحدث عن الاقتضاء والاستنجاز ، فذكر انه باب من ابواب الخديعة يسرع الى الهجاء ، وسبب من أسباب

القطيعة والجفاء ، فاذا قل كان داعية الألفة ، وقيد الصحبة ، واذا كثر خشن جانبه وقل صاحبه .

وعنده ان البحترى خير من عتب ، وضرب المثل للعتاب الجيد بقـــوله :

يـــريبنى الشىء تأتى بـــه وأكبر قـــدرك ان استريبـــا
وأكره أن أتمـــادى عـــلى ســبيل اغترار فألقى شـــعوبا
أكذب ظنى بأن قد ســخطت وماكنت أعهد ظنى كـــذوبا

وكان بابن الرومى معجبا لاسيما بقصيدته التى يعاتب فيهـا ابا الصقر اسماعيل بن بلبل ومنها :

عقيل الندى أطلق مدائح جمة خواسى حسرى قد أبت أن تسرحا
وكنت متى تنشد مديحا ظلمته يكن لك أهجى كل ماكان أمدحا
عذرتك لو كانت سماء تقشعت سحائبها أو كان روض تصوحا
ولكنها سقيا حرمت رويهـــا وعارضها ملق كـــلاكل جنحا
فيالك بحرا لم أجد فيه مشربا وان كان غيرى واجدا فيه مسبحا

يقول ابن رشيق : فهذا هو الذى لا يبلغ جودة ولا يجارى سبقا .

ثم يقول وكانت فى طباع ابى الطيب المتنبى شدة وفى عتـــابه غلظة ، وكان كثير التحامل ظاهر الكبر والأنفة ، ويسوق قصيدته لسيف الدولة :

يا أعدل النـــاس الا فى معـــاملتى
فيك الخصوم وأنت الخصم والحكم

ثم يقول : وهذا الكلام فى نهاية الجودة غير انه من جهـة الواجب والسياسة غاية فى القبـح والرداءة ... وبسبب هـذه القصيدة كاد يقتل عند انصرافه من مجلس انشادها،وهذا الغرور بعينه .

وهكذا يرى ابن رشيق ان ظروف الاجتماع والحياة عنصر يدخل فى الفن فيطامن من كبرياء الشاعر ويحمـله على أن يرعى ذلك ــ وقد قدمت ان الشعر انبجاس تفيض به النفس لا تقيـم للحكم ولا للحاكم اعتبارا ــ ولعل ابن رشيق كان من انصار الفن للمجتمع ــ ولست اوافقه فانه فوق المجتمع أو هكذا ينبغى أن يـــكون .

هـ ــ الوعيـد والانذار

والوعيد والانذار عند ابن رشيق بمثابة التقـدمة للهجاء ، وذلك أنه الا يجدى الوعيد والانذار يكون الهجاء ، ولعل هـذا هو الذى جعله يؤخر الهجاء عليهما .

وكالعهد به فى حديث فنون الشعر يسوق من النماذج منغير أن يتحدث عن المعانى التى تتوخى فيها وربما كانت هذه احـدى حسناته لأنه يدرك أن تعداد معان بأعيانها لغـرض بذاته غـير سديد فى مجال الدراسات النقدية ، وليس من هم الناقد أن يضع الرسوم والحدود للشاعر بل همه او هكذا ينبغى أن يكون ــ أن

يترقب ما يقوله الشاعر لينظر فى اعطافه فيرى مدى ما توفق اليه فيحصيه أو يكشف عنه ، وما أخطأ فيه فيذكره ويشير اليه .

هذا ومن نماذج التوعد ما قال ابن الرومى فى على بن سليمان الأخفش ، وكان يعابثه بأن يدفع اليه من يقرع عليه بابه ، فاذا سأل ابن الرومى من الطارق اجابه باسم يتشاءم منه فلا يغادر الدار يومه ، ثم عرف ابن الرومى ان عليا وراء ذلك كله فقال :

قولوا لنحوينا أبى حسن ... ان حسامى متى ضربت مضى
وان نبلى متى هممت بأن ... أرمى نصلتها بجمر غضى
لاتحسبن الهجاء يحفل بالرفع ... ولا خفض خافض خفضا
ولا تخل عودتى كبادئتى ... سأسعط السم من عصا الخضضا

الى أبيات كثيرة مزقه فيها ابن الرومى كل ممزق وجعله مثلة بين أصحابه على ان الأخفش كان يتجلد ويظهر عدم المبالاة — يقول ابن رشيق : ولكن هيهات .

و — الهجاء

وفيه أخذ ابن رشيق نفسه بتبيين أوجعه وأن خيره ما تنشده العذراء فى خدرها فلا نقبح بمثلها كقول أوس :

اذا ناقة شدت برحل ونمرق ... الى حيكم بعدى فضل ضلالها

وقول جرير :

ولو ان تغلب جمعت احسابها ... يوم التفاخر لم تزن مثقالا

وقوله :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ويحكى قول امير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الهجاء المقذع وكان لما أطلق الحطيئة من حبسه وقال له اياك والهجاء المقذع قال له هذا : وما المقذع يا أمير المؤمنين ؟ قال ان تقول : هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ، وتبنى شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم فقال الحطيئة : أنت والله يا أميرالمؤمنين أعلممنى بمذهب الشعر ولكن حيانى هؤلاء فمدحتهم ، وحرمنى هؤلاء فذكرت حرمانهم ولم أنل من أعراضهم شيئا وصرفت مدحى الى من أراده ، ورغبت به عمن كرهه وزهد فيه ـ يريد بذلك قصيدته المهموزة التىيقول فيهـا :

وآنيت العشاء الى سـهيل أو الشعرى فطـال بى الاناء

يقول ابن رشيق : وهى أخبث ماصنع ، وفيها أومن أجلها قال خلف الأحمر : أشد الهجاء أعفه وأصدقه .

ويحكى ابن رشيق كلمة صاحب الوساطة التى يقول فيهـا : « فأما الهجو فابلغه ماخرج مخرج التهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والافحاش فسباب محض وليس للشاعر فيه الا اقامة الوزن » وكان ابن رشـيق

بذلك المذهب معجبا وبه راضيا لاسيما اذا كان على وجهه التشكك
والتهزل ويستدل لصحته بما قال النقاد فى بيتى زهير :

وما ادرى وسوف اخال أدرى   أقوم آل حصن أم نســا
فان تكن النساء مخبئــات   فحــق لكل محصنة هــد

فانه عندهم عندهم من أوجع الهجاء ، وأشده وأمضه .

ومذهبه أن التعــــريض أهجى من التصريح لاتساع الظن
التعريض ، وشدة تعلق النفس به والبحث عن معرفته وطـلـ
حقيقته ، بخلاف التصريح فان النفس تحيط به جملة ثم يأخذ ك
يوم فى النقصان حتى النسيان .

على أن المهجوين عنده مراتب فان منهـــم من لايوقظه ا
التصريح ــ فذاك وما يوقظه ــ ومن ثم اختلف هجاء أبى نوا
وأبى الطيب بحسب اختلاف المهجوين فمن التصريح قــول زيـ
الأعجـم :

فقم صاغرا ياشيخ جرم فانمــا   يقال لشيخ الصدق قم غير صاغـ
فمن انتم ؟ انا نسينا من أنتم   وريحكم من أى ريح الأعاصـ
أأنتم اولى جئتم مع النمل والدبا   فطار ، وهذا شيخكم غير طائـ
قضى الله خلق الناس ثم خلقتم   بقية خلق الله آخــر آخــ
فلم تسمعوا الا بمن كان قبلكم   ولم تدركوا الا مدق الحوافر

ويرى ابن رشيق ان أجود الهجاء ماقام على سلب الانسا
الفضائل النفسية وماتركب من بعضها مع بعض ، فأما ما كــا

فى الخلقة الجسمية من المعايب فالهجاء به دون ماتقدم ، وقدامة لايراه هجوا البتة – وكذلك ماجاء من قبل الآباء والأمهات من النقص والفساد لا يراه قدامة عيبا،ولايعد الهجوبه صوابا–يقول ابن رشيق – والناس الا من لايعد قلة على خلاف رأيه ، ويؤكد ميله الى مخالفة قدامة فيقول : وكذلك يوجد فى الطباع ، وقد جاء ما أكد ذلك من أحكام الشريعة [1] .

ز – الاعتــــذار

وابن رشيق فى هذا الباب رجل حكمة ووعظ ، يفتتح الحديث فيه بأنه ينبغى للشاعر الا يقول شيئا يعتذر منه فان اضطره المقدار الى ذلك وأوقعه فيه القضاء فليذهب مذهبا لطيفا،وليقصد مقصدا عزيزا ، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر اليه ، وكيف يمسح أعطافه ويستجلب رضاه فان اتيان المعتذر من باب الاحتجاج واقامة الدليل خطأ لاسيما مع الملوك وذوى السلطان – ولولا أنه عاش فى ظل الامارة والولاية ماذهب هذا المذهب ولكنها الخبرة بالحياة وما عليه الناس فى علاقاتهم – بدليل ان الاعتذار للاخوان عنده نمط آخــــر .

والشاعر المفضل عنده النابغة فى ثلاث قصائد :

الأولى :

بادار مية بالعليا فالسند

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ١٦٦ .

والثـــانية

ارسما جديدا من سعاد تجنب

والثـــالثة :

عفا ذو حسى من فرتنا فالفوارع

وفيها يقول بعد قسم :

لكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العريكوى غيره وهو راتع
لكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العريكوى غيره وهو راقع
فان كنت لا ذو الضغن عنى مكذب ولا حلفى عند البراءة نافـــع
ولا أنا مأمون بقول أقــوله وأنت بأمر لا محـــالة واقع
فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت ان المتنأى عنك واسع

ويختم ابن رشيق اختياره فى الباب وحديثه بحـــديث عن اشتقاق الاعتذار وانه اما أن يكون من المحو كأنه محوت آثـــار الموجدة من قولهم : اعتذرت المنازل اذا درست ، وعليـــه قول الشـــاعر :

لو كنت تعـــرف آيات فقـــد جعلت
أطـــلال الفك بالودكاء تعتـــذر

أو يكون الاعتذار من الانقطـــاع كأنه قطع الرجـــل عمـــا أمسك فى قلبه من الموجدة ، والعرب تقول :

اعتذرت المياه اذا انقطعت ، وعليه قول لبيد :

شهور الصيف واعتذرت اليه نطـــاق الشيطين من الســـماء

أو يكون من الحجر والمنع ، قال ابو جعفر عذرت الدابة أى
جعلت لها عذارا يحجزها من الشراد فمعنى اعتذر الرجل احتجز
عذرته جعلت له بقبول ذلك منه حاجزا بينه وبين العقوبة والعتب
ليه ، ومنه تعذر الأمر احتجز أن يقضى ومنه جارية عذراء .
ذلك هو ابن رشيق فى باب الاعتذار ، وذلك هو الرجل فى
رك اللغة ورد استعمالاتها فى النقد الى أصولها فى استعمالات
عــــرب الأولين .

ح ـ الوصـــف

وأول مايلفت النظر أن ابن رشيق أخر الحديث فيه الى آخر
كتاب ، وعزله عن بقية فنون الشعر ، ولعله كان هم ان يتركه
تحدث عنه فى التشبيه ضمنا اذ التشبيه عنده صفة الشىء بما
ربه وشاكله من جهة واحدة او جهات كثيرة ، والشعر الا أقله
اجع الى باب الوصف كما يقول ولا سبيل الى حصره واستقصائه
هو مناسب للتشبيه مشتمل عليه وليس به ، لأنه كثيرا ما يــأتى
ى اضــعافه .
وأحسنه عنده مانعت به الشىء حتى يكاد يمثله عينا للســامع
قول النابغة فى وصف ذئب افترس جؤذرا :

بات يذكيــه بغــير حديدة	اخوقنص يمسى ويصبح مفطرا
اذا مارأى منه كراعا تحــركت	أصاب مكان القلب منه وفرفرا

وينقل ابن رشيق تعريف قدامة وانه هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات...وأجود الشعراء وصفا من أتى فى شعره أكثر المعانى التى يتركب منها الموصوف :

ويذكر أن الناس يتفاضلون فى الأوصاف من حيث مايتناولون من الموضوعات فمنهم من يجيد وصف الابل والقفار ومنهم من يبدع فى وصف حيوان البرية كحمر الوحش والآرام والبقر والظلمان والوعول ، وآخرون يجيدون أوصاف الرياحين والزهور والورود وهكذا بحسب الظروف التى يحيا فيها كل شاعروالحياة التى ينشأ فيها .

ثم يعرض للشعراء بحسب ذلك ، فنعات الخيل امرؤ القيس وابو دؤاد وطفيل الغنوى والنابغة الجعدى .

ونعات الابل عنده طرفه وأوس ، وكعب والشماخ وأكثر القدماء لأنها مراكبهم حتى ان رؤبه لما غلط فى وصف الفرس ارتد الى مانشأ عليه وقال : أدننى من ذنب البعير .

واما الحمر الوحشية فالشماخ أوصفهم لها ، وشهد بذلك له الحطيئة والفرزدق ــ وهما من وصاف الخيل والقسى والنبال .

وأما الخمر فلها الأعشى والاخطل وابو نواس وابن المعتز ، ولأبى نواس وابن المعتزايضا الصيد والطرد .

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٧٨ .

ويختار من نادر الوصف مثل وصف عبد الكريم للفيل فى قـــوله

وأضخم هنـدى النجـــار تعـــده
ملوك بنى ســاسان ان رابها أمـــر

من الورق لا من ضربة الورق ترتعى
أضاخ ، ولا من ضربة الخمس والعشر

يجىء كطـــود جائل فـوق أربـع
مضبرة لمت كمـــا لمت الصـــخر

له فخـــذان كالـــكثيبين لبـــدا
وصدر كما أوفى من الهضبة الصـــدر

ووجـــه به أنف كراووق خمـرة
ينـــال به ماتدرك الانمـــل العشر

واذن كنصف البرد يســـمعه الندا
خفيـا وطـــرف ينقض الغيب مزور

ونابان شـــقا لايريك ســـواهما
قناتين ســـمراوين طعنهما نشــر

له لون مابين الصـــباح وليـــله
اذا نطـق العصـــفور أو غلس الصقر

وهو وصف بارع لاسيما وانه غير متكرر فى شعرهم — وعلى غير مثـــال :

وهكذا راح ابن رشيق يذكر أوصافا لأشياء مما لم تعرف العرب او تكثر فى شعرها ، فيذكر لنفسه صفة زرافة وردت على المعز بن باديس هدية من مصر ، ويذكر وصف كشاجم لاصطرلاب ولتخت حساب الهندسة ، ولبركار ، ولبنكام ، وزرمانج أبنوس وكلها آلات مخترعة تعين على الحساب والرسم وغيرهما .

ثم يختم الباب بأبيات فى وصف طاووس مات يقول فيها كشاجم أيضا :

رزئته روضة يروق .. ولم	يسمع بروض يمشى على قدم
جثل الذنابى كأن سندسة	زرت عليه موشية العلم
متوجا خلقة حباه بها	ذو الفطر المعجزات والحكم
كأنه يزدجرد منتصبا	يبنى فيعلى مآثر العجم
يطبق أجفانه ويحسر عن	فصين يستصبحان فى الظلم
أدل بالحسن فاستذال له	ذيلا من الكبر غير محتشم
ثم مشى مشية العروس فمن	مستظرف معجب ومبتسم

وهذا آخر ما لابن رشيق فى فنون الشعر ، وبتقسيمه اهتدى الذين أرخوا للادب العربى الى يومنا ، وبكثير من مختاره استشهدوا لما كتبوا . الأمر الذى يشهد بأثر الرجل فيمن جاء بعده ويجعل من كتابه العمدة عمدة بحق فى اكثر أبوابه التى عرض لها .

١٢ - بينه وبين النقاد

بين ابن رشيق والنقاد قبله صلات وثيقة لا تتحرج معها من القول بأنه اهتدى بهم فى كثير مما كتب سواء فى النقد أو فى غيره . ونقف من هؤلاء عند اثنين يكثر من النقل عنهما والاخذ برأيهما أو المناقضة لهما أحيانا وأعنى بهما ابن قتيبة وقدامة بن جعفر .

فأما عن ابن قتيبة فانه تحدث فى مقدمة كتابه الشعر والشعراء عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم فى أشعارهم ، وقبائلهم واسمائهم واسماء آبائهم ، ثم تحدث عن المتقدمين منهم وما سبقوا اليه فأخذه عنهم المتأخرون ، وعن أقسام الشعر وطبقاته ، ويعتذر الرجل بمخافة الاطالة حين لا يذكر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوما كثيرا من حملة العلم ومن الخلفاء والاشراف ، ويقرر ان سيودع كتابه « الاخبار عن جلالة قدر الشعر وعمن رفع بالمديح ، وعمن وضع بالهجاء ، وعما أودعت العرب شعرها من الأخبار النابهة والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة ، والعلوم فى الخيل وفى النجوم وفى أنوائها والاهتداء بها والرياح وما كان منها مبشرا أو حائلا ، والبروق وماكان منها خلبا أو صادقا ،

والسحاب وماكان منها جهاما أو ماطرا ، وعما يبعث البخيل على السماح والدنىء على السمو والجبان على اللقاء » (1)

فيأتى ابن رشيق ويقرأ هذه المقدمة ويأخذها فيما أرى فيجعل منها فى عمومها منهجا لكتابه العمدة بأن يجعل من كل فقـــرة بابا أو محورا لباب يدير حوله الحديث ، نلمح ذلك حين نقـارن بين كثير من ابواب الكتاب وبين فقر مقدمة الشـعر والشـعراء وفضله على صاحبه أنه هو يعرض البحث ويعمقه ، ولا يدعه تلميحا خاطفا ، وانما يوفى كل موضوع حقه ، وأعانته على ذلك رواية واسعة ،ومعرفة لاحدود لها ، واطلاع على أكثر الذى تقدم فى هذا الباب فاذا أشار ابن قتيبة الى ان سيكتب عن جلالة قدر الشعر رأينا ابن رشيق يضع فى عمدته بابين ، أولهما فى فضل الشـعر والثانى فى الرد على من يكرهه ، ويودع البابين حديثا مستفيضا عن أهمية الشعر وهو موضوع الكتاب .

واذا قال ابن قتيبة : « ولم أعرض فى كتابى هذا الا لمن كان الأغلب عليه الشعر » جاء صاحبنا فكتب بابا عنوانه « المقلون من الشعراء ، وآخر عنوانه : اشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء .

وفيما لم يذكر ابن قتيبة يكتب ابن رشيق ، وكأنى بى قرأه وهو يقول « وكان من حق هذا الكتاب ان اودعه الاخبار عن جلالة قدر

(1) مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبه ص 1 - 2 .

الشعر وعمن رفع بالمديح وعمن وضع بالهجاء » فاذا هو يسارع الى عقد الأبواب لذلك الموضوع .

ويتحدث ابن قتيبة عن ان للشعر دواعى تحث البطىء وتبعث المتكلف منها الشراب ومنها الطرب ومنها الطمع .. فيعقد ابن رشيق بابا بعنوان « عمل الشعر وشحذ القريحة له » ولكنا نكبر فى ابن رشيق أنه حين ينقل عن صاحبه لايتأبى على ان يذكر اسمه فيقول : قال ابن قتيبة وللشعر اوقات يسرع فيها أنيه ..

ويذكر ابن قتيبة ان الشعراء بالطبع مختلفون فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء ، ومنهم من تسهل عليه المراثى ويتعذر عليه الغزل ، فيكتب صاحب العمدة بابا هو باب التصرف ونقد الشعر ، ويذكر أنه يحب للشاعر أن يكون متصرفا فى أنواع القول .

بل لقد تبع ابن رشيق طريق ابن قتيبة فى غير كتاب الشعر والشعراء ، وارجح بل أؤكد انه قرأ له كتاب المعارف وتأثر به ونقل منه ــ وهو يصرح بذلك فى غير موطن .

ففى الجزء الثانى من كتاب العمدة يضع بابا بعنوان « باب فى أصول النسب وبيوتات العرب » ويذكر فيه أن أول النسب بعد آدم انما كان من نوح لأن جميع من كان قبله قد هلك ــ يشير بذلك الى الطوفان الذى أهلك كل من كان الا من حمل نوح معه فى السفينة .. ويذكر ابن رشيق ان قد كان من هؤلاء ابناء

نوح الثلاثة سام وحام ويافث ـ ثم يمضى يتحدث عن انسالهم ومن تفرع منهم وتفرق فى الأرض . ثم يختم هذا الحديث بأن « قد جمع ذلك كله ابن قتيبة » .

ثم يختص العرب بحديث طويل فيذكر انها ست طبقات هى الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة .

ثم يعقد فصلا آخر فيما يتعلق بالانساب يذكر فيه قريشاوأنها اثنتان ، فقريش البطاح وقريش الظواهر ، والأولى قبائل : كعب وبنو عبد الدار ، وبنو زهرة ، وبنو مخزوم وبنو تيم وبنو جمح والثانية قبائل أيضا : بنو محارب وبنو الادرم وعامة بنو عامر .. وما يزال يعدد من اسماء هذه وتلك حتى يسود صفحات كثيرةمن الكتاب .

ثم اذا هو يعقد بابا آخر يذكر فيه من وقائع العرب وأيامهم ووقائعهم ولكنه لايستعصى ولا يلتزم ترتيبا ، لأن فى أقل مما جاء به غنى ومقنعا لاسيما وقد فرغ أبو عبيدة ونظراؤه من ذكره وانما اتى عليه .. تذكرة للعالم وذريعة للمتعلم وزينة للكتاب ووفاء بشرطه وزيادة لحسنه .

ثم يذكر من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم غزوة ودان ثم بدرا ثم أحدا فيوم الخندق فيوم بنى المصطلق فيوم خيبر .

ويختم ذلك كله بأنه اختصره من كتاب ابن قلينه يريد كتاب المعارف

ثم ينتقل الى أيام العرب ومنها الى ذكر مفاخربنى شيبان ولعله انما اختصهم لما كان ابو على الحسن بن ابى الرجال ينتسب اليهم واليه رفع الكتاب .

ثم يذكر فصلا يذكر فيه ملوك العرب أيضا ويعتمد فيه على ما ينقل من ابن قتيبة ويصرح بذلك فى صدر الباب .

ثم يذكر بابا عن عتاق الخيل ومذكوراتها ويبدأ فيه بذكر خيول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكر السكب وهو فرسه يوم أحد ـ كما ذكر ابن قتيبة أيضا ويذكر المرتجز واللزاز والضرب ويذكر بغلته صلى الله عليه وسلم المشهورة باسم « دلدل وحماره يعفور ، وركائبه القصوى والجدعاء والعضباء »

ثم يعقد بابا لمنازل القمر ويسميها منزلة منزلة وانه فعل ذلك لما رأى العرب أعلم الناس بهذه المنازل وان اختلف عليها المحدثون وأخطأوا فيها .

ثم يذكر السنة وأنواءها وأجزاءها ، فهى أربعة أجزء ولكل جزء سبعة انواء لكل نوء ثلاثة عشر يوما الا نوء الجبهة فهو أربعة عشر يوما .

ثم يتطرق الى .. باب فى معرفة الأماكن والبلدان ـ فالحجاز ما بين الحجفة وجبلى طيىء ..

وأما الجزيرة فما بين دجلة والفرات .. وجزيرة العرب فى

الطول مابين حفير ابى موسى الى اقصى اليمين ، وفى العرض مابين يبرين الى السماوة ..

وسمى العراق بذلك تشبيها بعراق المزادة ، وهو موضع الخرز المستطيل فى أسفلها ..

وأما الشام واليمن فمن اليد اليمنى واليد الشـــؤمى وهى الشمال .. ومنهم من جعل الشام جمع شامة وهى النكتة تـــكون فى الجسم سوداء أو نحـــو ذلك ، وكـــذلك فى الأرض قال ذو الرمة :

وان لم تكونى غـــير شـــام بقفـــرة
تجـــر بهـــا الأذيال صيفية كـــدر

ذلك هو ابن رشيق فيما وراء النقد فى كتابه العمدة ـــ وكله أو أكثره مأخوذ من ابن قتيبة فى كتبه .

أما عن قدامة بن جعفر فانه ينقل كثيرا فى الأبواب المتصلة بالنقد والبلاغة ونقله من الكثرة بحيث لايمكن الاتيان على جميعه ولذلك نجتزىء بالاشارة لى مواطن اتصاله به اتصال نقل عنه أو معارضة له . فمن ذلك انا نرى تعريفه الشعر يشبه تعريف قدامة ، ويمكن مقارنة التعريفين أحدهما بالآخر لنستبين ذلك . كمايتحدث ابن رشيق عن المطابقة فيحكى فيها تعريفا لها ويذكر أن جميـــع الناس على ذلك التعريف الاقدامة ، ودلالة هذا أنه اطلع على ما

كتب قدامة فى نقد الشعر ، وان لم يرض بعض ماكتب .. ولذلك يناقشه فيقول .. واما قول قدامة : المطابق هو ما اشترك فى نقطة واحدة بعينها فانه ايضا مســـاواة لفظ للفظ .. وهى ـ اعنى المساواة على رأى الخليل والأصمعى ـ مساواة معنى لمعنى »[1]

وكذلك يتحدث ابن رشيق عن المقابلة ويذكر رأى قـدامة فيها ويناقشه أيضا [2] ومثل ذلك نرى له فى باب التسهيم الذى يسميه قدامة التوشيح [3] ، وفى باب الالتفـات ـ أما فى باب النسيب فانه يقول : « وينبغى أن يكون قصد الشاعر فى مـدح الكاتب والوزير ما اختاره قدامة [4] .

وتعريف ابن رشيق للرثاء هو تعريف قدامة وان لم يشر الى ذلك ـ وأخيرا ينقل عنه فى تعريف المعاظلة [5] .

وهكذا يكون قدامة بن جعفر مصدرا اطلع عليه ابن رشيق وقبل منه ورفض له ورد عليه ، فعل من يجعل عقله وراء مايقرأ وما ينقـــل .

وكذلك اتصل ابن رشيق بالجرجانى من طريق كتابه الوساطة فنقل عنه انه قال « الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٧ .
(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٥ .
(٣) العمدة جـ ٢ ص ٣٠ .
(٤) العمدة جـ ٢ ص ١٢٨ .
(٥) العمدة جـ ٢ ص ٢٥٠ .

والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه » (١) .

وينقل عن رأيه فى المحدث والقديم وانه يقول « ولست أفصل فى هذه القصيدة بين القديم والحديث ، والجاهلى والمخضرم ، والأعرابى والمولد ، الا انى ارى حاجة المحدث الى الرواية أمس وأجده الى كثرة الحفظ أفقر ، فاذا استكشفت عن هذه الحاله وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكى لايمكنه تناول ألفاظ العربى الا رواية ، ولا طريق للرواية الا السمع ، وملاك السمع الحفظ » .

ولم يكن صاحبنا لتفوته قراءة كتب الجاحظ ، وهو قد نقل عنه فى الحديث عن البلاغة (٢) وفى باب النظم (٣) ، وأعجبه قوله « طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لايحسن الا غريبه ، فرجعت الى لاخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابى عبيدة فوجدته لاينقل الا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والانساب ، فلم أظفر بما أردت الا عند ادباء الكتاب كالحسن بن دهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات » (٤) ويحمله الاعجاب بكلمة الجاحظ على أن يعقد فى كتابه العمدة بابا يختار

(١) العمدة ج ١ ص ٩٩/١٠٠ .
(٢) العمدة ج ١ ص ٢٢٠ .
(٣) العمدة ج ١ ص ٢٢٨ .
(٤) العمدة ج ٢ ص ١٠٠ .

فيه من أشعار الكتاب ، مؤكدا بذلك رأى الجاحظ فيما ذهب اليه من تفضيل أشعار الكتاب .

وممن أخذ عنهم كثيرا الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ فانه ينقل عنه أبواب الايجاز (١) والبيان (٢) والاستعارة وانها استعمال العبارة على غير ماوضعت فيه (٣) .. وان الاستعارة الجميلة ما أوخيت بلاغة ببيان لا تنوب منابه الحقيقة (٤) . كذلك يتابعه فى باب التشبيه ، ويعقب عليه حين يقول : « وأما ماشرطه الرومانى فى التشبيه فهو الحق الذى لايدفع الا انه قد حمل على الشاعر فيما أخذ عليه ــ يريد عيب الرمانى على من قال :

صدغه ضد خده مثل ما الوعـ
ـد اذا ما اعتبرت ضد الوعيد

من قبل أنه شبه الأوضح بالأغمض وما تقع عليه الحاسة بما لاتقع عليه ،

ويوجه ابن رشيق ذلك التشبيه فيقول : قصد الشاعر أن يشبه مايقوم فى النفس دليلة بأكثر مما هو عليه فى الحقيقة كأنه أراد المبالغة .. ثم يمضى الرجل فيورد حجج المحتج للرمانى ويرد .. مثبتا بذلك أنه لايتعصب للرأى ، ولكنه يناقش حتى يقنع او يقتنع، وذلك حيث يقول : ولعله يقول ــ أى الرمانى ــ أو يقول المحتج

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٢١ .
(٢) العمدة جـ ١ ص ٢٢٥ .
(٣) العمدة جـ ١ ص ٢٤١ .
(٤) العمدة جـ ١ ص ٢٤٢ .

له : معرفة النفس والمعقول أعظم من ادراك الحاسة لاسيما وقد جاء مثل هذا فى القرآن وفى الشعر الفصيح ، قال الله عز وجل : طلعها كأنه رءوس الشياطين .. فقال قوم : ان شجرة الزقوم وهى أيضا الاستن لها صورة منكرة وثمرة قبيحة يقال لها رءوس الشياطين وقال قوم الشياطين : الحيات فى غير هذا المكان ، والأجود الأعرف أنه شبه بما لايشك أنه منكر قبيح لما جعل الله عز وجل فى قلوب الناس من بشاعة صور الجن والشياطين فخوفنا تعالى بما أعد للعقوبة،وشبهه بما نخاف ان نراه ، ثم راح الرجل يحتج للمذهب الصحيح بقول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى
ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وانه شبه نصال النبل بأنياب الاغوال لما فى النفس منها ، وبقول ابى تمام :

وأحسن من نور يفتحه الندى   بياض العطايا فى سوادالمطالب

وقول أعرابى قديم :

يزملون حديث الضغن بينهم   والضغن أسود أوفىوجهه كلف

وقول بعض المولدين :

وتدير عينا فى صفيحة فضة   كسواد يأس فى بياض رجاء

فاليأس على الحقيقة غير أسود ، لأنه لا يدرك بالعيان ، لكن

صورته فى المعقول وتمثيله كذلك مجاز ، والرجاء ايضا على هذا التقدير فى البياض »[1]

وانما سقت هذا المثل من اتصال ابن رشيق بسابقيهومعاصريه ليرى القارىء معى كيف كان هذا الرجل يناقش الآراء ، ويجنح لما يعتقد انه الصواب ، الأمر الذى يدل على شخصية تحتكم الى المنطق السليم قبل أن تصدر الحكم فيما تتعرض له ، ومن ثم جاءت آراؤه وأكثرها مما يقتدى به الخالفون ، ويستشهد بها الذين يكتبون فى النقد الفنى ، حتى لقل أن تجد كتابا فى هذا الفن لم يكن العمدة بعض مراجعه .

وعلى هذا النمط نراه يذكر ابن المعتز وينقل عنه فى أبواب التجنيس [2] والالتفات [3] والاستثناء [4] ، وفى باب المذهب الكلامى [1] كما ينقل عن عبد الكريم النهشلى وعن الحاتمى وعن الأصمعى ، ولكنه كما تقدم نقل يتحكم فيه بصر بالنقد وأصوله ومعرفة بمذاهب القول وفنونه فاذا هو يناقش ويرد ويرفض مثلما يقبل أو يرتضى عن بينه واقناع واقتناع .

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٥٧ .
(٢) العمدة جـ ١ ص ٢١٣ .
(٣) العمدة جـ ٢ ص ٤٤ .
(٤) العمدة جـ ٢ ص ٤٥ .
(١) العمدة جـ ٢ ص ٧٥ .

الفصل السادس
ابن رشيق الشاعر

اذا كان الحديث قد طال عن ابن رشيق النـاقد ، فلأن ذلك الجانب من جهوده وانتاجه هو الذى عرفته به الدراسات الأدبية فى كتابيه العمدة أولا ، وقراضة الذهب ثانيا .

ان هذا الجانب قد غطى على جانب آخر لا يقل عنه فى حياة ابن رشيق ، واعنى به جانب الشعر ، فان فيه جهودا وانتاجا يدلان على شاعرية ممتازة .

ومع انا لم تقف له على ديوان يضم شعره ، ومبلغ علمنا بهذا الصدد أن هناك قطعة من ديوانه فى مكتبة اسكوريال ، فقد وقفنا على بعض انتاجه من الشعر ، وجدناه فيما تناثر فى كتـابه العمدة ، وفيما ذكرته كتب التراجم حين تعرضت له او لتـاريخ عصره أو لتاريخ معاصريه ، وتجمعت من ذلك كله جملة صـالحة لدراسة هذا الجانب فى حياة ابن رشيق.وقد جمع من ذلك الشعر المنثور فى مطاوى الكتب أحد علماء العصر ــ واعنى به الميمنى ــ وذلك فى كتابه الذى سماه النتف من شـعر ابن رشـيق وابن شرف ، وقد استعنت به كثيرا وانتفعت فى هذا الباب .

واذا كنا نعقد هذا الباب لاسـتجلاء صـورة ابن رشـيق

الشاعر ، بعدما استجلينا بن رشيق العالم الناقد ، فانا نقرر بين يدى هذا الباب آن الرجل عاش اخريات القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس . وتتسم هذه الفترة وما قبلها بأنها فترة الدويلات العربية .

ذلك أن الدوله العربية الكبرى والتى كان مركزها فى الشرق، وكانت جميع الدويلات فى الغرب تبعا لها تستمد منها وتئول اليها فى جميع شئونها ، هذه الدولة قد أصابها الضعف السياسى الذى اطمع فيها ولاتها ، فراح كل وال يستقل بولايته ، وبما تحت يده، ويتخلص من التبعية لبغداد العاصمة الأم للدولة العربية فى صورتها الكبرى . فقامت فى الشرق وفى الغرب دويلات صغيرة ، تسامى دولة بغداد ، وتتشبه بها حتى قال قائلهم :

مما يزهدنى فى أرض أندلس
تلقيب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وقد اسبقنا كيف قامت دولة العبيديين فى شمال افريقيا ، وكيف استقلت عن الخلافة العباسية ، ودعت لنفسها فى المغرب وفى مصر ، كما اسبقنا ان المعز بن باديس انفصل هو الآخر عن الدولة العبيدية أو الفاطمية كما كانت تتسمى لما تمركزت فى مصر واتخذت من القاهرة المعزية عاصمة لها . ومثل ذلك كان فى الشرق وفى الأندلس على حد سواء .

وكان المتوقع ان يتبع ذلك الضعف السياسى ضعف علمى وأدبى ولكن استعراض الحركات العلمية فى هذه الدويلات يؤكد أن ضعف مركز الدولة السياسى لم يؤثر على النهضة العلمية ، بل ربما كان هذا الانفصال سببا من اسباب ازدهار الحركة العلمية والأدبية فى العالم العربى بوجه عام . ذلك ان كل من استقل بالحكم فى رقعة من رقع الدولة كان يجعل من نفسه خليفة ينافس الخليفة العباسى فى بغداد ، أو فى الأقل يتشبه به ، فيخلق حول نفسه عرشا كعرش الخلافة ، وبلاطا كبلاط الخليفة ولا يكون بلاط بغير علماء وأدباء وشعراء ، يجزل لهم العطاء ويغدق عليهم المنح ، ويبالغ فى اكرامهم كما يفعل الخليفة العباسى فى بغداد ، وقد كان من ور ء ذلك كله أن يتبارى العلماء والشعراء فى اثبات وجودهم عن طريق البحث والدرس والعلم والشعر .

وقد رأينا كيف كانت الحركة العلمية والأدبية فى المغرب ومدنه ، القيروان والمهدية ، وفى جزيرة صقلية على عهدابن رشيق، ورأينا كيف اجتمع من الشعراء فى قصر المعز ثم فى قصر ابنه تميم أمثال صاحبنا ابن رشيق وصاحبه ابن شرف ، وأحمد بن حمديس الصقلى وغيرهم كثيرون ذكر منهم ابن رشيق فى كتابه الذى سماه أنموذج الزمان فى شعر القيروان . ومثل ذلك ما صنع صاحب شعراء المهدية .

فاذا اضفنا الى ذلك أن الخلفاء ، أو الولاة ، او الوزراء ، او

الحكام كانوا هم انفسهم ادباء وعلماء تبينا أسباب هذه النهضات الأدبية والعلمية فى تلك الدويلات النامية .

وفى المغرب كان المعز أديبا يتذوق الشعر ويجزل العطاء عليه ، وكان ابنه تميم شاعرا يقول الشعر ويقرب الشعراء وقد عاش فى كنفه ابن رشيق وابن شرف مدة بعد الغارة على القيروان كما انتجع حضرته أمثال ابى سحق بن خفاجة وعبد الله عبد الجبار الطرطوسى والفكيك وكلهم شعراء مبدعون ، وجدوا فى تميم رجلا يقدر الشعر ويقدرهم .

فى مثل هذه البيئة ، وفى هذا الجو عاش ابن رشيق ، وكان رجلا موهوبا منذ نعومة أظفاره ، الأمر الذى حدا به أن ييمم شطر القيروان وهو بعد حدث صغير ، والا فما كان لابن صائغ الذهب ، ولمن نشأ فى هذه الصناعة منذ الطفولة المبكرة ، أن يتطلع الى حياة الاغتراب فى القيروان بعيدا عن اسرته فى المسيلة ، لولا الرغبة منه فى اشباع نهمه الى الأدب ، ولولا ان له فطرة ألحت عليه ، ودفعت به الى مركز الشعر والشعراء والأدب والأدباء ، مدينة القيروان .

وقد رأينا كيف روت الروايات انه اجتمع بالشعراء منذ الحداثة ، ولما يبلغ الرشد ، حتى أنكر عليه مثل ذلك بعض المحدثين الذين ارخوا له ، وقد رددنا على اعتراضهم بأن لنبوغ لا يعرف المألوف وانما هو دائما شذوذ .

ولكى تستبين شاعرية ابن رشيق فانا بينا نراه يسوق فى حديثه من شعر الشعراء اذا هو يسوق لنفسه من شعره واتجاه، وكأنى به يحس انه لهم ند ونظير ، وكثر صنيعه هذا بالنسبة للمتنبى والبحترى وابن الرومى ، الأمر الذى أميل معه الى أن الرجل كان يعرف من نفسه انه شاعر خليق بأن يستشهد بشعره ، وبأن يوضع فى مصاف أولئك الذين دوت اسماؤهم فى مجال الشعر العربى . وبنا ان ننظر فى ذلك .

بينه وبين المتنبى

ويبدو أن اعجاب ابن رشيق بشعره ودالته بقريضه ، جعلاه يرى نفسه فى المغرب كما كان المتنبى فى المشرق ، واذا كان هو لا يصرح بذلك ، فان مساق حديثه فى مواضع من كتاب العمدة يشير الى هذا ، ولو من طرف خفى ، وربما أكد ذلك الذى أذهب اليه ما جاء فى الذخيرة لابن بسام اذ يقول : « وحدثت أن أبا على ابن رشيق ناجى نفسه بمعارضته أبى الطيب المتنبى فى بعض اشعاره ، وراطن شيطانه بالدخول فى مضماره ، فأطال الفكرة ، وأعمل النظرة ، فأداه جهده ، وذهب به نقده الى معارضة

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء
اذ حيث أنت من الظلام ضياء
مشى المليحة وهى مسك هتكها
ومسيرها بالليل وهى ذكاء

فبث عيونه ، واستمد ملائكته وشياطينه ، ثم صنع قصيدة — فيما بلغنى — رأى أنها مادة طبعه ، ومنتهى طاقة وسعه ، ثم حكم نقده ، ورضى بما عنده ، فرأى أن قصرت يداه ، وقصر مداه ، وأن الاحسان كنز لايوجد بالطلب ، وميدان لايستولى عليه بالتعصب ، وصان نفسه عن أن يتحدث عنه بأن الهرة أحزم منه[1]وهكذا يكون ابن رشيق طاول المتنبى وان يكن هذا طاله ، وحدثته نفسه بأن يعارضه — وهو الناقد الذى يعرف اقدار الشعراء — ثم كف ، ولولا أنه كان يجد من نفسه شبها بالمتنبى لما فكر فى المعارضة .

على اننا حين ننظر فى كتابه العمدة نراه وكأنه ينطق بما تجن نفسه من الشبه بينه وبين صاحبه فهو يقول : وقد ذكر ابو الطيب الخيل فى كثير من شعره ، وكان يؤثرها على الابل لما يقوم فى نفسه من التهيب بذكر الخيل وتعاطى الشجاعة ، فقال يذكرقدومه على مصر ، على خوف من سيف الدولة :

ويوم كليل العاشقين كمنته ... من الليل باق بين عينيه كوكب
وعينى الى أذنى أغر كأنه ... أراقب فيه الشمس ايان تغرب
له فضلة عن جسمه فى اهابه ... تجىء على صدر رحيب وتذهب
سبقت به الظلماء أدنى عنانه ... فيطغى ، وأرخيه مرارا فيلعب
وأصرع أى الوحش قفيته به ... وأنزل عنه مثله حين أركب

---

(1) الذخيرة — القسم الرابع — المجلد الاول ص ١٥ .

وما الخيل الا كالصديق قليله　　وان كثرت فى عين من لا يجرب
اذا لم تشاهد غير حسن شياتها　　واعضائها فالحسن عنك مغيب

يذكر ابن رشيق ذلك الشعر للمتنبى فى وصف الخيل ـ وهو لا يرى نفسه دونه ، فيقدم لنا نموذجا من شعره فى الموضوع ذاته ، ولكنه يتواضع فيقول : وقد قلت أنا وان لم أدخل فى جملة من تقدم ولا بلغت خطته ـ قصيدة اعتذرت بها الى ـ مولانا خلد الله ملكه ـ من طول غيبة غبتها عن الديوان :

اليك يخاض البحر فعما كأنه
بأمواجه جيش الى البر يزحف
ويبعث خلف النجح كل منيفة
تريك يداها كيف تطوى التنائف
من الموجفات اللاء يقذفن بالحصى
ويرمى بهن المهمه المتقاذف
يطير اللغام الجعد عنها كأنه
من القطن أو ثلج الشتاء ندائف
وقد نازعت فضل الزمام ابن نكبة
هو السيف لا ما أخلصته المشارف
فكيف ترانى لو اعنت على الغنى
بجد ، وانى للغنى لمشارف
وقد قرب الله المسافة بيننا
وانجز فى الوعد الزمان المساوف

ولولا شقائى لم أغب عنك ساعة
ولا رام صرفى عن حياتك صارف
ولكننى أخطأت رشدى فلم اصب
وقد يخطىء الرشد الفتى وهو عارف

ثم يقول فى عقيب ذلك الشعر الذى يصف فيه الناقة بينا وصف المتنبى الفرس وكأنه يريد ان يقول انه يستطيع أيضا أن يصف الفرس كالمتنبى ـ يقول : ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهدية ساعة وصولى اليه ـ أدام الله عزه ـ عن اقتراح بعض شعرائنا :

وذيال له رجل طحون	لما نزلت به ويد زجوج
يطير بأربع لا عيب فيها	لظهران الصفا منها عجيج
خرجت به عن الأوهام سبقا	وقل له عن الوهم الخروج
الى الملك المعز أبى تميم	أمر بمن سواه فلا اعيج

وفى موضع آخر يتحدث عن البلاغة فيذكر قول السيد ابى الحسن فى صفة كاتب بالبلاغة وحسن الحظ :

اذا مشقت يمناك فى الطرس اسطرا
حكيت بها وشى الملاء المنضد
يروق مجيد الخط حسن حروفها
ويعجب منها بالمقال المسدد

ثم يقول : وهذا الشعر كالأول ــ يريد أبيــاتا لأبى الحسن أيضا ــ وان أبا الحسن لكما قال سميه أبو الطيب خاتم الشعراء :

عليم بأســـــرار الديانات واللغى
له خطرات تفضح النـاس والـكتبا

وأخيرا يقول : ــ بل كما قال ولى نعمته ، وشاكر منته ــ يريد نفسه :

انى لأعجب كيف يحسن عنــــده
شــعر من الأشــعار مع احســانه
مـــاذاك الا أنـــه در النـــهى
يفــد التجــار به على دهقـــانه

فاذا كان ابن رشيق يذكر شعر ابى الحسن بن ابى الرجال ، ثم يذكر فى عقيبه شعرا للمتنبى على أنه سميه ، فانه اذا ذكر بعد ذلك شعرا لنفسه ، فليس الا لأنه يعتبر ذلك الشعر سميا أيضا لشعر المتنبى .

ويؤكد ما يعتمل فى نفس ابن رشيق من شبه شــعره بشعر المتنبى ان يقول بعــد بيتيه السالفين : استغفر الله ، لا أجحــد أبا الطيب حقه ولا أنكر فضله وقد قال :

مثلك منشـــد القـــريض لديه
يضـــع الثـــوب فى يدى بزاز

فمثل هذا الحديث لا يصدر عن ابن رشيق ألا وهو بينه وبين نفسه مقتنع بأنه متنبى المغرب والا فما الذى يخطر على باله أن يستشهد بشعره ،كلما استشهد للمتنبى ببيت أو بأبيـات ، ان الافكار تستثار بعلاقات كثيرة ، من بينها علاقة التشابه كما يقول علماء النفس ، وهذه هى العلاقة التى تحمله على أن يقرن شعره فى مواطن كثيرة من الكتاب بشعر المتنبى ، فاذا نحن ذهبنا الى أنـه كان يرى نفسه هو متنبى المغرب فلسنا بمسرفين على الحقيقة .

على أن النظر الفنى فى شعر ابن رشيق يؤدى الى الحكم بأن له ديباجة كديبـاجة المتنبى وهـذه أبياته المتقـدمة فى وصف النـاقة والأخرى فى وصف الفرس تؤكد ما اقول فان فيهـا من جسالة الألفاظ وفخامتها وجزالتها ، ثم فيها من احكام التراكيب وتساوق الجمل ، والتحام اجزائها بعضها ببعض ما يشهد بشاعرية متمكنة تؤثر جزل القول ، وتقرض الشعر رزينا رصينا مسرفا فى الجزالة حتى ليحسب قارىء شعره فى وصف النـاقة أنه يقـرأ لشاعر جاهلى فضلا عن ان يحسبه لشاعر كالمتنبى ، واقرأ معى ثانيـــة بيتيـــه :

من الموجفات اللاء يقــذفن بالحصى
ويرمى بهن المهمـــه المتقـــاذف

يطـير اللغـام الجعـد عنهـا كأنه
من القطن أو ثلـج الشـتاء تدانف

قال ابن رشيق لو قرن مثل هذا الشعر بشعر طرفه فى الناقة لما كان عندى مسرفا ولا مبالغا .

وانظر فى أبياته فى وصف الحصان وكيف اختار صيغة فعول فى قوله :

وذيال له رجل طحـــون   لمـــا نزلت به ويد زجـــوج

فانه اختيار يدل على بصر بمواقع القول ، واهتداء الى أوفق الكلمات للمعانى ، ثم انظر الى الصورة الفنية والخيـــال البارع الذى يتسمع لصوت الحصا يتناثر من حوافر الحصان فاذا هـــو وله صوت يعج عجيجا وذلك حيث يقول :

يطـير بأربع لا عيب فيهـــا   لظهـــران الصـــفا منها عجيج

ثم كيف جعله يطير ، فهو لا يمشى ولا يعدو ولا يجـــرى ولا يسير ، وانما يطير ، ولا يقال الوزن فان كلمة يسير مثل يطـــير ، ولكنه القصد الى السرعة واختيار الكلمة المناسبة لذلك .

ومثل ذلك الابداع لابن رشيق ، والقـــرب من المتنبى حين نقرن قوله :

انى لأعجب كيف يحسن عنده   البيتين

بقـــــول المتنبى :

ملك منشـــد القريض لديه   البيت

فلولا أن المتنبى سبق ، وأنه أتى على المعنى فى بيت وأتى عليه ابن رشيق فى بيتين مع تأخره لما نزلت بصاحبى عن المتنبى درجة .

بينه وبين البحترى :

وكما تحسس ابن رشيق من نفسه أنه كالمتنبى او قريب ، فانه رآها كالبحترى أيضا فقد ذكر له قوله فى العتاب :

يريبـــنى الشىء تأتى بـــه وأكبـــر قدرك آن استـــريبا
وأكـــره أن اتمـــادى على سبيل اغترار فألقى شـــعوبا
اكـــذب ظنى بأن قـــد ســـخطت وما كنت أعهـــد ظنى كذوبا
ولولم تكن ســـاخطا لم أكن اذم الزمان واشـــكو الخطوبا
ولابـــد من لومـــة انتحى عليك بها مخطئـــا أو مصـــيبا

الى أن يقـــــول :

أراقب رأيك حتى يصـــح فأنظر عطفك حتى يثـــوبا

ثم اتبع ذلك بقوله : وقد نحوت أنا هذا النحـــو فى كلمـــة عاتبت بها القاضى جعفر بن عبد الله الكوفى قلت فيها :

وقـــد كنت لا آتى اليـــك مخـــاتلا
لديك ولا أثنى عليـــك تصـــنعا
ولـــكن رأيت المـــدح فيك فريضـــة
على اذا كان المـــديح تطـــوعا
فقمت بمـــا لم يخف عنـــك مكانه
من القـــول حتى ضاق مما توســـعا
ولو غيرك الموســـوم عنى بريبـــة
لأعطيت منها مدعى القـــول ما ادعى

فلا تتخالجك الظنون فانها
مآثم ، واترك فى للصنع موضعا
فوالله ما طولت باللوم فيكم
لسانا ولا عرضت للذم مسمعا
ولا ملت عنكم بالوداد ولا انطوت
حبالى ولا ولى ثنائى مودعا
بلى ربما أكرمت نفسى فلم تهن
واجللتها عن ان تذل وتخضعا
ولم أرض بالحظ الزهيد ولم أكن
ثقيلا على الاخوان كلا مدفعا
فباينت لا أن العداوة باينت
وقاطعت لا أن الوفاء تقطعا
ألوذ باكتاف الرجاء وأتقى
شمات العدا ان لم أجدفيك مطمعا

وواضح ما بين الشعرين من وحدة النهج ، والتشابه فى المعانى ، والدخول الى نفس المعتوب عليه ، واستعراض كلا الشاعرين لموقفه من صاحبه مع احكام الجمل وتناسق الفقر والعبارات . ولو رحنا نحلل ابيات القطعتين لرأينا الشبه الكبير حتى لو نسبتا الى قائل واحد ما ساور نفسك شك فى النسبة وهل فرق بين قول الأول :

أراقب رأيك حتى يصح وانظر عطفك حتى يثوبا

وقول الآخر :

ألوذ بأكتاف الرجاء وأتقى
شمات العدا ان لم اجد فيك مطمعاً

الى غير ذلك مما تسلل به كل منهما الى نفس صاحبه .

بينه وبين غير المتنبى والبحترى

وكما رأيناه يلحق شعره بشعر المتنبى ، والبحترى ، فانه أيضاً يلحقه بأشعار غيرهما ، ولا ذلك الا لما يرى فيه من قوة الشاعرية التى يستتبيح معها أن يضع نفسه بين الشعراء كواحد منهم فيقول وهذا ابن المقفع جعل من السكوت بلاغة ، وقال بعض الكلبيين :

واعلم بأن من السكوت ابانة ومن التكلم ما يكون خبالا

ثم يقول ــ وقلت أنا فى ذلك :

وأخرق اكال للحم صديقه وليس لجارى ريقه بمسيغ
سكت له ضنا بعرضى فلم أجب ورب جواب فى السكوت بليغ

وقلت أيضا :

أيها الموحى الينا نفثة الصل الصموت
ما سكتنا عنك عيا رب نطق فى السكوت

فهو لا يرى نفسه دون الشعراء ، وانما هو مثلهم فيما يعرضون له من المعانى

ويحكى ابن رشيق بيت امرىء القيس :

اذا ما ركبنا قال ولدان حينا
تعالوا الى أن يأتنا الصيد نحطب

ثم يقول ــ نقله ابن مقبل الى القدح فقال :

اذا امتحنته من معد عصابة
غدارية قبل الافاضة يقدح

ونقله ابن المعتز الى البازى فقال :

قد وثق القوم له بما طلب
فهو اذا عرى لصيد واضطرب

عروا سكاكين لهم من القرب

يقول ــ ونقلته أنا الى قوس البندق فقلت :

طير أبابيل جاءتنا فما برحت ... الا وأقواسنا الطير الأبابيل
ترميهم بحصى طير مسومة ... كأن معدنها للرمى سجيل
تعدو على ثقة منى بأطيبها ... فالنار تقدح والطنجبير مغسول

وقد ابدع الرجل فى صفة القوس والصيد والقنص ولولا كلمة الطنجبير لكانت أبياته فى ذروة ما نقرأ لهم فى هذا المعنى، على ان

الكلمة الطنجير اسم للوعاء وما كانت له مندوحة من استعمالها كما استعملت العرب الأوائل كلمات غير عربية لما اضطرتهم الحياة الى استخدام مدلولاتها .

ذلك هو ابن رشيق ، وما يضع نفسه بين الشعراء ، وشعره مع الشعر . فما هو بأقل منهم ، ولا شعره دون شعر فحولهم . وعندى أنه لم يبالغ ، ولم يتجاوز بشعره قدره ، ومع ان ما فى ايدينا منه قلة الا انها قلة تدل على انه شعر يسمو بصاحبه الى حيث كان يتطلع من ان يجدها فى صفوف المجيدين من الشعراء. وسأعرض من قوله فى الأغراض المختلفة مايقوم شاهدا ودليلا على شاعريته .

هو فى الوصف :

واذا كان هو نفسه يقول « الشعر الا أقله راجع الى الوصف ولا سبيل الى حصره واستقصائه » فانى أقول انه قال فى هذا الباب مالا تتسع هذه السيرة لحصره أو الاتيان على جميعه ، فهو قد وصف أكثر ماوقع له فى حياته ، وصف الطبيعة فى البحر والقفر ، والليل والنهار ، ووصف الحيوان والطير والدواب والهوام ، ووصف النبات والزهور والرياحين والفواكه ، وصف مجالس الشراب ، واجتماع الندمان،وما يدور بينهم من مداعبات وأحاديث ، وأكبر ظنى ان لو وصل الينا كل شعره او جله لكان بين ايدينا ديوان ضخم ، فان ما وصلنا على قلته يشير الى شاعر

ملك زمام القول ، وتمكن من رسن اللغة ، وسلس فى يده عنانها واليك بعض ما يشهد لذلك :

(ا) وصف الطبيعة :

١ - وصف ابن رشيق الطبيعة فى الشتاء وما يكون من تجهم السماء ، وانتشار السحاب والغيوم ، وما يصاحب ذلك من البرق والمطر فقال :

خليلى هل للمزن مقلة عاشق
أم النار فى أحشائها وهى لا تدرى

سحاب حكت ثكلى أصيب وحيدها
فعاجت له نحو الرياض على قبر

ترقرق دمعا فى خدود توشحت
مطارفها بالبرق طرزا من التبر

فوشى بلا رقم ونسج بلا يد
ودمع بلا عين وضحك بلا ثغر

وهى صورة طريفة اعمل فيها الشاعر خياله ، وتساءل فيها تساؤل الجاهل عن المزن وهل لها مقله تسح ، وهل الرعد فى أحشائه نار تتراءى ؟ تم شبه السحاب بالثكلى فقدت وحيدها فدمعها عليه مدرار الى آخر ما يجد الناظر فى الابيات من الابداع الفنى الذى لا يشبهه الا قول ابن الرومى فى مثل ذلك .

٢ ـ ووصفها عند مطلع الفجر وابدع فى ابراز الصورة مع الاختصار فقال :

كأنمـا الصـبح الذى تفرى
ضم الىالشرق النجوم الزهرا
فاختلطت فيه فصـارت فجرا

٣ ـ ووصف البحر ، وقد اشتدت الريح فيه وعصفت،وعلت الأمواج وارتطمت بالسفين ، والليل يغشى بظلامه كل شيء فقال ولم ينس محبوبته برغم ذلك كله :

ولقـد ذكرتك فى السـفينة والردى
متـوقع بتـلاطم الأمواج
والجـو يهطـل والرياح عواصف
والليـل مسـود الذوائب داج

٤ ـ ووصف الارتحال وقطع المفاوز متفردا من الأصـحاب والرفيق فقال :

وماء بعيد الغـور كالنجم فى الدجى
وردت طروقا أو وردت مهجـرا
على قدم أخت الجنـاح وأخمص
يخال حصـا المعزاء جمـرا مسـعرا
فريدا من الاصحاب صلتا من الكسا
كمـا اسـلم الغمد الحسـام المذكرا

وكأنى به اشتق الفاظه من وعورة البادية ، وصلابة صخرها ، وشدة حرها حتى لو نسبت الأبيات لشاعر عاش فى الصحراء ، لا فى بلاط المعز ـ ما أنكر الحس اللغوى نسبتها ـ ولكن ابن رشيق وما ملك من غريب اللغة وجزلها . وما أبدع كتابته عن ركوبته وأنها أخت الجناح ، وما احسن تشبيهه تفرده بالحسام اسلمه غمده ...

٥ ـ ووصف طول الليل وما يكون من بطء تقضيه على المهجور وذلك فى قوله :

أقول كالمأسور فى ليلة	ألقت على الآفاق كلكالها
يا ليلة الهجر التى ليتها	قطع سيف الهجر أوصالها
ما أحسنت حسنا ولا أجملت	هذا وليس الحسن الا لها

واذا كان ليل المهجور طويلا ، فان ليل العاشق الواصل جد قصير ولذلك يقول فى الليل ذاته لكن الحال غير الحال :

أيها الليل طر بغير جناح	ليس للعين راحة فى الصباح
كيف لا أبغض الصباح وفيه	بان عنى أولو الوجوه الصباح

(ب) وصف الحيوان :

١ ـ وصف زرافة جاءت للمعز بن باديس هدية من مصر فأبدع فى وصفها ، ووصفها غير شائع عند العرب اذ لم تكن من حيواناتهم ، ولأنه يقول فيها على غير مثال يحتذى فانه يقول عند

ذكر الأبيات : ومن الأوصاف القليلة المثل قول رؤبة يصف الفيل وقولى فى زرافة أتت فى الهدية من مصر (١) :

وأتتك من كسب الملوك زرافة ... شتى الصفات لكونها أثناء

جمعت محاسن ما حكت فتناسبت ... فى خلقها وتنافت الأعضاء

تحتثها بين الخوافق مشية ... باد عليها الكبر والخيلاء

وتمد جيدا فى الهواء يزينها ... فكأنه تحت اللواء لواء

حطت مآخرها وأشرف صدرها ... حتى كأن وقوفها اقعاء

وكأن فهر الطيب ما رجمت به ... وجه الثرى لو لمت الأجزاء

وتخيرت دون الملابس حلة ... عيت لصنعة مثلها صنعاء

لونا كلون الزبل الا أنه ... حلى وجزع بعضه الجلاء

أو كالسحاب المكنهرة خيطت ... فيه البروق وميضها ايماء

أو مثل ما صدئت صفائح جوشن ... وجرى على حلقاتهن جلاء

نعم التجافيف التى ادرعت به ... من جلدها لو كان فيه وقاء

وقال فيها أيضا :

ومجنوبة أبدا لم تكن ... مذللة الظهر للراكب

قد اتصل الجيد من ظهرها ... بمثل السنام بلا غارب

ملمعة مثلما لمعت ... بحناء وشى يد الكاعب

كأن الجوارى كنفنها ... لخالح من كل ما جانب

---

(١) العمدة ج ٢ ص ٢٨١ .

والابداع فى هذا الوصف أنه غير مسبوق اليه،ولا يقال عنه: مقلد فيه كمثل ما يمكن أن يقال فى وصف الخيـل أو الابل أو ما ألفت العرب أن تقول فيه . ومع ذلك فقد بلغ غايته فى تصوير خلقها ولونها وامتداد عنقها وارتفاع يديها على رجليها ، وتخطيط جلدها ، وفى كل ذلك كان يشبه فيوفق فى التشبيه .

٢ ــ ووصف الناقة فى خلال ابيات اعتذر فيها عن غيبته عن المعز ، وقد تقدمت وحظ الناقة فيها ثلاثة الأبيات التى يقول فيها :

ويبعث خلف النجح كل منيفـــة
تريك يداها كيف تطوى التنـــائف

من الموجعات اللائى يقذفن بالحصـا
ويرمى بهن المهمـــه المتقـــاذف

يطـير اللغـام الجعـد عنهـا كأنه
من القطن أو ثلج الشـــتاء ندائف

٣ ــ ووصف البغل فى أكثر من موضع ، فقال فى بغلة ركبها وكانت يابسة الظهر غير وطيئة ولا مريحة :

كأنى بعض نجـوم السـماء	تصـعد فى الجو ثم انحـدر
على رسلة من هبـات الملوك	سـفواء ملمـومة كالحجـر
تعـاون فى جدل أعضائها	بنـو أحـذر وبنـات الأغر

يريد ببيته الأخير أن قد شارك فى انسالها حمار وفرس .

وقال فيها أيضا :

اذا أقبلت أقعت وان ادبرت كبت
وتعرض طولا فى العنان فتستوى
وكلفت حاجاتى شبيهة طائر
اذا انتشرت ظلت لها الأرض تنطوى

(حـ) وصف الفواكه والزهور :

ولها من شعر ابن رشيق نصيب موفور يدل على تعلق بالقول فيها فقد وصف النارنج والبنفسج والأترج والتفاح والشقيق وغيرها .

١ ـ يقول فى البنفسج :

بنفسج جاءك فى حين لا … حر يرى ولا فرط برد
كأنه لما أتينا به … منغمس الاثواب فى اللازورد

٢ ـ وقال فى التفاح :

تفاحة شامية … من كف ظبى أكحل
ما خلقت مذ خلقت … تلك لغير القبل
كأنما حمرتها … حمرة خد خجل

٣ ـ وقال فى الأترج :

اترجة سبطة الأطراف ناعمة
تلقى النفوس بحظ غير منحوس

كأنمـــا بسطت كفـــا لخالقهـــا
تدعو بطـــول بقـــاء لابن باديس

٤ ــ وقال فى الشقيق :

رأيت شـــقيقة حمـــراء باد ... على أطرافهـــا لطخ السواد
يلوح بهـــا فأحسن ما تراه ... على شـــفة الصبى من المداد

٥ ــ وقال فى شجرة نارنج :

ودوحة نارنج بهتنا بحسـنها ... وقد نشرت أغصانها للتـأود
ونارنجها فوق الغصون كأنه ... نجوم عقيق فى ســماء زبرجد

٦ ــ وقال فى الرمان :

نظرت الى البســـتان أحسن منظـر
وقد حجب الأغصان شمس المشــارق
بـه زوج رمـان يلـــوح كأنـه
قنـاديل تبـر محـكمات العـلائق

(د) ووصف الهوام والحشرات ومالا يخطر على البـال أن يقال فيه شعر :

١ ــ فقال فى البعوض يشكو أذاه :

يارب لا أقـــوى على دفع الأذى
وبك اســتعنت على الضعيف الموذى
مالى بعثت الى ألف بعوضـــة
وبعثت واحـــدة الى نمـــروذ

٢ - وقال فى غلام وقعت ثنيته وأبدع وأغرب فى قوله :

سقطت ثنيته فأوجع قلبـــه لســقوطها وجرى عليه عظيم
فاذا مررت به فســل فؤاده عنها وقل صــبرا كذاك الريم
عجبا للؤلؤة هوت من سلكها والسلك لا واه ولا مفصــوم
اتعديا يا خطب وهو مصــون أبدا بخــاتم ربه مختــوم

وبالجملة فابن رشيق ترك لنا فى القلة القليلة من شعره صورة لشاعر وصاف لم يقع له شىء الا قال فيه كبر ذلك الشىءوكان ذا بال . أم صغر وكان مما لا يؤبه له ، ولا يقــال فيــه ومن ثم لا نسرف على الحقيقة اذا قلنا انه كان شاعرا من طراز الشــعراء الوصافين كابن الرومى وابن المعتز ...

هو فى المجــون :

وربما كان المجون ثانى الأغراض التى تلفت النظر نحو شعر ابن رشيق ذلك أنه ينحو فيه نحو أبى نواس من حيث ميله الى الغلمان ، وكثرة تحدثه عنهم ، مع التصريح فى مواطن من شعره بما يمسك الرجل العف عن ذكره .

وقد اسبقت جملة من شعره فى هذا الباب عند الحدث عن اخلاقه ولذلك نذكر هنا ما يشــير الى غلبة هذه الظاهرة فى شعره فمن ذلك قوله فى غلام :

عزيز يبارى الصبح اشراق خده
وفى مفرق الظلماء منه نسيب
يزف اليه ضاحكا أقحوانه
ويهتز فى برديه منه قضيب

وقال أيضا والقول يحتمل أن يكون فى غلام ، وان يكون فى زوجة يحميها زوج يغار عليها ، وايا ما يكون ففيه تكشف :

ومهفهف يحميه عن نظر الورى
غيران ، سكنى الموت تحت قبابه
أومى الى أن ائتنى ، فأتيته
والفجر يرمق من خلال نقابه
فاشمت خدا منه ضرم لوعتى
وجعلت أطفىء حرها برضابه
وضممته للصدر حتى استوهبت
منى ثيابى بعض طيب ثيابه
فكأن قلبى من وراء ضلوعه
طربا يخبر قلبه عما به

فتراه وهو يحكى ما كان بينه وبين المحبوب من نظرات فاشارات فتزاور « والفجر يرمق من خلال ثيابه » وكيف اتاه فلثم منه خدا ضرم لوعته فلم يطفئها الا بريقه ورضابه الى آخر ماكان بينهما من تلاقى ثوبيهما تلاقيا استوهبت معه ثيابه من طيب ثياب المحبوب .

وأفحش من ذلك أن يقول ابن رشيق :

أحمل أثقالى على ردفه ... وأمسك الخصر لئلا يضيع

أو يقول :

بنفسى من سكان صبرة واحد ... هوالناس والباقون بعد فضول
عزيز له نصفان : ذا فى ازاره ... سمين وهذا فى الوشاح نحيل
مدار كئوس اللحظ منه مكمل ... ويقطف ورد الخد منه جميل

أو يقول ويبلغ فى تكشفه مالا يبلغه كثيرون غيره :

ان زارنى يوما على خلوة ... او زرته فى موضع خال
كنت له رفعا على الابتدا ... وكان لى نصبا على الحال

أو يقول فى غلامه وقد بلغ مبلغ الرجال ، ونبت على عارضيه عذاراه ، وظن ان ذلك مما يصرف عنه صاحبه ولكن صاحبه لم يكن عنه مصروفا وانما ظل يلاحقه ويتابعه :

واسمر اللون عسجدى ... يكاد يستمطر الجهاما
ضاق بحمل العذار ذرعا ... كالمهر لا يعرف اللجاما
ونكس الرأس اذ رآنى ... كآبة واكتسى احتشاما
وظن أن العذار مما ... يزيح عن قلبى الغراما
وما درى انه نبات ... أنبت فى جسمى السقاما
وهل ترى عارضيه الا ... حمائلا حملت حساما

ويقول فى محبوبة همت بصده ، وهو صريح فى أنه لقيها وضمها ومسح مقلتيه فى نحرها فعل الماجن الذى لا يبالى :

فكرت ليلة وصلها فى صدها فجرت بقايا أدمعى كالعنـدم
فطفقت أمسح مقلتى فى نحرها اذ عادة الكافور امساك الدم

ويتحدث عن لقيا صاحبه فى الحمام ، وقد أمتع منه بصره ، واشبع منه حواسه ، والفضل فى ذلك للحمام الذى جلاه له عريان حاسرا ــ يقول :

سأشكر للحمام بدءا وعودة ايادى بيضا مالهن ثمين
جلاه على عينى عريان حاسرا فرحت بتطليق وأنت تمين
وطهر قلبى من هواك ببارد وسخن ، فقر الجفن وهو سخين

وهكذا مايزال ابن رشيق يتحدث عن الغلمان وعن عبثه بهم ومعهم حتى يستقر فى الذهن انه شاعر من طراز ابى نواس على اقلال هنا واسراف هناك ــ ومن يدرى فلعل شعره لو وصل الينا كله لكان فيه ما يضاهىء به صاحبه شبرا بشبر وذراعا بذراع . ولعله من حظ الاخلاق ان يكون ضاع من شعره ما ضاع مما عسى أن يكون فيه أكثر فحشا . على أن فى الذى قدمنا له مايكفى لاتهامه .

هو فى الخمر :

أما ما أثر عنه فى هذا الباب فيشير الى شاعر ألف الشراب ، وأكثر منه ، وكان يحبها صرفا غير ممزوجة الا بريقه أو ريق العذارى .

يقول فى كتابه انموذج الزمان : « اجتمعت بأبى حديدة الشاعر يوما وأنا سكران ، فسألنى عن حال المكان الذى كنت

فيـه ، فوصـفته ، وأفضت في صـفته الى ذكـر غـلام كان ساقيا فقلت في عرض الكلام ولم أرد الوزن :

فشربتهـــا من راحتيــه كأنهـــا من وجنتيـــه
وكأنهـــا في فعلهـــا تحـــكى الذى في ناظـريه

وقلت له أجز ، فقــال :

وشـــممت وردة خـــده نظـــرا ونرجس مقلتيـــه

فقلت احسنت في شمك بالنظر كما سمع ابو الطيب بالبصر في قوله :

« كالحظ يمـــلأ مســـمعى من ابصرا »

ويقول من خمرية :

قـــدر المـدامة فوق قـــدر المـاء
فارغب بكأسك عن سـوى الأكفـاء
مالى ومـزج الـراح الا في فمى
بالريق من فم غادة حســـــناء
ذاك المـــزاج ، وان تعـدانى الذى
في المزن من ذى رقـة وصـــفاء
اشـهى وابلغ في الفـــؤاد مسرة
من غـــيره وأدب في الأعضـــاء
لى الصرف ان فرح النـديم ولم أكن
مسـتأثرا فيهـا عن النـــدماء

ويتردد فى شعره طلب شربها صرفا غير ممزوجة فيقول :

قلت لمن ناولنى مسرة ما بى حب الغيد بل حبها
لا تسقنى راحك ممزوجة واشرب فما يمكننى شربها
ما راحتى فى الراح ان غيرت دعها كما جاء بها ربها

ويقول وقد بات ليلة يشربها صرفا :

ومن حسنات الدهر عندى ليلة من العمر لم تترك لأيامها ذنبا
خلونا بها ننفى القذى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهبا سكبا
وملنا لتقبيل الثغور ولثمها كمثل جنوح الطير تلتقط الحبا

وكان السقاة يغنون الشاربين فوق ما يسقونهم فدعا يوما ساقيه ليغنيه بالقصيدة التى مطلعها :

حى نجدا ومن بأكناف نجد

على أن يسقيه فى أثناء ذلك خمرا صرفا ، يصير البخيل منها حاتما ، والجبان بطلا فقال :

غننى يامجود الخلق عندى «حى نجدا ومن بأكناف نجد»
واسقنى مايصير ذو البخل منها حاتما والجبان عمرو بن معدى
فى زمان الشباب عاجلنى الشيب فهذا أوائل الدن دردى

وهكذا يبلغ ابن رشيق فى هذا الباب ما بلغه فى غيره من الأبواب التى سلفت .

هو فى الرثاء :

(ا) رثاء الأشخاص :

وابن رشيق انسان ، وله بالناس صلات ، وفيه وفاء ، فلا بدع

اذا هو رثى وبكا على أحبابه اذا فارقوا ، وكلما كانت صلة الراثى بالمرثى قوية كلما جاء شعره فيه أقوى تعبيرا ، وأصدق منطقا لا سيما اذا هو أعين على ذلك بمدد من اللغة ، وفيض من أساليبها ، ولا نشك ــ اعتمادا على النصوص التى بين أيدينا فى أن صاحبنا رزق من ذلك ما فيه الكفاية وفوق الكفاية ليبكى خلانه وشيوخه وأولياء نعمته . وجميع ذلك فى عبارات جزله ، وتراكيب قوية شديدة الأسر ، قوية التأثير فى النفس ، وها هو ذا يبكى واحدا من أبناء بلدته التى ولد فيها ، وعلقت بها عليه تمائمه ، وهى المحمدية والمرثى قاضيها طاهر بن عبد الله .

يقول :

العفر فى فم ذاك الصائح الناعى ... ولا أجيب بخير دعوة الداعى

وقد تقدمت :

ويموت المعز بن باديس وقد عاش هو فى بلاطه ما ينيف على أربعين سنة لقى فيها من بره وكرمه ما أنطقه بمدحه ، فلابد وأن يرثيه اذا هو مات ــ وقد فعل فقال :

ولى المعز على أعقابه فرمى ... أو كاد ينهد من أركانه الفلك

مضى فقيرا وأبقى فى خزائنه ... هام الملوك وما أدراك ماملكوا

ثم يأخذ فى وصف خصائله وصفاته حيث يقول :

ما كان الا حساما سله قدر

على الذين بغوا فى الأرض وانهمكوا

كأنه لم يخض للموت بحر وغى
خضر البحار اذا قيست به برك

ولم يجد بقناطير مقنطرة
قد أرعيت باسمه ابريزها السكك

راح المعز وروح الشمس قد قبضا
فانظر بأى ضياء يصعد الفلك

ويموت أبو اسحق ابراهيم بن حسن المعافرى سنة ٤٤٣ هـ ، وكان عالما جليلا مشى فى جنازته المعز بن باديس فى جمع عظيم ، فيرثيه ابن رشيق ويقول :

يا للرزية فى أبى اسحق
ذهب الحمام بأنفس الأعلاق

ذهب الحمام بخاشع متبتل
تبكى العيون عليه باستحقاق

ذهب الحمام ببدر تم لم يدع
منه الردى الا هلال محاق

وحوت جنوب اللحد بحرا زاخرا
ترك البحار الخضر وهى سواق

فاليوم أغلق كل فهم بابه
لما فقدنا فاتح الأغلاق

ما القيروان اذقت ثكلك وحـ
ـدها قد ذاق ثكلك سائر الآفاق

وحين نقف من مرثيته للمعز ومرثيته لأبى اسحق ، نرى كيف رثى فى كل صفاته التى كان عليها ، ففى الأول رثى الشجاعة والجود والكرم ولقاء الأعداء ، بينا بكى فىالثانى العلم والحجا ، وأنه ابتدر قبل تقدم السن به ، وهكذا يوفق الرجل فى ذكر كل بما كان له من صفات تلائم مكانته وحياته وما كان له فيه باع .

(ب) رثاء الدول :

وهو باب من الرثاء لم يعرفه شعراء المشرق الا بعد أن عرفه شعراء المغرب ، ولعل ذلك انما كان لأن خراب المدائن ، وزوال الدول انما وقع فى العالم العربى أول ما وقع فى الغرب ، وربما كان أول ذلك على وجه التحديد فى الأندلس ، فقد كثر فيها انتزاع العروش ، وأفول الدويلات ، وخلع السلاطين ، وكان ذلك كثيرا ما يستتبع خراب المدائن وزوال عمرانها ، والغارة على القلاع والحصون والقرى مما لم يحدث نظيره فى المشرق الا فى عصور متأخرة . وكان من جراء هذا أن ظهر هذا النوع من الرثاء على ألسنة شعراء هذا الصقع الغربى من الوطن العربى ، فهذا محمد بن عبدون يرثى بنى المظفر أصحاب بطليوس من ملوك الطوائف فى الأندلس بقصيدة مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر
فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك ، لا آلوك معذرة
عن وقفة بين ناب الليث والظفر

وهذا أبو بكر محمد بن عيسى المشهور بابن اللبانة ، يرثى بنى المعتمد بن عباد وقد أنزل بهم يوسف ابن تاشفين ما شاء من نقمة وتعذيب ، بقصيدة مطلعها :

تبكى السماء بدمع رائح غادى
على البهاليل من أبناء عباد

فاذا ما خرب البربر القيروان وألجأوا معزها الى هجرها ، والفرار منها الى المهدية ، وتبعه أمثال ابن رشيق ، بعد ما رأوا ما نزل بها من صنوف التدمير والتخريب ، والعسف والهوان ، وانتهاك الحرم وهدم المساجد ، رأينا ابن رشيق وقد أنطقته الكارثة بقصيدة عدت فى هذا الباب — باب رثاء الدول — من أروع ما قيل فيه ، فقد وصف فيها ما كانت عليه القيروان من اطمئنان وأمان ، ومن رغد العيش وعز الحياة ، ثم ما صارت اليه من خوف وذعر ، وذلة ومهانة فقال :

كم كان فيها من كرام سادة ... بيض الوجوه شوامخ الايمان
متعاونين على الديانة والتقى ... لله فى الاسرار والاعلان
ومهذب جم الفضائل باذل ... لنواله ولعرضه صوان
وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا ... سنن الحديث ومشكل القرآن
علماء ان ساءلتهم كشفوا العمى ... بفقاهة وفصاحة وبيان

وما يزال ابن رشيق يصف ما كان عليه أهل القيروان من التقى والورع ، ورهبة الملوك لهم ، وخوف الورى منهم ، وماهم عليه من رزانة الأحلام . . الى أن يقول :

كانت تعد القيروان بهـم اذا   عد المنـــابر زهرة البلدان
وزهت على مصر وحق لها كما   تزهو بهم ، وغدت على بغدان
حسنت فلما اذ تكامل حسنها   وسـما اليها كل طرف ران
وتجمعت فيها الفضـــائل كلها   وغدت محـل الأمن والايمان

ثم يشير ابن رشيق الى وحدة الأمة العربية يومئذ ، وكيف أحزن أقطارها المترامية ما أصاب القيروان وذلك اذ يقول :

حزنت لها كور العراق بأسرها   وقرى الشآم ومصر والخرسان
وتزعزت لمصابها وتنـــكدت   أسفا بلاد الهنـــد والسندان
وعفا من الأقطار بعد خلائها   ما بين اندلس الى حلـــوان

وهكذا لم يقف الحزن على القيروان عند حـــدود العرب ، وانما تجاوزها الى الهند والسند ، كمـــا غمر الشرق والغرب العربيين .

ثم يذكر ان النجوم الزهر ، والجبال الشم والأرض الراسخة قد اهتزت لمصاب الغرب فى مدينته الكبرى ، وذلك اذ يقول :

وأرى النجوم طلعن غير زواهر   فى افقهن وأظلـــم القمران
وأرى الجبال الشم أمست خشعا   لمصـــابها وتزعزع الثقـــلان
والأرض من وله بهاقد أصبحت   بعد القرار شديدة الميـــلان

ثم يتساءل عما اذا كان فى الامكان أن تعود الى القـــيروان سيرتها ، ويرجع اليها عزها ، وكيف السبيل الى ذلك وقد لعب الزمان بأهلها ! فيقول :

أترى الليالى بعد ما صنعت بنا   نقضى لنا بتواصـــل وتدان

وتعيد أرض القيروان كعهدها — فيما مضى من سالف الأزمان
من بعد ما سلبت نضارة حسـ — نها الأيام واختلفت بها الملوان
وغدت كأن لم تغن قط ولم تكن — حرما عزيز النصر غير مهان
أمست وقد لعب الزمان بأهلها — وتقطعت بهم عرا الأقران
فتفرقوا أيدى سبا وتشتتوا — بعد اجتماعهم على الأوطان

وهكذا صور ابن رشيق النكبة كأروع ما يكون التصوير ، وأشده تأثير فى النفس ، وذكر الوحدة بين الأمة العربية وكيف ألم للنكبة شرقها وغربها ، مصرها ولبنانها،شامها وعراقها، أندلسها وخراسانها ، بل كيف ألمت الهند والسند لما نزل بالقيروان .

وقد أدى جميع هذه الأفكار فى قصيدته الطويلة دون أن يبدو عليه وهن ، أو يظهر فى أبياته ضعف ، الأمر الذى يدل على طول نفس الشاعر ، وان كان أكثر الذى له بين أيدينا فيما عدا هذه القصيدة ، وبضع قصائد أخرى لا يعدو أن يكون أبياتا يسيرة من قصائد لم تصل الينا كاملة حتى لسمى مجموع ماتجمع من شعره : النتف .

هذاوقد رأينابراعته فىتصوير حال المدينة فى عزها ، وبؤسها فى عمرانها وفى خرابها ، فى أمنها وفى خوفها مما يدل على شاعرية أصيلة لا يستعصى عليها معنى أن تعبر عنه تجليه بأسلوب الشاعر المتمكن المقتدر .

وقد تبعه فى قصيدته شعراء بعده لما رأوا مثل نكبة

القيروان ، وان كانوا فيما أرى لم يبلغوا من قصائدهم ما بلغ ابن رشيق فى نونيته . وهذا أبوالبقاء صالح بن شريف الرندي يرثى الأندلس ــ ولعله كان يعارض صاحبنا ــ فيقول :

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش انسان
هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شان

وواضح ما بين النسجين .

وهذا شمس الدين محمود الكوفى يرثى بغداد بنونيته أيضا ، يقول فيها :

ان لم تقرح أدمعى أجفانى من بعد بعدكم فما أجفانى
انسان عينى مذ تناءت داركم ما راقه نظر الى انسان
يا ليتنى قد مت قبل فراقكم ولساعة التوديع لا أحيانى
مالى وللأيام شتت خطبها شملى وخلانى بلا خلانى

الى آخر ما يقول ، ولعلك توافقنى على أن الصنعة قد غلبت على هذه القصيدة بل انها لا تشير الى خراب بغداد ، ولا الى انها مرثية الا بعد ذلك المطلع الطويل الذى يشبه أن يكون غزلا قبل أن يكون رثاء . فأين هذا من قصيدة ابن رشيق العربية الديباجة ، القوية الأسلوب ، المتجهة من أول أبياتها الى الموضوع الذى قصدت اليه فاستحقت اسم المرثية بحق ، واستهوت الشعراء أن يعارضوها ، ولكنهم لم يسددوا ولم يقاربوا .

هو وأغراض أخرى :

وإذا كان همنا فى هذا الباب أن نكشف عن جانب الشعر فى حياة ابن رشيق ، وقد أتينا على أغراض كان له فيها ما أثبت شاعريته ، فانه قال فى أغراض أخرى كثيرة منها العتاب ومنها الهجاء ، ومنها الحكمة ، غير أن ما وصل الى أيدينا من ذلك من القلة بحيث لايستحق أن نعقد لكل منه بابا ، أو نضع له عنوانا ، ولكننا لا يسعنا أن نغفل ذكره ، لذلك آثرنا أن نلم شعث ذلك تحت كلمة « أغراض أخرى » .

(ا) العتاب :

وله فيه قطع فمن ذلك عتبه على غلام لمحمدبن حبيب التنوخى كان لا يزال يزوره اذا غاب ، فاذا حضر لم يأته فقال له محمد يوما : هيا نصنع فى ذلك المعنى شعرا فقال هو وكأنه يعتب على الغلام :

ما بالنا نجفى فلا نوصل ... الا خلافا مثل ما تفعل
تأتى اذا غبنا فان لم نغب ... جعلت لا تأتى ولا تسأل
كهاجر أحبابه زائر ... أطلالهم من بعد أن يرحلوا

وقال محمد :

يا تاركا ان لم أغب زورتى ... وزائرى دأبا اذا غبت
وددت أن ودك لا ينثنى ... يزور فقدانى لو مت

وعلى أبيات ابن رشيق طلاوة ، فيها سلاسة تدل على طواعية الشعر ، وانه لا يغتصب اغتصابا كالذى نحسه فى أبيات صاحب

الغـــلام فانهـــا كزة جافية فيهـــا روح كد النفس ومجاهدتها حتى أتت بالبينتين .

(ب) الهجـــاء :

وكان صاحبنا فيه مقلا ، لأنه كان سمح النفس ، ســـهلا لا يدخل فى عداوات الناس ، لا يجر على نفسه ما لا يحب على أن ذلك المبدأ لم يمنعـــه من أن يهجو اذا اضطر ، ولم لا وهو الذى يقول :

اذا لم تجـــــد بدا من القول فانتصف
بحـــد لســـان كالحســـام المهنـــد
فقد يدفع الانســـان عن نفســـه الأذى
بمقـــوله ان لم يدافعـــه باليـــد

ولذلك نراه يهجو فيقول :

يا موجعى شـــتما على أنه ... لو فرك البرغوث ما أوجعا
كل له من نفســـه آفـــة ... وآفـــة النحلة أن تلســـعا

لكنه فى الجملة مقل فى هذا الباب وربما كان أيضا يطبق نقده على شعره فانه يقول « والشاعر أولى من كف منطقـــه ، وأقال عثرات اللسان ، لمـــا رزق القدرة على الـــكلام ، والعفو من القادر أحسن ، ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور . ذلك ما أخذ به ابن رشيق نفسه فى باب الهجاء .

(حـ) الحكمة :

وشاعر كصاحبنا عاش فوق الستين عاما ، يتصل بالولاة والأمراء ، ويلقى من تقريبهم ومن حسد الناس له على ذلك ، ومنافسة الشعراء على الحظوة فى بلاط الأمير ، ثم ما تلقنه الحياة بأحداثها وأتراحها لابد وأن يترك حكمة وخبرة ، تظهر فى شعره فيقول فى الاخوان :

لو قيل لى خذ أمانا ... من حادثات الزمان
لما أخذت أمانا ... الا من الاخوان

ويقول :

من يصحب الناس مطويا على دخل ... لا يصحبوه فخلوا كل تدخيل
لا تستطيلوا على ضعفى بقوتكم ... ان البعوضة قد تعدو على الفيل
وجانبوا المزح ان الجد يتبعه ... ورب موجعة فى اثر تقبيل

وقال فى المشاورة :

أشاور أقواما لآخذ رأيهم ... فيلوون عنى أعينا وخدودا
وليس برأيى حاجة غير أننى ... أؤنسه كيلا يكون وحيدا
ولا أنا ممن يبعث السهم راميا ... الى غرض حتى يكون سديدا
فلا يتهم عقلى الرجال فاننى ... أعرفهم أنى خلقت ودودا

وأخيرا نراه يقول :

اذا أتى الله يوم الحشر فى ظلل
وجىء بالأمم الماضين والرسل
وحاسب الخلق من أحصى بقدرته
أنفاسهم وتوفاهم الى أجل
ولم أجد فى كتابى غير سيئة
تسوءنى وعسى الاسلام يسلم لى
رجوت رحمة ربى وهى واسعة
ورحمة الله أرجى لى من العمل

وبعد أفلا يقوم ذلك الشعر كله ، على ما اتسم به من قوة العبارة ، ونصوع الديباجة ، وسلامة اللفظ وبعده عن الركيك والمبتذل ، وتأبيه عن المسف النازل ، أقول : أفلا يقوم ذلك بل بعض ذلك دليلا على شاعرية ابن رشيق ؟ بلى انه يقوم برهانا بينا ، وحجة ناصعة على أن ابن رشيق الناقد ، والذى عرف بكتابه العمدة فى نقد الشعر وصناعته ، هو أيضا ابن رشيق الشاعر الذى أبدع فى كثير من أبواب الشعر وأغراضه . ابداعا جعله يقرن نفسه بالمتنبى وأقرانه كابن الرومى وابن المعتز .

ولولا انه اشتهر بالنقد لكانت له شهرة بالشعر واسعة ، ولو أنه وصل الينا شعره كاملا لاستبان الناس فيه شاعرا يمكن أن يكون بين شعراء المغرب كما كان المتنبى وأبو نواس وابن الرومى وابن المعتز فى المشرق ، كما كانت تحدثه نفسه وتصور له .

خاتمة المطاف

اذا كانت أولية حياة ابن رشيق فى المحمدية قــد لقيت من الاهمال ما غطى كثيرا من جوانبها فان آخر عهــده بالحياة لقى المصــير ذاته . فمع ما نعلم من أنه قضى آخر عمــره فى جزيرة صقلية الا أن هذه الفترة يرين عليها صمت مطبق ، فالرجل الذى عاش فى القيروان يؤلف الــكتب ، ويمــدح الخليفة ، ويحاجى رفاقه ويلاغزهم ، ويقول الشــعر فى المجــون والخمــريات ، يلتزم الصمت فى جزيرة صقلية فما نسمع له فيها صوتا الا ماكان حين دعاه ابن شرف الى الرحلة للأندلس ، فيرفض ويعلل لرفضه بالبيتين :

مما يزهــدنى فى أرض أنــدلس
تلقيب معتمــد فيهــا ومعتضــد
ألقــاب مملــكة فى غير موضعهــا
كالهر يحكى انتفاخا صــولة الأســد

وسواء كان البيتان من شعره أو مما تمثل به فان فى القصة دليلا على ما كان عليه ذلك الشـيخ من البرم بالحياة ، والضيق بتقلبات الأمور فى البلاد الاسـلامية ، وكأنما توقع ألا تكون حياته فى الأندلس خيرا منها فى المغرب والجزيرة ، وهو قد رأى ما صارت على القيروان والمهدية ممـا اضطره الى الارتحال الى جزيرة صقلية . ومن ثم فقد آثر أن يبقى حيث هو ، وانه نازعته نفسه يوما أن يزور عبادا ــ أحد أمراء الأندلس ــ وذلك يوم كان بصقلية ذلك التاجر الذى لم يشأ أن يصحب ابن رشيق معه بعد ما مناه .

ومع ماصح عندى من أنه مات فى صقلية فان ياقوتا يذكر أنه مات بالقيروان ويذكر ان ابن رشيق ذكر ذلك عن نفسـه « فى كتابه الذى صنفه فى شعراء عصره ووسمه بالنمـوذج » (١) والتهافت فى الرواية بين اذ كيف يذكر الرجل مـكان وفاته او سنتها ؟ وقد تابع ياقوتا على ان القيروان كانت مثواه الاخـير السيوطى فقال أيضا «مات ابن رشيق بالقيروان» اما ابن خلكان فيقرر أن الرجل «لم يزل بالقيروان الى أن هجم العرب عليها وقتلوا أهلها وأخربوها فانتقل الى جزيرة صقلية وأقام بمازر الى أن مات ثم يعرف بمازر وانها قرية فى جزيرة صقلية ، وانه سيذكرها فى ترجمة المازرى ان شاء الله » (٢) .

(١) معجم الادباء جـ ٨ ص ١١٢ .
(٢) وفيات الاعيان جـ ٤ ص ١٦٤ .

ويعطى القفطى صورة تلقى ظلالا على آخر عهد ابن رشيق بالحياة حين يقول : « ولم يزل ابن رشيق على ماهو عليه من اقامة سوق الادب .. الى أن هجم العرب على القيروان وقتلوا من بها .. فعند ذلك فر عنها الى ساحل البحر المغربى .. ولم يمكنه المقام هناك فعدى البحر الى جزيرة صقلية ، ونزل بمازن ـ كذا ـ وهى مازر ـ احدى مدنها على أميرها ومتوليها ابن مطلود فاكرمه واختصه ، وقرأ عليه هذا كتبه ، ومن جملة ما رأيته من قراءته عليه كتاب العمدة فى صنعة الشعر ، وهو أجل كتبه وأكبرها ، ورأيت خط ابن رشيق على نسخة منه ، ولم يزل عنده الى أن مات بمازر فى حدود سنة خمس واربعمائة ـ كذا ـ ولعلها خمس وخمسين واربعمائة رحمة الله تعالى » (١) .

واذا صحت هذه الرواية ـ وهى فيما ارجح صحيحة ـ يكون ابن رشيق قد لقى فى جزيرة صقلية العوض من المعز وابنه تميم بالمغرب فى شخص ابن مطلود ، الذى أكرمه واختصه وقرأ عليه كتبه ـ وان لم نظفر بشيء من شعر الرجل يشير الى هذه الحياة والى ذلك الأمير الذى تحدث الرواية أن قد لقى صاحبنا فى كنفه الاعزاز والرعاية .

وأيا ما يكون فانه مات بمازر احدى مدن جزيرة صقلية .

أما عن سنة وفاته فان المؤرخين يختلفون عليها اختلافهم على سنة ميلاده ، فرأى صاحب معجم الادباء انه مات سنة ٤٥٦ هـ .

(١) أنباه الرواة ج ١ ص ٢٨٥ .

عن ست وستين سنة ويذكر مثل ذلك السيوطى وصاحب شذرات الذهب .

وأما ابن خلكان فله فى سنة وفاة ابن رشيق روايتان تقول أحداهما توفى الرجل سنة ٤٦٣ وتقول الأخرى « ورأيت بخط بعض الفضلاء انه توفى سنة ست وخمسين واربعمائة بمازر .. ويعقب على روايتيه بأن الأولى اصح ، الأمر الذى لايمكن أن نمر به من غير أن نناقشه .

وابن خلكان لم يذكر لترجيحه هذا مرجحا بل يعود بعد الروايتين فيذكر رواية ثالثة تتميز فيما ارى بالدقة حيث تذكر شهر الوفاة وسنتها بل والليلة التى لقى فيها ابن رشيق ربه — فيقول : « وقيل انه توفى ليلة السبت غرة ذى القعدة سنة ست وخمسين واربعمائة » .. ثم يقول : والله أعلم

والذى أميل الى ترجيحه من جملة هذه الروايات أن ابن رشيق مات سنة ٤٥٦ هـ . وليس سنة ٤٦٣ هـ ولا سنة ٤٦٦ هـ التى يقول بها بعض المتأخرين اذ نحن نعلم انه هاجر الى صقلية سنة ٤٥٣ هـ على الراجح فلا يعقل ان يعيش فيها فوق عشر سنوات ثم لانسمع له فيها ذكرا ، وهو من هو شاعرية ، وعلما وانتاجا . ولا استسيغ أن يكون عاش فترة كهذه ، وضاع انتاجه فيها لأن التاريخ فى هذه الفترة مدون فى أكثر من مصدر ، ويتحدث عمن هو أقل

من ابن رشيق شأنا ومكانا ، فالاقرب ان العمر لم يطـــل به فى الجزيرة وانما مات سنة ٤٥٦ هـ .

هذا الى أن الرواية التى تذكر ذلك تذكر ليلة وفاته وتذكر السـنة بالحـروف وليس بالأرقام ، وقد حملتنى الرغبة فى تحقيق ذلك على الرجوع الى كتـاب « التوفيقـات الالهـامية فى مقـارنة التـواريخ الهجـرية بالسنـين الافرنجية والقبطية » وعرضت عليه هذه الرواية وتبينت أن غرة ذى القعدة من سنة ٤٥٦ هـ يوافق يوم جمعة فى الـكتاب ـ والرواية تذكر أنه « توفى ليلة السبت غرة ذى القعدة » واختلاف غرر الشهور العربية بيوم مما يكثر وقوعه فى أيامنا مع مانستخدم من الآلات الحديثة فى رصد القمر ـ فالخلاف بيوم فى سنة ٤٥٦ لاغبار عليـه .

وعلى هذا يكون الأقرب والصحيح انه توفى سنة ٤٥٦ هـ .

وربما كان من شعره وهو فى الجزيرة رثاؤه المعز بن باديس بقـوله :

لكل حى وان طال المدى هلك	لاعز مملكة يبـقى ولا مـلك
ولى المعز على أعقابه فـرمى	أو كاد ينهد من أركانه الفلك
مضى فقيدا وأبقى فى خزائنه	هام الملوك وما أدراك ماملكوا

وبعد فتلك سيرة ابن رشيق الناقد الشاعر كتبتها ، وأرجو أن أكون وفقت فى تجليتها .

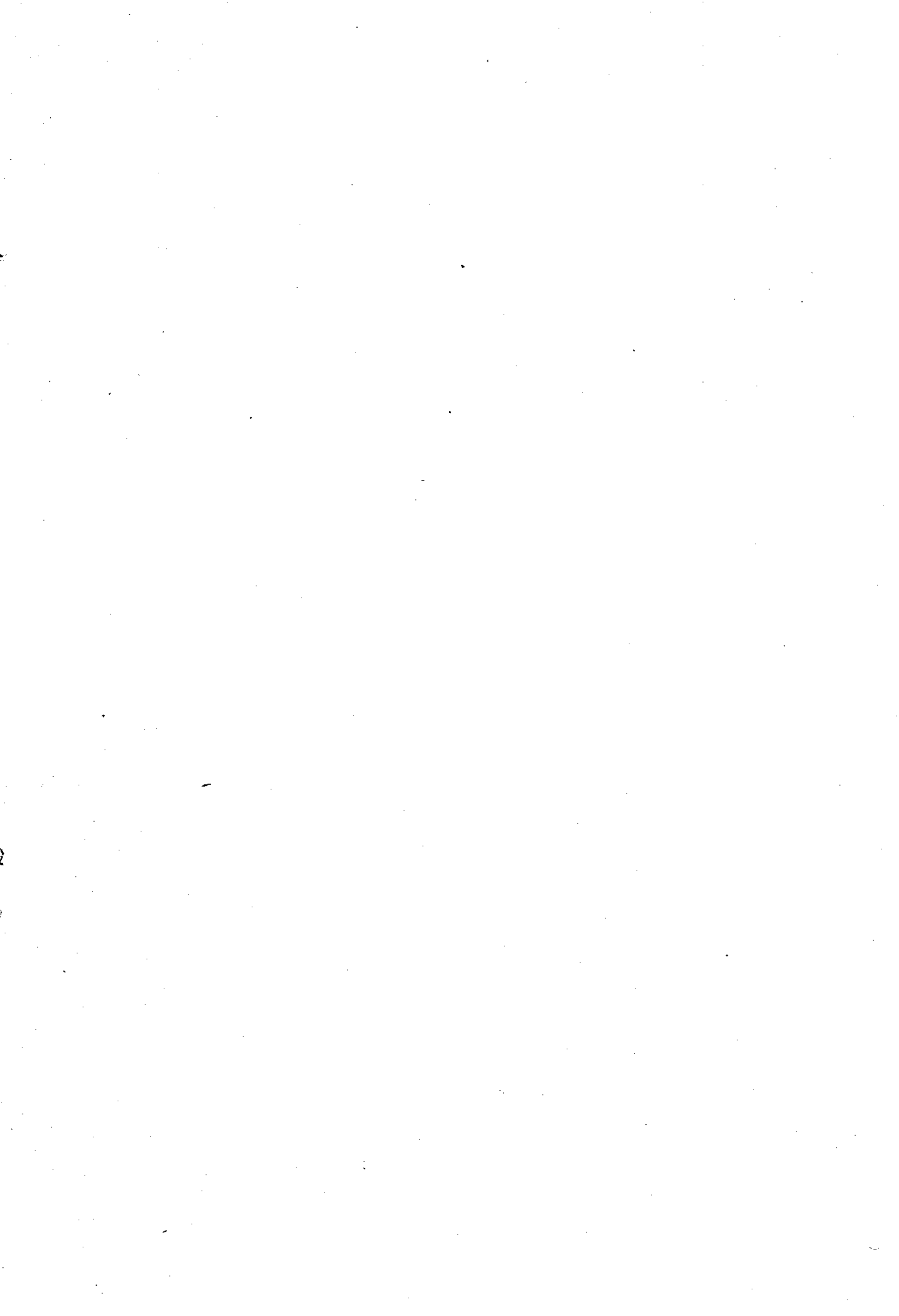
وما توفيقى الا بالله عليه توكلت ، واليه انيب .

عبد الرءوف مخلوف

المراجع

١ - ابن رشيق ... ... عبد العزيز الميمنى الراجكوتى
٢ - الاسس المبتكرة في دراسة الشعر الجاهلى ... ... عبد العزيز مزروع
٣ - أصول النقد الادبى ... ... أحمد الشايب
٤ - انباه الرواة على انباه النحاة ... ... القفطى
٥ - اعلام الكلام ... ... ابن شرف الجذامى القيروانى
٦ - اعجاز القران ... ... ابو بكر الباقلانى
٧ - أهدى سبيل الى علمي الخليل ... ... محمود مصطفى
٨ - بساط العقيق فى تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق ... ... حسن حسنى عبد الوهاب
٩ - بديع القرآن ... ... ابن ابى الاصبع
١٠ - تيارات ادبية ... ... ابراهيم سلامة
١١ - زهرات منثورة ... ... عبد الله عفيفى
١٢ - الذخيرة ... ... ابن بسام
١٣ - زهرة العمر ... ... توفيق الحكيم
١٤ - سر الفصاحة ... ... ابن سنان الخفاجى
١٥ - شذرات الذهب ... ... ابن العماد الحنبلى
١٦ - شرح ديوان الحماسة ... ... التبريزى
١٧ - صبيح الاعشى ... ... القلقشندى
١٨ - العربية ... ... بوهان فك ترجمة محمد عبد الله دراز
١٩ - ظهر الاسلام ... ... احمد امين
٢٠ - قدامة بن جعفر ... ... بدوى طبانة
٢١ - فن الشعر ... ... ارسطوترجمةعبد الرحمنبدوى
٢٢ - العمدة ... ... ابن رشيق القيروانى
٢٣ - قراضة الذهب ... ... ابن رشيق القيروانى
٢٤ - الكامل ... ... ابن الاثير

٢٥ ـ المقـــدمة ... ... ابن خلدون
٢٦ ـ الطبع والصنعة ... ... الهيهاوى
٢٧ ـ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ... ... شوقى ضيف
٢٨ ـ النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف عبد العزيز الميمنى الراجكوتى
٢٩ ـ النقد الجمـالى... ... ... روز غريب
٣٠ ـ النقـد الادبى ... ... أحمد امين
٣١ ـ النقد المنهجى ... ... محمد مندور
٣٢ ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ... ... الواحدى المراكشى
٣٣ ـ المسلمون فى جزيرة صقلية ... ... احمد توفيق المغربى
٣٤ ـ معجم البلدان ... ... ياقـوت
٣٥ ـ معجم الادبـاء ... ... ياقـوت
٣٦ ـ المجموعة المغربية ... ... ياقـوت
٣٧ ـ منهـل الوراد ... ... قسطاكى الحمصى
٣٨ ـ مقدمة لدراسة بلاغة العرب ... ... احمد ضيف
٣٩ ـ معجم المطبوعات ... ... يوسف سركيس
٤٠ ـ المخصـص ... ... ابن سيدة
٤١ ـ وفيات الاعيـان ... ... ابن خلكان
٤٢ ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه عبد العزيز الجرجانى
٤٣ ـ اليتيمـة ... ... الثعالبى



الفهرس

الفصل الأول : عصر ابن رشيق
٧ – ٣٦

الفصل الثانى : حياة ابن رشيق
« ٣٧ ـ ٦١ »

صفحة

الفصـل الثـالث : أخلاق ابن رشيق
« ٢٦ ـ ٦٥ »

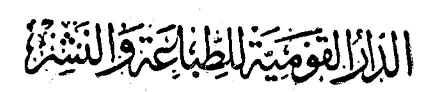
الفصل الرابع : آثاره ومؤلفاته
«٧٦ ـ ٨٥»

الفصل الخامس : ابن رشيق الناقد
«٨٦ ـ ٢٣٢»

صفحة

الفصل السادس ابن رشيق الشاعر

٢٣٣ — ٢٧٢


الدار القومية للطباعة والنشر